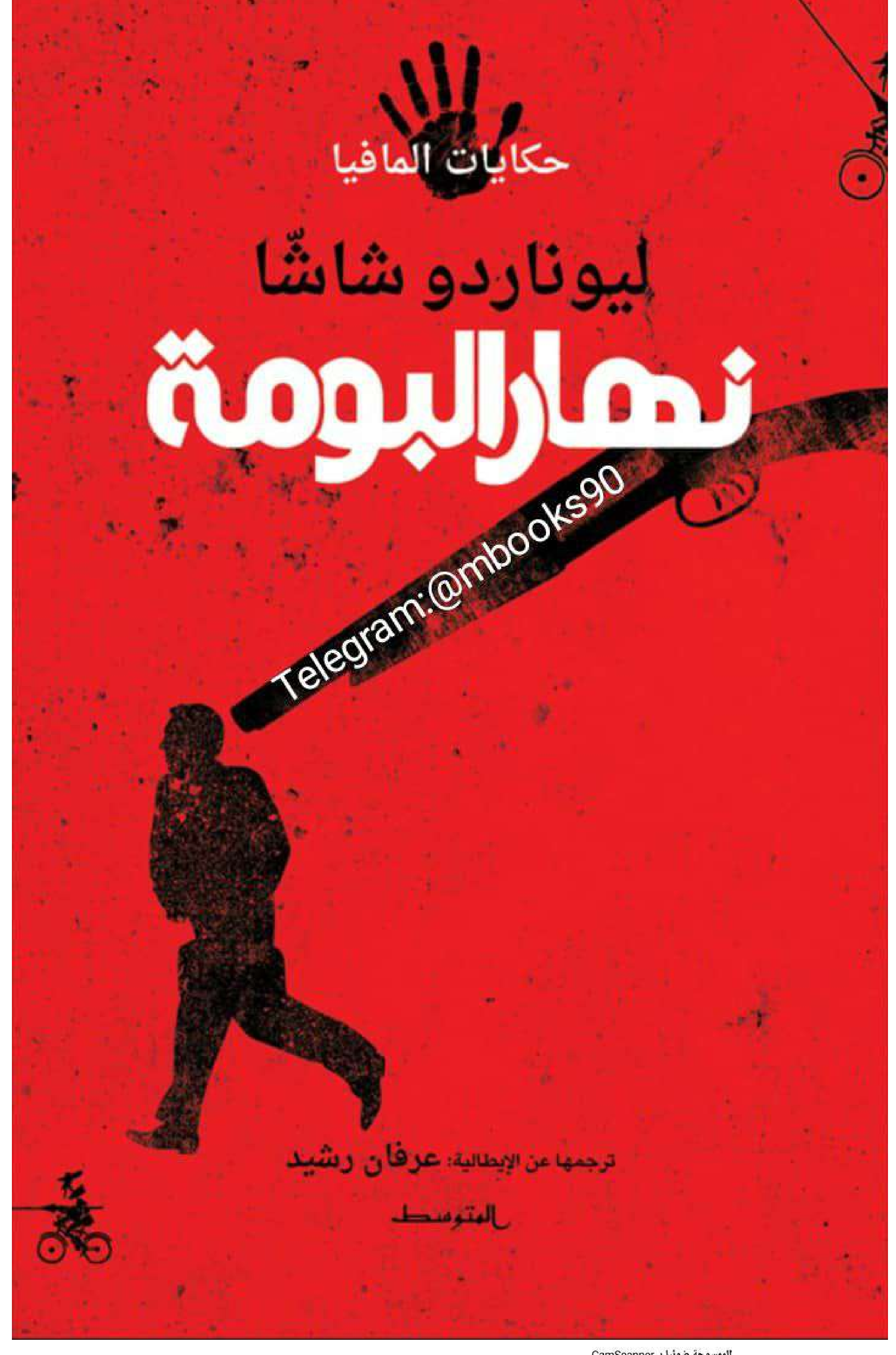

حكايات المافيا
ليوناردو شاشّا
نهار البومة
Telegram:@mbooks90
ترجمها عن الإيطالية: عرفان رشيد
المتوسط

"كإنسان، أودّ أن يُقال عنّي يوماً، بأنّني امرؤ أنجز، بالصدفة المحضة، كُتُباً ... بأنّني كنتُ رجلاً ناقضَ الآخرينَ، وتناقض مع ذاتِهِ،

بمعنى أنّني عشت وسط الكثير من "الأرواح الميتة"،

ووسط كثيرين ممّنْ لم يتناقضوا مع أحدٍ، ولم يُناقضوا ذواتهم."(1)

ليوناردو شاشا



ملاحظة للقارئ(2)

كتبتُ هذه القصّة في صيف عام 1960. لم تكن الحكومة الإيطالية آنذاك تكتفي بتجاهل ظاهرة المافيا فحسب، بل كان يبلغ بها الحال، دونما أيّ تردّد أو خجل، حدّ نفي وجود هذه الظاهرة. وما جلسة مجلس النوّاب حول حالة الأمن العامّ في صقليّة، وَرَدُّ الحكومة على استجوابات البرلمانيّين في هذا الصدد، (والمشار إليهما في هذا الكتاب)، إلّا حَدَثَين وقعا بالفعل. ويبدو ما جرى داخل مجلس النوّاب ضرباً من اللامعقول، سيّما وأنّ السنين الثلاثة السابقة على تلك الجلسة البرلمانية كانت قد شهدت نشاط لجنة تحقيق برلمانيّة مُتخصّصة بشؤون المافيا.

وشهدت تلك الفترة إعداد تقارير ودراسات كان بإمكان الحكومة، (والرأي العامّ أيضاً)، أن تستقيَ منها معلومات وافية حول الموضوع، ومن بين هذه التقارير والدراسات خلاصةُ لتحقيق برلماني (غير منشور) عن الحالة الاقتصادية والاجتماعية في صقليّة (1875)، وتحقيق آخر، بادر به باحثان شابّان، هما ليوپولدو فرانكيتي وسيدني سونّينو(3)؛ ناهيكَ عن ذلك كلّه، كتابات الباحث والسياسيّ الشيوعيّ ناپوليوني كولايانّي، ومقال لضابط شرطة سابق، اسمه جوزيپي آلونجي بعنوان "مافيا(4)"؛ ومذكّرات الوالي السابق تشيزيري موري(5) الذي بُعثَ إلى صقليّة خلال الحكم الفاشي، ومُنحَ مُطلق الصلاحيات، لقمع أيّ وجود لظاهرة المافيا.

إلى جانب ذلك، كان هناك كمٌّ هائلٌ من الإنتاج الأدبي، كالروايات، والقصص والنصوص المسرحيّة، وأفضل من ذلك كلّه كانت هناك تحقيقات صحفية، اطّلع عليها الجمهور الواسع، وعرف من خلالها بوجود المافيا، ومن بين هذه عملان، أوّلهما، مطبوعٌ شعبي انتشر على نطاق واسع، يُبرز عالماً شيّده مافيويّون صغار في أحياء شعبية لأنفسهم. كانوا سُرّاقاً ومشاغبين عنيفين، لكن، دون أن تكون قلوبهم خالية بالمطلق من قَدرٍ من العواطف، أو أن تكون تلك القلوب عاجزة عن التوبة؛ كان عنوان هذا التحقيق "مافيوِيّو ڤيكاريّا"، وهو عبارة عن نصّ كوميدي بقلم جوزيبي ريتسوتو وغاسپاري موسكا. و"ڤيكاريّا" هو اسم سجن پاليرمو، الشهير آنذاك، بمقدار شهرة سجن "أوتشاردوني" في پاليرمو اليوم.

أمّا النصّ الآخر، فقد كان بعنوان "مافيا"، ومن تأليف البروفيسّور جوڤانّي آلفريدو تشيزاريو الشاعر والأستاذ في جامعة پاليرمو ومترجم أعمال وليم شيكسبير. يتحدّث النصّ عن البرجوازية التي تتبنّى المافيوية كآيديولوجيا، وتمارسها في العلاقات الاجتماعيّة وفي السياسة كمنظومة حياة.

وبمستويات متباينة، تناول النصّان حالة التماهي مع المافيا، ليس بمعناها كمنظومة إجراميّة، (وهي ما كان يُنفى وجودها)، بل بما كان يُسمّيه الباحث الصقلّي الكبير جوزيبي پيترِي بـ "الإحساس بكون المرء مافيويّاً، في نظرته الخاصّة إلى الحياة، أو إلى أسس تحقيق العدالة وإدارتها عبر استخدام منظومة من السلوكيّات والأساليب الخاصّة،

وباستقلاليّة عن منظومة قوانين الدولة ومؤسّساتها".

على أنّ المافيا كانت، وما تزال، شيئاً آخر، بمعنى أنّها "منظومة" قائمة في صقليّة، تُحرّك المصالح الاقتصادية للطبقة التي يُمكن وصفها بالبرجوازيّة. ولا تظهر هذه المنظومة أو تنمو إلّا في ظلّ "الفراغ" الذي تتركه الدولة (أي عندما تعجز الدولة وقوانينها عن أداء الفعل الذي يُفترَض بها أن تؤدّيه)، والأدهى من ذلك كلّه، هو عندما تتمكّن المافيا من التسلّل إلى داخل منظومة الدولة نفسها.

وإذاً، فليست المافيا إلّا برجوازية مُتطفّلة، برجوازية لا تُبادر، بل تستغلّ فحسب.

وليس "نهار البومة"، في الواقع، إلّا نموذجاً واحداً لمحاولات تعريف المافيا. بمعنى أنّني، حين كتبتُ هذا النصّ، كنتُ أنوي التعريف بهذه الظاهرة. وربّما نتج عنه، إلى جانب تلك النّيّة، نصٌّ روائي جيّد.

ليوناردو شاشا

كما البومة حينَ تلوحُ للعين نهاراً.

وليم شيكسبير - "هنري الرابع"

كانت الحافلة الموشكة على الانطلاق تُصدِرُ هديراً مكبوتاً، يترافق مع شحطات مفاجئة واهتزازات حادّة. ساحة البلدة ما تزال مغلّفةً بضياء الفجر الرّماديّ، فيما أحاطت موجات من الضباب بالبرج الرئيس للكنيسة المركزيّة، لا شيء سوى ضجيج الحافلة وصيحات بائع فطائر

الحمّص وهو ينادي بنبرة متوسّلة وهازئة: فطائر طازجة وساخنة.

أغلق قاطع التذاكر الباب الخلفي للحافلة التي بدأت بالتحرّك ببطء مُصدِرة ضجيجاً شبيهاً بتلاطم قِطَعٍ معدنيّة، وكأنّ جسد الحافلة يكاد يتفكك. وحين ألقى نظرته الأخيرة على الساحة، التقطت عيناه صورة رجلٍ، ببِزّة غامقة اللون، يعدو صوب الحافلة؛ نادى على السائق - انتظر لحظة - وفتح الباب فيما الحافلة ما تزال سائرةً. سَمِعَ هدير إطلاقتَين، شقّتا هدوء الفجر، الرجل ذي البِزّة غامقة اللون، والذي كان على وشك أنْ يضع قَدَمه على سلّم الحافلة، بقيَ مُعلّقاً في الهواء لوهلةٍ، كما لو أنّ يداً خفيّة سحبتْهُ إلى الوراء من شَعْره؛ سقطت المحفظة من تحت إبطه، بينما كان هو يتهاوى ببطءٍ على الأرض.

أطلق قاطع التذاكر لعنات مُتكرّرة، امتقع وجهه، وصار أصفرَ بلون

الكبريت، وارتجف جسده كما المحموم. بائع الفطائر، الذي كان على مقربة ثلاثة أمتار من الرجل المُصاب، بدأ بالانسحاب متراجعاً إلى الوراء مثل سرطانِ البحر مُبتعداً صوب بوّابة الكنيسة. لم يَأتِ مَنْ كانوا على متن الحافلة بأيّة حركة، وتحجّر سائق الحافلة في مقعده، بقي كفّه الأيسر مُمسكاً بمقبض ساق الفرامل اليدوية، وتجمّد الكفّ الأيمن على مقوَد الحافلة. حدّق قاطع التذاكر في كلّ تلك الوجوه التي بدت وكأنّها وجوهُ لعميان؛ قال: لقد قتلوه. خلع قُبّعته، ومرّر أصابعه بين خصلات شَعْره؛ لَعَنَ مُجدّداً.

صاح السائق: الدّرَك(6). ينبغي علينا استدعاء الدّرَك.

نهض من مقعده، وفتح الباب الأمامي للحافلة، وقال لقاطع التذاكر، سأذهب لإبلاغهم.

وزّع قاطع التذاكر نظراته ما بين القتيل المُسجّى على الأرض وزكّاب الحافلة. كان على متنها بضع نساءٍ عجائز، كنّ يحملنَ كل صباح أكياساً ثقيلة من القماش الأبيض، وسلالاً ملأى بالبيض؛ كانت ثيابهنّ تبعث رائحة مَزيَلَة المطبخ الممزوجة برائحة دخان الخشب المحروق؛ كنّ في العادة غاضبات وكثيرات الشكوى، لكنهنّ يجلسنَ الآن هادئات بوجوه بَدَث وكأنّها قُبِرَث في الصمت منذ قرون.

- مَنْ هو؟ سأل قاطع التذاكر مشيراً إلى جثّة القتيل.

لم يُجِبْ أحدٌ على سؤاله. لَعَنَ من جديد. كان من سكّان محافظة سيراكوزا، ولم يَعتَد على رؤية مشاهد الموت اغتيالاً، محافظة حمقاء، سيراكوزا تلك، ولهذا السبب تراه كان يلعنُ بغضب أشدّ.

وصل رجال الدَّرَك، وكان الرقيب أوّل قاتمَ السحنة بسبب لحيته غير الحليقة، ولاستيقاظه السريع والمُفاجِئ من النوم. بالنسبة إلى رُكّاب الحافلة فإن وصول رجال الشرطة إلى المكان، كساعة التنبيه للاستيقاظ، بدؤوا بالنزول التدريجي من الباب الخلفي للحافلة الذي تركه قاطع التذاكر مفتوحاً. أوحت وجوههم بلامبالاة ظاهريّة، وابتعدوا رويداً رويداً، كما لو أنهم اختاروا الوقوف على مسافة مناسبة لإلقاء نظرة مُتفحّصة على أبراج الكنيسة، ليتأمّلوا جمالها. انتشروا على أطراف الساحة، وتسلّلوا بعد إلقاء النظرة الأخيرة على الميت.

لم ينتبه الرقيب أوّل ورجاله إلى عملية الانسحاب الهادئ تلك. تجمهر حول الحافلة والميت ما يربو على خمسين شخصاً، كانوا ضمن أفراد مجموعة من المتدرّبين في مشروع بناء. شعروا في تلك اللحظة بقَدْر من الارتياح، لأنّهم عثروا على موضوع سيكسر رتابة حواراتهم اليومية المتكرّرة خلال ساعات العمل الثمان.

وجّه الرقيب أوّل أوامره إلى رجاله لتفريق المتجمهرين وتفريغ الساحة وإعادة المسافرين إلى متن الحافلة، أبعد رجال الشرطة المتطفّلينَ صوب الشوارع الجانبية المتفرّعة من الساحة، ونادوا على الركّاب للصعود والجلوس في الأماكن التي كانوا يحتلّونها لحظة وقوع الحادث. وعندما فرغت الساحة، كانت الحافلة، بدورها، فارغة من الركّاب، إذ لم يكن على متنها إلّا السائق وقاطع التذاكر.

- ما الذي يحدث؟ - تساءل الرقيب أوّل - ألم يكن هناك أيّ مسافر معكم هذا الصباح؟

- كان هناك بعض الركّاب - ردّ السائق وقد عَلَت سحنته علائمُ مَنْ فَقَدَ الذاكرة.

- بعض الركّاب، تقول؟! - سأل الرقيب أوّل - هل تعني أنهم كانوا أربعة أو خمسة أشخاص؟ شخصياً لم يُصادفني أنْ أشاهد هذه الحافلة تُغادر البلدة دون أن تكون مقاعدها جميعها مشغولة.

- لا أدري. قال السائق، وهو في حالة خشوع وخنوع تامّين موحِياً إلى أنّه يحاول التذكّر، لا أدري حقّاً، أعني كان هنا بعض الركّاب؛

بالتأكيد لم يكونوا خمسة أو ستة أشخاص، كان العدد أكبر، ربّما كانت الحافلة ممتلئة. أنا لا أرى الناس الذين يصعدون، أدلف إلى مكاني، وأنطلق. أركّز ذهني وانتباهي على الطريق فحسب، إنّهم يدفعون لي راتبي، لأنظر إلى الطريق، وأركّز انتباهي عليه.

مرّر الرقيب أوّل يده المتوتّرة على وجهه وقال:

- نعم، أفهم ما تدّعي. أنتَ تنظر إلى الطريق فحسب، وماذا عنكَ أنتَ؟ ما الذي تنظر إليه أنتَ؟

استدار إلى قاطعَ التذاكر غاضباً، أنتَ تقطع التذاكر، تأخذ النقود، وتُعيد الباقي إلى الركّاب، وتنظر إلى وجوههم، وإذا لم تكن راغباً في استذكار تلك الوجوه وأنتَ تقبع في زنزانة التوقيف، أنصحكَ بأن تُخبرني عمّنْ كان على متن الحافلة، أنتَ تعمل على هذا الخطّ منذ ثلاث سنين، ومنذ ثلاث سنين أراكَ مساءً في بار إيطاليا، أنتَ تعرف البلدة وناسها أفضل منّي.

ردّ قاطع التذاكر وبسمةٌ ماكرة تعلو مُحيّاه: ليس بمقدور أحد أن يعرف البلدة وأهلها أفضل منكَ، حضرة الرقيب الأوّل. محاوِلاً الاحتماء بذلك المديح المتملّق.

قال الرقيب أوّل مبتسماً: حسنٌ، لنقل ذلك، لنقل بأنّني الأوّل في هذا الإطار، وأنتَ تأتي في المرتبة التالية، حسنٌ. لكنّي لم أكن موجوداً معكم على متن الحافلة. ولو كنتُ هناك، لتذكّرتُ وجوه المسافرين فرداً فرداً، ولذا فالدور عندكَ، عليكَ أن تدلّني على عشرة أشخاصٍ منهم

على الأقلّ.

قال قاطع التذاكر: لا أتذكّر، أقسم لك بروح والدتي، لا أتذكّر؛ أعجز عن تذكّر أيّ شيء في هذه اللحظة، يبدو لي وكأنّني في كابوس.

غضب الرقيب أوّل: سأوقظك أنا، سأوقظك من هذا الكابوس، سأوقظك منه بسَنَتَي سجن.

توقّف عن الكلام فجأة، ليتّجه صوب قاضي التحقيق الذي وصل إلى المكان. وبينما كان يُبلّغ القاضي عن هويّة القتيل وعن تسلّل وفرار مَنْ كانوا على متن الحافلة، انتابَهُ إحساسٌ بأن هناك شيئاً ما خارج موقعه، أو هو غائبٌ عن الساحة في تلك الساعة، بالضبط كما يختفي شيءٌ مَا فجأةً من مألوفنا اليومي، شيءٌ يسكن في مشاعرنا حتّى لا نعود ننتبه إليه، إلّا أنّ غيابه أو انتقاله من موقعه المعتاد يُولّد فينا فراغاً صغيراً أو إحساساً بضياع شيءٍ ما، حينها تبدأ أذهاننا بإطلاق ومضاتٍ تضيء وتنطفئ بتواتر، مثيرةً لدينا الانزعاج والغضب، ولا تنتهي هذه الحالة إلّا عندما تستعيد أذهاننا صورة ذلك الشيء الغائب.

- ثمّة ما هو غائب، أو ليس في محلّه. قال الرقيب أوّل لنائب العريف سپوزيتو، الذي كان يُعدُّ من بين أعمدة مركز الدَّرَك في بلدة "S" بفضل شهادة دبلوم الحسابات التي سبق وأن نالها.

- بائع الفطائر. قال نائب العريف سپوزيتو.

- اللعنة! بائع الفطائر، نعم. صاح الرقيب أوّل مُبتهجاً، وفكّر في داخله: "مدارسنا الوطنية لا تمنح دبلوم الحسابات لأوّلِ عابر!".

ـ أرسِل شرطياً ليبحث عن بائع الفطائر، وليَقتَده إلى المكان.

كان ذلك الشرطيّ يعلم أين يجده، إذ كان معتاداً على التوجّه إلى المدرسة الابتدائية بعد رحيل الحافلة من الساحة، ليبيع فطائره للتلاميذ. ولم تمضِ إلّا عشر دقائق حتى كان البائع واقفاً بين يَدَي الرقيب الأوّل، وسحنته تحمل ملامح رجلٍ أوقظ عنوةً من النوم الأكثر هناءة.

- هل كان موجوداً هنا؟ سأل الرقيب أوّل قاطعَ التذاكر وهو يشير إلى بائع الفطائر.

- نعم، كان موجوداً. أجاب قاطع التذاكر وهو يُحدّق في حذائه.

قال الرقيب أوّل برقّةٍ أبويّة: وإذاً؟ في هذا الصباح، جئتَ كعادتكَ إلى هنا، لتبيع فطائركَ، عند انطلاق الحافلة الأولى إلى پاليرمو.

قال بائع الفطائر: لديّ رُخصة بيع قانونيّة.

ـ أعلم ذلك جيّداً. قال الرقيب أوّل رافعاً عينَيه إلى السماء كالباحث عن إلهام للصبر وهدوء الأعصاب، ثم أضاف، أعلم ذلك، ولستُ مَعنيّاً برُخصتكَ لبيع الفطائر؛ أريد أن أعرف منكَ أمراً واحداً فحسب. أخبِرني به، وسأتركُكَ تذهب لبيع فطائركَ إلى التلاميذ، مَن الذي أطلق النار؟

تساءل البائع بدهشة وفضول: لِمَ؟! هل أطلقوا النار؟

**

- نعم، في السادسة وثلاثين دقيقة صباحاً، من زاوية شارع كافور، طلقتا بندقية من عيار12ملم، وربّما كانت بندقية مزدوجة بماسورة مقصوصة. لم يشاهد الحدثَ أيّ ممّن كانوا على متن الحافلة، إنها مهمّة عسيرة لتحديد هويّة مَنْ كان على متن الحافلة في تلك اللحظة، فحين وصلتُ إلى موقع الحادث، كان الجميع قد ذابوا كالملح في كأس ماء. رجلٌ يبيع فطائر الحمّص، تذكّر، لكنْ بعد انقضاء ساعَتَين، بأنّه شاهد، في زاوية التقاء شارع غاريبالدي بساحة كافور، شيئاً متكوّراً كشوال فحم، أسنِدَ إلى جوار الكنيسة، ومن ذلك الشوال بالذات صدرت لمعتان، هكذا يقول، ونَذَرَ إلى قدّيسة فارا تُفن صاعٍ من الحمّص. لأنّها، أي القدّيسة، هشّت تلك الرّصاصَتَين عنه، وأنقذته من الإصابة. قاطع التذاكر لم يشاهد شوال الفحم. ومَنْ كانوا على جهة اليمين قالوا إن زجاج نوافذ الحافلة كان مغبّشاً بسبب برودة الطقس في الخارج. وقد يكون هذا ما حدث بالفعل. إنّه رئيس تعاونية للإنشاءات. تعاونية صغيرة، ويبدو أنه لم يلتزم حتى الآن بأيّةِ مناقصة تتجاوز قيمتها عشرون مليون ليرة، أجزاءً صغيرة من مساكن شعبية، أو أعمالُ مجارٍ للصرف الصحي، أو إصلاحات في شوارع غير رئيسة. سلفاتوري كولاسبيرنا.. كو- لا- سبي- رنا، كان يعمل بنّاءً قبل عشر سنوات، ثمّ أسّس هذه التعاونية برفقة شقيقَيه وأربعة أو خمسة من زملائه من عمّال البناء في البلدة. كان مُشرفاً على الأشغال رغم أنّه مسجّلٌ كمسّاحِ أراضٍ، وكان أيضاً يتولّى الشؤون الإدارية في التعاونيّة، ويبذل مسعاه لتحقيق الأفضل. وكانوا، هو وشركاؤه، قنوعين بما يتقاضون، حتى لو كان الناتج متواضعاً، بالضبط كما لو أنهم يعملون براتبٍ شهري.

لا، لا. لم يحدث أن أنجزوا، حتى الآن، أعمالاً تتعرّض إلى الانهيار بعد أوّل زخّة مطر. أتيحت لي فرصة رؤية منزل ريفي، شُيّد حديثاً، انهار وصار كعلبة كرتونية، لأن بقرة غاضبة انهالت عليه بضربات من قرنَيها. لا، شركة زميرالدو، وهي شركة كبيرة، هي التي شيّدت ذلك المنزل. منزل ريفي انهدم بفعل ضربات قرنَي بقرة. وحسبما سمعت، فإن تعاونية كولاسبيرنا تُنجز أعمالاً صلدة وقوية، وبالفعل فإنّ هذه التعاونية عمّرت هنا، في البلدة، شارع "عذراء فاطمة"، وبقي صلداً دون أن يهبط حتى سنتمتراً واحداً رغم مرور الشاحنات الثقيلة فيه، فيما بدأت الشوارع الأخرى، التي عمّرتها شركات أكبر من هذه التّعاونيّة، بالانخفاض بعد أقلّ من سنة واحدة من انتهاء العمل فيها، وتبدو في غالبها مثل سنام الجمال .... نعم، كانت لديه سوابق، في عام ألف وتسعمائة وثلا ... نعم ، في عام ثلاثة وأربعين، كان يستقلّ حافلة، ويبدو أن هذا الرجل أُصيب بلعنة الحافلات، كان أحد رُكّاب تلك الحافلة يتحدّث عن الحرب وعن الاجتياح الإيطالي لليونان، فقال أحدهم "سنمضغ اليونان مثل لقمة خلال خمسة عشر يوماً"، فما كان من كولاسبيرنا إلّا وردّ عليه مازحاً "وهل اليونان بيضة نصف مسلوقة حتى نمضغها؟" وشاء سوء الطالع الذي يُلاحقه أنْ يكون على متن الحافلة أحد أفراد ميليشيات الحزب الفاشي، الذي سارع إلى رفع شكوى ضدّه إلى السلطات .... ماذا؟ عذراً، سيّدي، أنتم مَنْ طلبتم منّي التأكّد ما إذا كانت لديه سوابق قضائية، وأنا، بالأوراق التي في حوزتي الآن، أقول لكم، نعم، كانت لديه سوابق. حسنٌ، سيّدي، كلّا، لم تكن لديه سوابق. هل أنا فاشي؟ أنا كنتُ أتعوّذ وأصلّي للقدّيسين عندما كانت

عيناي تتقاطعان مع "الفاشو"(7).... نعم، سيّدي، بأمركم.

علّق سمّاعة الهاتف في موقعها بهدوء غاضب، مرّر منديلاً على جبهته المتعرّقة: أعتقد بأن هذا الضابط كان في صفوف الأنصار(8). لم يكن ينقصني إلّا مسؤولٌ قاتلَ من الأنصار.

**

كان الأخَوان كولاسبيرنا وشركاؤهما الآخرون في تعاونيّة "سانتا فارا"، ينتظرون وصول النقيب. كانوا جالسين على صفٍّ واحد بجانب بعضهم، بِبزّاتهم السوداء، فيما لفّع الأخَوان رقبَتَيهما بشال صوفي أسود، ولِحيتاهما طويلتان وعيونهما مُخمَرّة؛ كان الجميع في الانتظار داخل صالة في مركز الدَّرَك لبلدة "S". ودون أن يأتوا حراكاً، كانت عيونهم شاخصة في هدف ملوّن على الجدار، وفي لوحة كُتب عليها "نقطة تفريغ الأسلحة". كان الخجل من العار يحرق الجميع من الداخل، بسبب المكان الذي تواجدوا فيه، وبسبب طول الانتظار. لم يكن الموت، بالنسبة إليهم، شيئاً يُذكَر، إذا ما قيس بمرارة الإحساس بالخجل من العار.

بعيداً عنهم، وعلى بُعد بضعة أمتار، كانت امرأة شابّة تجلس على حافّة كرسي، وصلت إلى المركز بعد وصولهم، على أمل الحديث مع الرقيب الأوّل، كما أعلمهم حارس المركز. وأعلمَ الحارسُ المرأةَ أيضاً بأن الرقيب أوّل مشغول، وهو بانتظار وصول النقيب، وأنّ لديه ما ينبغي إعداده قبل وصول المسؤول؛ ردّت المرأة - سأنتظر ريثما يفرغُ

من انشغاله - وجلست على حافّة الكرسي. كانت يداها متوتّرتَين ودائمَتي الحركة تثيران العصبية لدى الناظر إليهما. كان الرجال يعرفون المرأة. إنّها زوجة مقلّم أشجارٍ، جاء إلى البلدة من مكان آخر. من بلدة "B" القريبة. وصل ما بعد الحرب واستقرّ في بلدة "S" حيث اقترن بالمرأة. ووفّرت له دوطة(9) الزوجة ومدخول عمله الحالي إمكانيةَ أنْ يصنّف بين المرفّهين في البلدة. فكّر رجال تعاونية سانتا فارا في دواخلهم، "ربّما تخاصمت السيّدة مع زوجها، وجاءت لتشتكيه إلى الرقيب الأوّل"، وكانت تلك الفكرة هي الأمر الوحيد الذي يتشاغلون به، ليُزيحوا عن بالهم مشاعر الخجل والعار.

سُمعتْ أصوات وصول سيّارة وتوقّفها في باحة المركز، وبعد ذلك سُمعت أصوات كعوب أقدام الشرطة كشارة استعداد واحترام لمرور النقيب على طول الممرّ. دخل النقيب إلى الصالة التي ينتظر فيها الرجال، فيما كان الرقيب أوّل يفتح باب غرفته، ويتصلّب بتحيّة عسكرية، برأس مرفوع إلى درجة أثارت الإحساس بأنّه راغبٌ في تفحّص سقف الغرفة. كان النقيب شاباً طويل القامة وببشرة بيضاء؛ وبعد الكلمات الأولى التي تبادلها مع شركاء تعاونيّة سانتا فارا، فكّر هؤلاء في دواخلهم "إنّه من القارّة"(10)؛ أي ما يعني في قناعة الصقلّيّين بأن من يأتي مِن الشمال ودودٌ للغاية، لكنّه لا يفقهُ شيئاً من الأمور هنا في صقليّة.

عاد الرجال إلى الجلوس مُجدّداً واحداً إلى جنب آخر في مواجهة الطاولة في غرفة الرقيب الأوّل، جلس النقيب على كرسي الرقيب

أوّل ذي المسندَين، بينما ظلّ المرؤوس واقفاً إلى جواره، وجلس نائب العريف سپوزيتو إلى طاولة أخرى، وُضعت عليها الآلة الكاتبة لتسجيل الإفادات. كانت سحنة نائب العريف سپوزيتو طفوليّة. لكنْ، الأخَوَان كولاسبيرنا وشركاؤهما شعروا إزاءه بقلق مخيف، وذلك هو الرعب من التحقيق الذي لا يرحم، ومن هول بذرة الكتابة السوداء. "أرض بيضاء، وبذور سوداء". فـ "مَنْ يُجيد الكتابة، سيُخطّط لفعلٍ ما لا محالة"، كما تقول الأُحجيّة الشعبيّة الخاصّة بقدرة الكتابة.

أعرب النقيب للرجال الجالسين قُبالته عن العزاء بكلمات قليلة، واعتذر عن دعوتهم إلى مركز الشرطة، وعن تأخّره في الوصول. فكّر كلّ واحد من الرجال في داخله مرّة أخرى بالفكرة نفسها: "قارِئٌ من الشمال! يا لهم من ودودين مؤدّبين أهلُ الشمال!"، لكنّ نظراتهم لم تكن لتشيحَ عن نائب العريف سپوزيتو، الذي أراح أصابعه، بتأنٍّ ورهافة، على مفاتيح الآلة الكاتبة. هادئاً كان ويقظاً مثل صيّادٍ أراح سبّابته على الزناد، بانتظار مرور الأرنب البرّي في وضح ضياء القمر.

- إنّه أمرٌ مُثير للفضول حقّاً. قال النقيب كما لو أنّه يواصل حديثاً سبق أنْ بدأه وتوقّف عنه. غريبٌ كيف يتمّ الإعراب عن الغضب والاستياء عبر رسائل مجهولة المُرسِل؟! لا أحد يُفصح عن شيء. لكنْ، ولحسن حظّنا، أعني حظّنا نحن رجال الدّرَك، فإنّ الجميع هنا يكتبون. قد يتناسون تذييل تلك الرسائل بتواقيعهم، لكنّهم يكتبون. وبعد أيّ جريمة قتل أو سطو وسرقة، ها هي عشرات الرسائل مجهولة المُرسِل تصل إلى طاولتي؛ تصلني رسائل أيضاً عن النزاعات والمشاحنات

العائليّة وعن حالات الإفلاس المتعمّد. يكتبون إليّ أيضاً عن الأوضاع النّفسيّة، وعن سلوكيات بعض رجالنا.

ابتسم النقيب مُلقِياً نظرة إلى الرقيب الأوّل، ربّما للإيحاء بمَنْ يقصد، فكّر رجال تعاونيّة سانتا فارا، بأنّ الشرطيّ ساڤارينو على علاقة غرامية مع ابنة بائع التبوغ پالّيتسولو، فقد بات سكّان البلدة جميعهم على علم بذلك، ويتوقّعون اقتراب موعد نقل الشرطيّ ساڤارينو إلى مكان آخر.

تابع النقيب: ولقضيّة كولاسبيرنا، وصلتني حتى الآن خمس رسائل مجهولة المرسِل، ولكونها تخصّ قضيّة لم تقع إلّا في الأوّل من أمس، فإن ذلك رَقْمٌ لا بأس به؛ وستصلني رسائل أخرى بالتأكيد. كولاسبيرنا اغتيل بسبب الغَيرة، إنها قضية خيانة زوجية. كما تقول إحدى هذه الرسائل، وهي أيضاً تحتوي على اسم الزوج الغيور الذي تعرّض للخيانة.

قاطعه جوزيپي كولاسبيرنا: لقد جُنّ الناس حقّاً.

عقّب النقيب: هذا هو رأيي أنا أيضاً. ولقد اغتيل بالخطأ، حسب رسالة أخرى، لأنّه كان شبيهاً بشخص اسمه پيرّيكوني، وهو الشخص، برأي صاحب هذه الرسالة، الذي سينال قريباً الرصاصة التي يستحقّ!

تبادل شركاء تعاونيّة سانتا فارا نظرة سريعة فيما بينهم، كما لو أنّهم يتشاورون.

- ربّما، ذلك مُمكن. قال جوزيپي كولاسبيرنا.

فقال النقيب: غير مُمكن، لأنّ پيرّيكوني الذي تتحدّث عنه الرسالة حصل قبل خمسة عشر يوماً على جواز السفر، وهو الآن موجود في مدينة لييج في بلجيكا، ربّما كنتم، أنتم، تجهلون ذلك، وبالتأكيد يجهلهُ مُرسِل هذا الخطاب. لكنْ، لا يمكن أن يجهله مَنْ ينصب كميناً لاغتياله. لن أبلغكم بمعلومات أخرى، أكثر حماقة ممّا ذُكرت حتّى الآن، لكنّ هناك معلومة أرجو منكم الانتباه إليها وأخذها مأخذ الجدّ، لأنّها، برأيي، قد تشير لمسار جيّد. عملكم، المنافسات والمناقصات. هناك بالضبط، ينبغي التحرّي.

نظرة تشاوريّة سريعة أخرى بين الرجال.

- غير ممكن. قال جوزيبي كولاسبيرنا.

قال النقيب: بل هو ممكنٌ للغاية، وأزيدكم أيضاً عن السبب. فبالإضافة إلى قضيّتكم توافرت لديّ معلومات كثيرة ومُفصّلة عن المناقصات. إنها، للأسف الشديد، ما تزال مجرّد معلومات، وآمل أن تتوفّر لديّ الدلائل. لنفترض بأنّه توجد في هذه المنطقة، في هذه المقاطعة، عشر شركات تعمل في إنجاز المشاريع. لدى كلٍّ من هذه الشركات آليات وموادّ، وهي أشياءُ تُترَكُ ليلاً في العراء إلى جوار مواقع العمل والبناء؛ والآليات حسّاسة للغاية، فإنْ أزلت منها قطعة واحدة فحسب، حتّى لو كانت تلك القطعة بُرغيّاً صغيراً، فإنّ الشركة ستحتاج إلى ساعات طويلة لإعادة تشغيل تلك الآلة. الموادّ الأخرى أيضاً، كالمحروقات، القار، مساند التسليح الإسمنتي، كلّها قابلةٌ للسرقة

أو الإتلاف أو الحرق في أماكنها. صحيح أنّ في مواقع العمل هناك دائماً كوخ يسهر فيه حارس ليلي أو حارسان، لكن هذَين العاملَين قد يخلدان إلى النوم في ساعة ما؛ وهناك مَنْ لا يخلد إلى النوم أبداً، وأنتم تُدركون ما أقول ومَنْ أعني. أوَليس من الأفضل، إذاً، التوجّه إلى هؤلاء، الذين لا يخلدون إلى النوم أبداً لطلب الحماية؟ وإذا ما كانت تلك الحماية قد عُرضت عليكم في حينه، واقترفتم خطيئة التسرّع بالرفض، فإنّ هناك دائماً وسائل تُجبِر على الاقتناع وقبول تلك الـ بالطبع هناك مَنْ هم أشدّ صلابة وعناداً. أولئك الذين يرفضون، ولا يقبلون بهذا العرض الحصري، ويُجابهونه حتى لو وجدوا نَصلَ السّكّين مُسنداً على رقابهم. أنتم، على ما يبدو، تنتمون إلى ذلك الفصيل العنيد، أم أنّ عليّ أن أفترض بأن سلفاتوري كان بمفرده عنيداً.

- لا نعرف أيّ شيء ممّا تتحدّثون عنه. قال جوزيبي كولاسبيرنا، ووافق الآخرون على ما قال بوجوه مذهولة.

قال النقيب: ربّما. لكنّي لم أنتهِ بعد. وإذاً فإنّ هناك عشر شركات، تسعٌ منها وافقت وطلبت الحماية. لكنّ تلك المنظّمة، وأنتم تعلمون عن أيّة منظّمة أتحدّث، ستكون بائسة إذا ما اكتفت بأداء مهمّتها عبر تحصيل الأموال مقابل ما تكتفون أنتم بتسميته حراسة. المنظّمةُ هذه، تعرض ما هو أكثر وأوسع من ذلك. إنّ بإمكانها أن تُوفّر لكم - أعني للشركات التي وافقت على طلب الحماية - كلّ مستلزمات العمل الضرورية. المناقصات والمزايدات الخاصّة؛ أن توفّر لكم وتمنحكم معلومات ضرورية للتنافس في المناقصات التي تُقيمها مؤسّسات

القطاع العامّ، أنّ تساعدكم في مرحلة اختبار فاعلية وأهليّة المشروع المُنفّذ؛ وأن تراقب لكم العمّال، وتخفّض من سقف مطالباتهم. واضحٌ إذا ما وافقت تسعٌ من بين الشركات العشر، وشكّلت فيما بينها ما يُشبه الكونسورسيوم، فإنّ الشركة العاشرة، الرافضة، ستظهر بمثابة الخروف الأسود في قطيع من الخراف البيضاء. صحيح أيضاً أنّ تلك الشركة الرافضة لن تتمكّن من إثارة أيّة إزعاجات، لكنّ وجودها، بحدّ ذاته، عبارة عن تحدٍّ مرفوض ومثالٌ سيّئ. ولذا ينبغي إجبارها على العودة إلى القطيع، سواء بالوسائل الطيّبة أو الشرّيرة، أو أن تُقصى من القطيع بشكل نهائي، عبر تصفيتها.

قال جوزيبي كولاسبيرنا: أنا لم أسمع بشيء ممّا تقول. ووافق شقيقه وشركاؤه على كلامه.

واصل النقيب حديثه كما لو أنّ كلمات جوزيبي لم تبلغ مسامعه: لنفترض بأنّ تعاونيّتكم "سانتا فارا"، هي الخروف الأسود في المنطقة، أي الشركة الرافضة للدخول في هذه اللعبة، وهي الشركة التي تُجري حساباتها حول المناقصات بأمانة وشرف، وتتقدّم إلى المنافسات دون تلك الحماية، وبأنّها ستتمكّن، في بعض الحالات، ضمن إطار الحدّ الأدنى والحدّ الأقصى، من النجاح في تقديم العرض الأنسب، لأنّها أجرت حساباتها بنزاهة. يزوركم حينها "رجل مُحترم"، كما تُسمّونه أنتم، يأتي ليتحدّث مع سلفاتوري كولاسبيرنا. يُجري معه حديثاً، يُفصح فيه عمّا يُريد، ويخفي، في الآن ذاته، بعض الأشياء. حديثٌ يوحي في باطنه إلى أشياء لا تطفو على السطح، وهو بالضبط مثل

خلفية الحياكة على القماش، غابة من الخيوط والعُقد العسيرة على الفَهم. يفعل ذلك فيما تُرَى على الجانب الآخر ظلالٌ لأشخاص آخرين. لا يبدو كولاسبيرنا راغباً ومقتنعاً بتفهّم الأمر، أو ربّما هو يعجز عن الفَهم، وذلك بالضبط هو ما يُثير حفيظة الرجل المحترم، ويُغضبه. عندها تنتقل تلك المجموعة التي كانت تُرَى في الخلفية إلى ردّ الفعل. التحذير الأوّل هو عبارة عن اشتعال حريق في مخزن للموادّ، أو ما يُشبه ذلك؛ التحذير الثاني هو عبارة عن إطلاق رصاصة تمرّ بالقرب من أحدكم، بينما هو عائدٌ إلى المنزل، قُرابة الحادية عشر ليلاً.

كانت نظرات شركاء تعاونيّة سانتا فارا تحاول التهرّب من عينَي النقيب. كانوا يُحدّقون في أكفّهم، ومن ثمّ يرفعون رؤوسهم ليُحدّقوا في صورَتَي رئيس الجمهوريّة ورئيس الشرطة العسكرية وفي الصليب المعلّق على جدار الغرفة. وبعد صمت طويل عاد النقيب ليُوجّه سهماً آخر إلى قلب ما يُقلق أولئك الرجال:

- يبدو لي بأنّ شيئاً ممّا أقول قد حدث لشقيقكما فعلاً، قبل ستّة أشهر عندما كان عائداً إلى منزله في حدود الحادية عشر ليلاً. أليس كذلك؟

- لم أعلم بذلك أبداً - غمغم جوزيبي.

تدخّل الرقيب أوّل: يرفضون الكلام، حتى وإن تمّت تصفيتهم واحداً تلو الآخر، لن يُفصِحوا عن أيّ شيء. إنّهم سعداء بمقتلهم.

قاطعه النقيب بإشارة من يده: اسمع. هناك امرأة تنتظر.

قال الرقيب الأوّل: وقد أحسّ بقَذرٍ من الإهانة، سأذهب في الحال.

عاد النقيب ليوجّه حديثه للرجال، ليس لديّ ما أضيفه لكم، لقد أخبرتُكم بالكثير، وأنتم، لا شيء لديكم تُفصحون عنه لي. لكن، وقبل مغادرتكم، أريد أن يكتب كلٌّ منكم على هذه الورقة اسمه، مكان وتاريخ ميلاده وعنوان إقامته.

- أنا بطيء في الكتابة - قال جوزيبي كولاسبيرنا، وكرّر الآخرون الشيء ذاته، وبأنّهم بالكاد يستطيعون الكتابة.

قال النقيب: لا يهمّ. لدينا ما يكفي من الوقت.

أشعل سيجارة، وراقب بأناة مصاعب شُركاء سانتا فارا مع الورقة. فقد كانوا يكتبون كما لو أنّ القلم صار بوزن حفّارة كهربائيّة. حفّارة تهتزّ مُثقلةً بكلّ الشكوك التي تدور في خواطرهم وتتلاعب مع ارتجافات أيديهم. وعندما انتهوا، رنّ النقيب الجرس لشرطي الحراسة. وحين دخل برفقة الرقيب أوّل أمَرَه النقيب:

- رَافِق السادة إلى الخارج.

"اللعنة! يا له من ماكر"، فكّر الرجال في دواخلهم. ولكونهم تجاوزوا اللحظة، تقريباً دونما أضرارٍ تُذكَر. وكانت لمفردة "تقريباً" صلة بتلك الحروف التي كتبوها على الورقة بعد إصرار النقيب، ولأنّهم نُودوا بلقب "السادة" من قبَل ضابط في الدَّرَك، فقد خرجوا من مركز الشرطة متناسين حالة الحِداد التي كانوا فيها، وكانت في دواخلهم رغبة شبيهة برغبة الأطفال النزقين بالركض في الشارع بعد الخروج من المدرسة.

في غضون ذلك كان النقيب يقارن ويُقارن بين ما كتبه الرجال على الورقة والرسالة مجهولة المُرسِل، التي كان قد استلمها في صباح ذلك اليوم. كان واثقاً بأنّ واحداً من بينهم هو مَنْ كتب تلك الرسالة. فرغم المَيَلان غير الطّبيعيّ والتشويه المتعمّد، لم تكن هناك حاجة إلى مُختصّ لفكّ رموز الخطّ والتخمين، وبعد المقارنة ما بين الخطّين، استقرّ رأيه على أنّ جوزيبي كولاسبيرنا هو مَنْ بعث الرسالة المجهولة. ولذا فقد كانت التلميحات الواردة في الرسالة على قَدْرٍ من المصداقيّة والتأكيد.

عجز الرقيب أوّل عن معرفة أسباب قضاء النقيب ذلك الوقت كلّه للتدقيق في تلك الكتابات.

إنّه كَمَنْ يحاول عصر مِبْرَدِ سكاكين. لن يخرج منه أيُّ شيء. قال العريف ملمِّحاً إلى الأخَوَين كولاسبيرنا وشركائهما، وإلى البلدة بكاملها وإلى صقليّة بأسرها.

ردّ النقيب: عَضرُ الأشياء يُنتج دائماً شيئاً ما.

- هنيئاً لكَ إن كنت مُقتنعاً بذلك، وهنيئاً لنا جميعاً. فكّر الرقيب أوّل في سرّه، وكان معتاداً على منح نفسه الحريّة والمتعة في الإفصاح، في سرّه، عن أيّ شيء، حتى لو كانَ من تُوَجّهُ إليه تلك الأفكار هو القائد العامّ للدَّرَك الجنرال لومباردي نفسه.

قال النقيب وهو يستعدّ للمغادرة: وماذا عن تلك المرأة؟

ردّ الرقيب أوّل: زوجها ذهب إلى الحقل أوّل أمس ليقوم بتشذيب الأشجار وتطعيمها، لكنّه لم يعد إلى منزله حتى الآن. ربّما بقي هناك في الأرجاء ليتشارك مع بعض أقرانه في المائدة والكؤوس أمام خروف دسم وزجاجات النبيذ. وربّما ارتمى، ثملاً حتى النخاع، في مخزن للعلف في مكانٍ ما. سيعود أدراجه الليلة، أراهن على ذلك برأسي.

قال النقيب: أوّل أمس؟! لو كنتُ مكانكَ، لبدأتُ عمليات البحث والتحرّي عنه.

- سيّدي. ردّ الرقيب أوّل.

**

لا يُعجبني. لا يُعجبني مطلقاً. قال الرجل ذو البدلة السوداء، فيما وجهه مُنقبضٌ وأسنانه مُصطكّة كَمَن تجرّع حموضة الخوخ قبل نضجه. وجهه الذي لوّحتهُ الشمس يُعبّرُ عن فطنةٍ خفيّة، وثمّةَ تكشيرةُ قرفٍ دائمة الانطباع عليه.

ردَّ الرجل الأشقر والأنيق الجالس إلى جانبه مبتسماً: والآخر أيضاً، ذلك الذي كان هنا قبله، لم يكن يُعجبك، فهل علينا أن نُغيّر واحداً بآخر، مرّة في كلّ أسبوعَين؟ هو أيضاً صقلّي، ويختلف عن صاحبه في بنيته وفي إيماءاته.

كانا جالسَين في مقهى بروما، في صالة هادئة، مصبوغة بطلاءٍ وردي، تدلّت من سقفها ثريّا كبيرة مثل باقة ورد هائلة، وعند الباب حارسة معاطف سمراء وبدينة، قابلة للتقشير مثل فاكهة ابتداءً من

صدريّتها السوداء، "لا ينبغي نزع صدريتها"، كان يُفكّر الرجل الأسمر في سرّه، فيما فكّر الأشقر، "ينبغي تمزيق الصدريّة على جسدها".

قال الرجل الأسمر: ما لم يكن يُعجبني في النقيب الآخر هو تدخّله في ما يتعلّق بقضية رُخصة حمل السلاح.

- وقبل مسألة رُخصة حمل السلاح، كان هناك مَنْ لم يُعجبكَ بسبب حكاية المنفى.

- وهل تعتقد بأن مسألة المنفى أمرٌ ثانوي وغير ذي أهمّيّة؟

- لا، ليس أمراً ثانوياً، أعلم ذلك، لكنّنا نرى أنّ من العسير علينا، لسببٍ أو لآخر، أن نعثر على مَنْ يُعجبكَ بشكلٍ كامل.

- على أيّ حال، فالوضع مختلف الآن، إذْ ينبغي أن يُثير انزعاجكَ أنتَ أيضاً، كالقبول بأنْ يتواجد في مناطقنا شخص له تاريخ ذلك الرجل. لقد قاتل مع الأنصار. مزرعة الفِطر المُفرِّخة للشيوعيّين بعثت إلينا ضابطاً، كان ضمن قوّات الأنصار؛ ولا عجب، إذاً، أنْ تتعرّض مصالحنا إلى الخطر.

- وهل ثَبتَ لديكَ بأنّه يحمي الشيوعيّين؟

- سأروي لكَ حادثة واحدة فحسب. أنتَ تعلم كيف تسير الأمور في مناجم الكبريت في هذه الأوقات، أنا ألعن الساعة التي وثقتُ فيها بشركة "سكارانتينو"، في منجم الكبريت الذي تعرفه؛ إنّنا نُدمّر أنفُسَنا بأيدينا، فهذا المنجم يشرب دمي، ويلتهم رأس المال الصغير الذي

بحوزتي.

قال الرجل الأشقر بنبرة تعجُبٍ وتهكّم في آنٍ: وإذاً، فأنتَ مُدمَّر؟

- إنْ لم أُدمَّر حتّى الآن بالكامل، فأنا مَدينٌ لك في ذلك، وإلى الحكومة التي أخذت على عاتقها، فعلياً، مهمّة إدارة أزمة الكبريت.

- نعم، الحكومة تفعل الكثير، وفي واقع الحال، بمقدورها دفع رواتب العمّال بشكل مُنتظم، وحتّى دون الحاجة إلى إنزالهم إلى أعماق المناجم، وربّما يكون ذلك هو الخيار الأسلم.

- وإذاً فإنّ الأمور بهذا القَدر من السوء. طبعاً ذلك واضح، إنّها سيّئة بالنسبة إلى الجميع. ليس من العدل أن أتحمّل وحدي تداعيات هذا الوضع، على العمّال أيضاً تحمّل قسط من تلك التبعات. لذا تراهم لم يتقاضوا أجورهم منذ أسبوعَين.

- بل منذ ثلاثة شهور. صحّح معلومة صاحبه.

- لا أتذكّر طول الفترة بالتحديد. لكنهم يواصلون الاحتجاج، تجمّعوا أمام منزلي، وأمطروني بالصفير وبالشتائم التي أربأ بنفسي عن ذكرها هنا. كانت الحالة تدفعني إلى الإقدام على قتلهم. حسنٌ، ذهبتُ إلى هذا الضابط لأرفع شكوى، فهل تعلم كيف واجهني؟ سألني: "هل تناولتُم غداءَكم اليوم؟"، أجبته: "نعم، تناولتُ الغداء". ثم سألني: "وهل أكلتُم بالأمس أيضاً؟"، أجبتُهُ: "نعم، بالأمس أيضاً". ثم قال: "وهل تُعاني عائلتكم الجوعَ؟"، فقلتُ: "لا، حمداً للربّ"، فعاود سؤالي: "وهل تمكّن أولئك الذين تجمّعوا أمام منزلكم من تناول الطعام اليوم؟"، كنتُ على

وشك أن أقول له "وما الذي يعنيني إنْ كانوا قد أكلوا أم لا؟"، لكن أدبي الجمّ جعلني أردّ بأنّني "لا أعلم!"، وإذا به يردّ عليّ قائلاً: "كان يُفترَض بكم أنْ تستعلموا بشأن ذلك". قلتُ له: "جئتُ إليكم لأرفع شكوى ضدّ مَنْ تجمهروا أمام منزلي وهدّدوا حياتي. ليس بإمكان زوجتي وبناتي مغادرة المنزل حتّى لحضور القدّاس في الكنيسة". "أوه!" يقول لي: "سنُوفّر لزوجتكم وبناتكم إمكانية الذهاب إلى الكنيسة، فنحن موجودون هنا لتلبية هذه الحاجة بالضبط، أنتم لا تدفعون مستحقّات وأجور العمّال، ونحن نقوم بتوفير الحماية لزوجتكم وبناتكم لحضور القدّاس". كنتُ أراه بسحنته تلك أمام ناظرَيّ، أقرّ لكَ، وأنتَ تعلم بمقدار سخونة رأسي، كنتُ أشعر بالدم يغلي في كفَّيّ.

- هاه، هاه، هاه - ضحك الرجل الأشقر بنبرة متصاعدة، فيها الكثير من التأنيب على اندفاعات العنف لدى صاحبه، وأوصاه، في الوقت ذاته، بالتأنّي والحذر.

- إنّ أعصابي مشدودة الآن، لكنّها قويّة كأوتار آرغن الكنيسة. لم أغْدُ مثلما كنتُ عليه قبل ثلاثين سنة. لكنْ، دعني أسألكَ. أيُعقل أن نرى ما نراه اليوم عندما يُحادثُ شرطيٌ أحدَ الأشراف؟ إنّه شيوعي بالتأكيد، فالشيوعيّون وحدهم مَنْ يتكلّمون بهذا الشكل.

- ليس الشيوعيّون وحدَهم مَنْ يتكلّمون بهذه اللغة، للأسف الشديد، ففي حزبنا أيضاً أناسٌ يستخدمونها. آهٍ، لو تعلم مقدار الجهد الذي ينبغي أن نبذلَه في هذا الشأن كلّ يوم، كلّ ساعة.

- أعلم ذلك، لكنّي أحسم الأمر بوضوح، أولئك شيوعيون أيضاً.

- كلّا، ليسوا شيوعيّين - قال الرجل الأشقر مستغرِقاً في التفكير باكتئاب.

- نعم، هم كذلك، ويكفي أن يقول الحَبر الأعظم(11) ما عليه أن يقول، بوضوح تامّ لا لبس فيه، فسترى كيف يتحوّل هؤلاء كلّهم إلى غابرين ومُحنّطين.

- ليست الأمور بهذه البساطة. لكنْ، لنترك هذا ولنعُد إلى أمورنا الخاصّة. ما اسم هذا الشخص. الشيوعيّ؟

- بيلّودي.. اسمه بيلّودي، على ما أعتقد، ويقود كتيبة الدَّرَك في "C"، وهو هناك منذ ثلاثة شهور، ومع قِصَرِ المدّة التي أمضاها هناك، فقد تسبّب بأضرارٍ كثيرة. وبدأ الآن بدسّ أنفه في ملفّ المناقصات، حتّى الكومينداتور(12) زاركوني يوصيك بأن تأخذ الأمر في اعتبارك، وقال لي "نأمل في أن يتمكّن صديقنا "الشريف"(13) من إعادة هذا الضابط إلى المكان الذي اعتاد فيه على التهام عصيدة "البولينتا"(14).

قال البرلماني: عزيزُنا زاركوني كيف هي أحواله؟

- بإمكان أحواله أن تكون أفضل. قال الرجل الأسمر، مُلمّحاً إلى ما كانا يتحدّثان عنه.

- سنفعل ما في مُستطاعنا لتكون أوضاعه أفضل. وعد

البرلماني(15).

**

كان المُخبر المُقيم في بلدة "S"(16) يجلس قُبالة النقيب بيلّودي، قائد كتيبة الدَّرَك في مدينة "C"، فقد استُدعيَ، بكلّ المحاذير المعهودة، ليطّلع النقيب على ما يدور في خَلَده بشأن عملية اغتيال كولاسبيرنا، ففي العادة، كان المُخبر يأتي إلى المركز بمحض إرادته عند وقوعِ أيّ حدثٍ كبير في البلدة، لكنّهم احتاجوا في هذه المرّة إلى اجتراح مُبرّرٍ واهٍ لاستدعائه. كان الرجل من أرباب السوابق، ومن سُرّاق الخراف في فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية، أمّا الآن، وحسب المعلومات المتاحة عنه، فهو يعمل وسيطاً لقروض الرِّبا، كان اشتغاله كمُخبرٍ لأجهزة الأمن نتاجاً لنزوع داخليّ فيه، من جانب، وكان، من الجانب الآخر، سعياً لتوفير الأمان لنفسه بشأن مهنة الإقراض بالرِّبا التي يُمارسها؛ في نهاية المطاف هي مهنةٌ كغيرها، برأيه، وإذا ما قورنت بعمليات السلب والتهديد بالسلاح، فهي أشرف بكثير ممّا كان يقترفه في الماضي. كان يُعدّ أفعال الماضي تلك من بين أخطاء طيش الشباب، ورغم أنّه لم يكن مالكاً حتّى لقرشٍ واحد، فقد كانت مبالغ طائلة من أموال الآخرين تمرّ من بين أنامله، وبإمكانه الآن أن يُوفّر لزوجته وأولاده الثلاثة ما يسدُّ جوعهم؛ وأنْ يدّخر جزءاً ممّا يتقاضاه من مهنته الجديدة، ليتمكّن، في القادمِ القريبِ من الأوقات، من إطلاق مشروع تجاري صغير، يقف فيه وراء مصطبة دكّان صغير، ليقيس أذرع القماش لزبوناته، وهو ما كان قد حلُم طيلة حياته. لم تكن

المهنة المُربحة التي يُمارسها الآن، إلّا نتاجاً لارتياده زنازين السجون في سنوات طيش الشباب تلك، كانَ مَنْ يوفّرون له الأموال لقروض الرِّبا "رجالاً محترمين" لا تحوم حولهم شُبُهات، وينأون بأنفسهم عن الظهور إلى العَلَن، وكانوا من عُشّاق استقرار المنظومة الاجتماعية، ومن المواظبين على حضور القدّاس في الكنيسة. وقد وثق هؤلاء بـ "S" وبـ "مهنيّته" للحيلولة دون مخالفة المُقترضين، لا في مواعيد الدفع، ولا في السرّيّة التامّة حول ما اقترضوه، وممّنْ اقترضوا. وبالفعل، بسبب الرعب الذي يُشيعه الوسيط لدى مَنْ يقترضون بالرِّبا، كانت الأمور تسير وفق الأصول المفروضة في هذا الإطار، كان الرجل يقول للمُقترِض: "لقد تركتُ سترتي مُعلّقة على جدارٍ في سجن أوتشاردوني(17)"، كتلميح إلى عدم تردّده عن قتلِ مَنْ يعصي أو ينتهك الشروط، وبأنّه، إذا ما قتلَ أحداً، فإنه سيعود إلى السجن، ليستعيد سترته التي تركها هناك؛ لكنّه، في حقيقة الأمر، كان يرتعب من فكرة العودة إلى السجن مُجدّداً، كان يهاب ذلك الاحتمال، وكان مجرّدُ التفكير فيه يُغرق جسده في سيلٍ من العَرَق. كان المقترضون يدفعون ما عليهم من قروض حتى آخر قرش، وفي المواعيد المُحدّدة، وكانت الإرجاءات النادرة الممنوحة إلى المقترضين تتمّ وفق قاعدة تصاعد طردية للفوائد، فعلى سبيل المثال، مَنْ اقترض المبلغ ليشري به بغلاً، يستعين به في فلاحةَ قطعة من أرضه، فإنّ إرجاءَ دفع أحد الأقساط يعني أنّه سيتنازل عن البغل وعن قطعة الأرض للدائن بعد سَنَتَين.

ولولا الموانع الناتجة عن الرعب لاحتمال عودته إلى السجن، فقد

كان بمقدور المُخبر أن يُعدّ نفسه، روحياً ولما بحوزته في الوقت الراهن من موارد، واحداً من الوجهاء في البلدة. إلّا أنّ الخوف والرعب كانا يكمنان في داخله مثل كلبٍ مسعور. كلبٌ مسعورٌ يعوي ويُزبدُ مُسيلاً لعابه، ويُفاجِئه في نومه بعُواءٍ مخيف، ويغرز الأنياب في جسده أو ينهشه من الداخل، يعضّ كبده وقلبه. وبسبب تلك العضّات المُتخيّلة كان هذا الرجل يشعر بالآلام في كبده وبالخفقات المفاجِئة في قلبه، كان مثل الأرنب الطريدة الذي قبضت أنياب كلب الصياد على رقبته وهو ما يزال ينبض بالحياة. لقد شخّص الأطبّاء حالته، وامتلأ سطح جارورة غرفة نومه بالأدوية والعقاقير، لكنْ، دونما فائدة. كان الأطبّاء يجهلون، بالطبع، ما كان يُقاسيه من رعب وذُعر.

إنّه الآن يجلس قُبالة النقيب مدوِّراً بين كفّيه قبّعته البيريّة بعصبيّة واضحة، وبمقدارٍ من العَرَق المتصبّب من جبهته، كان قد استدار إلى أحد جانبَيه، كيلا يواجه ناظرَي النقيب؛ فيما الكلب المسعور في داخله كان يعوي وينهشه بأنيابه. هواء الأمسيّة شديد البرودة، والمدفأة الكهربائية لا تُصدِرُ إلّا دفئاً طفيفاً، مما يُشعر المرء ببرودة أكبر داخل الغرفة الواسعة التي اتّخذها النقيب مكتباً له، وهي غرفة شبه خالية من الأثاث، وأرضيّتها مغطّاة بصفائح البلاط ذي اللون والزخرفة الشبيهان بالبلاط الفالينسي القديم، وبسبب البرودة المنتشرة في أجواء الغرفة، بدت تلك البلاطات وكأنّها صفيح من الجليد. ومع ذلك فالرجل يتصبّب عَرَقاً، مُتخيّلاً نفسه ملفوفاً بكفن بارد، برزت فوقه بُقعة وردية على شكل زهرة، نبتت في جسد، أثقبتْهُ طلقة بُندقيّةِ صيدٍ

مزدوجة الفُوَّهَة.

ومُذ علم بحادث اغتيال كولاسبيرنا، رسم المُخبر خطّة لتلفيق روايته حوله. كان في كلّ تفصيل مُضاف، وفي كلّ ضربة فرشاة جديدة، يُعيد التدقيق في الرواية كما الرسّام الذي يبتعد خطوات عن اللوحة، ليشاهد تفاصيلها بشكل أفضل، كان يُردّد مع ذاته "حسنٌ جدّاً، لا شيء ينقصني الآن"، إلّا أنّه، ورغم ذلك، كان يقترب من اللوحة ليُضيف عليها ضربة فرشاة أخرى؛ وكان يُسارع في وضع الإضافات حتّى في لحظة سَرد الرواية للضابط.

إلّا أنّ النقيب كان يعرف جيّداً، من الملفّ الخاصّ بكالوجيرو دييبلّا، المعروف بلقب پارّينييدّو، بأنّ الرجل انحاز إلى إحدى العصابتَين المافيويّتَين المهيمنتَين على البلدة، واصطفى من بينهما "الكوسكا(18) - أي العصابة" التي لها مصالح في المناقصات الحكومية، هذا إنْ لم يكن منتمياً أو عضواً فاعلاً في صفوفها؛ فيما كانت الـ كوسكا الأخرى، الأكثر شباباً ومغامرةً، قد تولّت مهمّات تهريب السجائر الأمريكيّة، لكون بلدة "C" مُتاخمة للبحر. ولذا كان النقيب يترقّب الكذب والتلفيق من قبَل المُخبر، ويُدرك بأنّ من الضّروريّ التعرّف على ردود أفعاله من خلال مراقبة سلوكه بينما هو يكذب ويُلفّق بجلاء.

استمع إليه دونما مقاطعة، وكانت إيماءاته المُوافِقة بتحريك الرأس تزيد من قلق المُخبر وارتباكه وحَيرته. كان النقيب يستعيد ذكرى مُخبرين آخرين دفنتهم وريقاتٌ وأغصان الشجر ما بين أخاديد جبال

الأپينين(19)؛ رجال بؤساء، جُبلوا بطينةِ الرعب والرذائل، ومع ذلك فقد كانوا يمارسون دورهم في لعبة الموت، مغامرين بحيواتهم، وسائرين على حدّ السيف، ما بين الأنصار المقاتلين والفاشيّين. وكان الأمر الإنساني الوحيد الجامع بينهم، هو الاحتضار المتواصل الذي يعيشون في ظلّه؛ ولرعبهم من الموت يومياً، فقد عاشوا الموت في كلّ لحظة، وكان الموت يباغتهم في نهاية المطاف، الموت الحقيقي والموت الوحيد، وكانت حينها نهاية اللعبة المزدوجة والموت المزدوج في كلّ ساعة.

كان المُخبر من بلدة "S" يُشبه المُقامرِ بحياته دائماً. فهو يُخاطر أن تُنهيه إطلاقةٌ من بندقيّة صيد من قبَل هذه العصابة، أو صَلْيةُ رشّاشٍ من قبَل الأخرى (وقد تمايزت العصابتان عن بعضهما البعض حتى في استخدامات الأسلحة الفتّاكة). أمّا فيما يخصُّ الطّرَفَين اللذَين يُحيك المخبر بينهما حبائله، أي المافيا والدَّرَك، فقد كان الموت يتربَّص به في دهاليز واحدٍ فقط من هذَين الطّرَفَين، أي دهاليز المافيا. في حين لا موتَ يتربَّص به أو يأتيه من الطرف الآخر، فليس هناك على الطرف، المتواجه أصلاً مع المافيا، إلّا هذا الرجل الأشقر، حليق اللحية الذي يرتدي بِزّةً عسكرية أنيقة، هذا الرجل الذي يُدْمِغ حروف السين الواردة في الكلمات التي ينطقها(20)، لا يرفع صوته صارخاً بوجهه، كما لا يشيع فيه الإحساس بالوضاعة. ومع ذلك فهذا الرجل يُمثّل القانون، وهذا هو بالذات ما يجعله يبدو مخيفاً كما الموت. لم يكن المُخبر يرى القانونَ نتاجاً للعقل والمنطق، لأن القانون نفسه صارَ منطقاً، بل كان

قد تعوّد أن يرى بمثابة سُلطة شخصٍ واحد، سُلطة تولد من أفكار ذلك الشخص ومن اندفاعاته، التي قد يتسبّب فيها جُرحٌ بسيطٌ في وجهه خلال حلاقة ذقنه أو ربّما من طيبة مذاق القهوة التي احتساها أو عَدَمها. فليس القانون، برأيه، إلّا اللامنطقية المطلقة للسطوة التي تتولّد لدى مَنْ يُمسك بسلطة إصدار الأوامر في تلك اللحظة، ابتداءً من حرّاس البلدية، أو الرقيب أوّل أو من رئيس الشرطة أو القاضي، بتحصيل الحاصل كلّ أولئك الذين يملكون سلطةَ الحكمِ وقوّتَه. لم يكن المُخبر يثق أبداً بما بما خُطّ على اللافتة التي تتصدّر قاعات المحاكم، والتي تقول بأنّ القوانين سُنَّت ليكون "الجميع سواسية أمامها"، ولم يكن له أنْ يؤمن بذاك أبداً؛ إذْ كيف بالإمكان أنْ يتساوى الفقراء مع الأثرياء أو الجهلة مع المتعلّمين. وكيف يمكن أن توجد المساواة طالما أنّ بإمكان مَنْ يُنفّذون القوانين ويفرضون تطبيقها، إطالة ذراع السطوة صوب طرف واحدٍ فحسب، أو بسط الحماية لصالح الطرف الآخر والذود عنه!. كان المُخبر يجد نفسه واقفاً إزاء أسلاكٍ شائكةٍ أو إزاء سورٍ شاهق. هذا الرجل الذي سرقَ ونهبَ في وقتٍ ما، ودفع ثمن ذلك سنوات في الحبس، هو الرجل ذاته الذي يتعامل اليوم مع المافيا، ويمارس الإقراض بالرِّبا لصالحها، ويعمل جاسوساً للشرطة؛ هذا الرجل يبحث الآن عن شرخٍ ضيّق في ذلك السور أو عن كُوّة صغيرة ما بين الأسلاك الشائكة، لينفذ منهما. لقد صار الآن قاب قوسَين أو أدنى من امتلاك رأس المال الكافي لافتتاح دكّانه الخاصّ، أدخل ابنه البكر إلى السيمينار الكَنَسي، بانتظار أن يختار إمّا أن يكون راهباً، أو يخرج من ذلك المعهد ليدرس القانون، ويُصبح محامياً. هو،

الأب، يُفضّل أن يختار ابنه مهنة المحاماة بدل الرهبنة. وإذا ما تمكّن هو نفسه من اجتياز ذلك السور، فلن يرتعب من القانون بعد ذلك. وسيكون ممتعاً للغاية أنْ يُشاهد الآخرين الذين مكثوا على الجانب الآخر من السور أو وراء الأسلاك الشائكة. هكذا، وبمقدار شعوره بالتّمزّق في داخله، فقد كان سَرَحانُه المُتخيَّل في سلامِهِ المستقبلي المُشيّد على تلال من البؤس والظلم، يُشيع فيه قَذراً من المواساة. فيما كان الرصاص الذي سيحمل إليه الموت يُصبّ ويُعمَر بالبارود في مكانٍ ما.

إلّا أنّ النقيب بيلّودي، القادم من مدينة پارما بمقاطعة إيميليا، وترعرع في كنف عائلة جمهوريّة التقاليد، فقد كان يمارس عمله، عن قناعة مُطلقة، في خدمة السلاح ضمن قوّةٍ للشرطة. كانت قناعته هذه نابعةً من اشتراكه الفعلي في الثورة التي أفضت إلى ميلاد القانون. القانون الضامن للحريّة وللعدالة، الذي يخدمه هذا الرجل، ويفرض احترام موادّه وفقراته على الجميع. وإذا ما كان قد قرّر عدم ارتداء جبّة المحاماة، كما كان مُقدّراً له، وواصل رِفقةَ البِزّة العسكرية، التي ارتداها لظروف خارجة عن إرادته، فإنّ ذلك حدث لأن مهمّة حماية قوانين الجمهورية وتطبيق مآلاتها باتت اليوم أعسر وأعسر.

لو أدرك المُخبر سريعاً أنّ الرجل الذي يجلس قُبالته يعتبرُ القانون بأهمّيّة المبضع للجرّاح، لغرق في لُجّة الرعب؛ أي أنّ ذلك القانون أداة ينبغي استخدامها بأناة فائقة، وبدقّة لا متناهية، وبيدٍ واثقة، وهو مقتنع تماماً بأنّ القانون يُولَد من مبدأ العدالة. وإلى تلك العدالة ينبغي أن يستند أيّ فعلٍ يُؤتَى باسم ذلك القانون. إنّ مهمّة تطبيق القانون

عسيرة ومريرة، إلّا أنّ المُخبر كان يراه، في النهاية أمراً سهلاً، ويُمكن أن يُطبَّق عبر استخدام القوّة والسطوة تجاه الآخرين، وهما، أي القوّة والسطوة، كبيرتان بمقدار الآلام التي يمكن إذاقتها للآخرين.

كان پازّينييدّو يمارس لعبة التلفيق والكذب في حياته، بالضبط كما يستخدم البائع كلامه المعسول ولمساته الحريرية للفلاحات المتبضّعات. والكُنية التي أُطلقَت عليه، "الراهب الصغير"، نالها لمقدار الثرثرة والنفاق اللّذَين يرشحان من كلامه؛ غير أنّ كلّ براعاته تلك تكبو الآن وتنهار في مواجهة صمت هذا الضابط الشابّ، وتخرج كلماته من الحلق عسيرة ومُعفّرة بنبرة منتحبة، ويتلكأ كلُّ ما كان خطّط له من سلوك أمام الضابط ويتهشّم ليُفقده أيّ مصداقية.

عاجله النقيب في لحظة ما بالسؤال بهدوء وبنبرة صداقة: ألا تعتقد بأنّ من المفيد أن نبحث عن خُلاصات أخرى؟

هنا أيضاً سمع المُخبر نبرة النقيب الشمالية الدامغة لبعض الحروف في كلماته، والتي شغلتهُ للحظة عن التشنّجات التي تجتاحه.

لم يُجِبْ پازينييدّو على سؤال النقيب الذي تابع استنتاجاته:

- هل ترى بأنّ هناك إمكانية في أن يكون كولاسبيرنا قد صُفّيَ لأسباب متعلّقةٍ ببعض المصالح، لنَقُلْ على سبيل المثال، لأنه رفض الاستجابة إلى عروضٍ قُدّمت إليه؛ وبأنّه واصل عمله رغم ما بلغَهُ من تهديدات، وواصل الفوز بما يستطيع من مناقصات؟

كانت عادةُ مَنْ سبقوا النقيب بيلّودي في تلك الدائرة طرح الأسئلة

على المخبر بمقدّمات وجملٍ واضحة وبنبرةٍ تحمل في طيّاتها التهديد إمّا بالنفي خارج الإقليم، أو بالتحقيق معه بتهمة ممارسة الإقراض بالرّبا. وبدلاً من أن يتسبّب أسلوب أولئك المحقّقين له في خوف أو رعب، فقد كان يمنحه قَدْراً من الأمان؛ لأن العلاقة واضحة المعالم. رجال الشرطة يُجبرونه على ممارسة الجاسوسيّة، ولم يكن عليه هو إلّا أن يُقدّم إليهم ما يكفي لتهدئة روعهم، وما يُقنعهم بالقبول بما قدّمه إليهم من معلومات. إلّا أنّ الأمور مختلفةٌ تماماً مع شخص يحاوره باحترام، ويُبادله الثقة. لذا فقد ردّ المُخبر على تساؤل النقيب بحركات وإيماءات من يده ومن رأسه المضطرب، مؤكّداً احتمالية وقوع ما أشار إليه النقيب بالفعل.

واصل النقيب كلامه دونما أيّ تغيير في النبرة: وأنتَ ألا تعرف أحداً ممّن يهتمّون بهذه الأمور هنا؟ لا أعني من بين الأشخاص الذين يعملون مع كولاسبيرنا، بل من بين مَنْ هم خارج إطار عمله، أعني أولئك الذين يُغنُونَ بعرض خدماتهم للحماية وتقديم المساعدات. يكفيني أن أعرف اسم شخصٍ واحد ممّن قدّموا إلى كولاسبيرنا بعض العروض في وقت سابق. عروض، أعني أنّه قدّم عروضاً فحسب.

- لا أعرف شيئاً في هذا الصدد. قال المُخبر، وقد حرّك احترام النقيب في داخله شغف الجاسوس الذي حلّق كما القُبّرَة التي تُغرّد وهي تقطر عذاباً:

- لا أعرف شيئاً. لكن، إذا ما حاولتُ التّكهّن في فضاء الغموض هذا، فإنّ بإمكاني القول بأن تلك العروض قد تكون وردتْه من تشيتشو

لاروزا أو من سارو پيتسوكو. ولمجرّد النّطق بهذَين الاسمَين كان تحليق القُبّرَة إلى العُلى يتحوّل في الحال إلى تهاوٍ بليغ، مثل حجارةٍ ثقيلة تهاوت من الأعالي، لتَصْدِمَ صُلب كينونته ومخاوفه.

**

استجوابٌ آخر في البرلمان. قال سعادته(21) وواصل القراءة: "نتساءل ما إذا كنتم على علمٍ بالأحداث الدموية التي وقعت في صقليّة مؤخّراً؟ وما هي الإجراءات التي تنوون اتّخاذها؟" إلخ ... إلخ .. ها هم الشيوعيّون كعادتهم مرّة أخرى، ويبدو أنّهم يُشيرون بذلك إلى حادث اغتيال صاحب شركة إنشائية، ماذا كان اسمه؟

- كولاسبيرنا، يا صاحب السعادة.

- كولاسبيرنا .. لقد كان شيوعياً، على ما يبدو.

- كان اشتراكياً، يا صاحب السعادة.

- تبّاً لهذه التمايزات التي تُجرونها دائماً! يا لعنادكم، يا صديقي! أسمحُ لنفسي بالتساؤل، شيوعي أم اشتراكي، أين يكمن الاختلاف فيما بينهما؟

- في الواقع الراهن.

- أرجوكم، وفّروا عليّ الشروحات. فأنا أيضاً أطالع الصحف في بعض المرّات، كما تعلمون.

- عذراً، يا صاحب السعادة، لم أكن لأسمحَ لنفسي.

- برافو. وإذاً، حتّى نحول دون أن يتحوّل هذا الـ.

- كولاسبيرنا.

- كولاسبيرنا هذا، إلى شهيد من شهداء الفكر الشيوعيّ. عذراً. الاشتراكي. ينبغي العثور في الحال على مَنْ أقْدَمَ على اغتياله، وأعني تماماً ما أقول. في الحال، أي الآن، في الحال، بحيث يكون بمقدور السيّد الوزير الرّدّ على تساؤلات الاستجواب بأنّ كولاسبيرنا وقع ضحيّة لمصلحةٍ ما أو بسبب خيانات زوجية، وبأنّه لا شأنَ للسياسة في هذا كلّه على الإطلاق.

- التحقيقات بشأن القضيّة جارية بشكل جيّد. وهي، بلا أدنى شك، جريمة مافيا، لا دخلَ للسياسة في ذلك، فالنقيب بيلّودي.

- مَنْ هو بيلّودي؟

- إنّه قائد كتيبة الدَّرَك في مدينة "C". وهو في صقليّة منذ بضعة شهور.

- آه، هذا بالضبط ما كنتُ أرغب في الحديث معكم بشأنه منذ وقت، عن هذا النقيب بيلّودي. فهو، يا صديقي العزيز، شخص يرى المافيا في كلّ مكان، وفي كلّ شيء. إنه أحد أولئك الشماليّين الذين ما إن ينزلون من السفينة وتطأ أقدامهم أرض الميناء يبدؤون برؤية المافيا في كلّ زاوية. وإذا ما كان هو مَنْ أكّد بأن المافيا قد اغتالت كولاسبيرنا

فالمصائب قادمة لا ريب. لا أعلم ما إذا أتيحت لكم فرصة الاطّلاع على ما صرّح به لصحفي قبل بضعة أسابيع، بصدد اختطاف ذلك المزارع. ما اسمه؟

- ميندوليّا.

- ميندوليّا. لقد صرّح هذا الضابط بما يَقشَعِرُّ له البدن، قال بأنّ المافيا موجودة، وبأنّها منظومة قويّة وذات سطوة، وبأنّها تُهيمن على كلّ شيء. الخراف والمراعي، الأشغال العامّة وحتّى الأواني الخزفيّة الإغريقيّة. وما قاله بخصوص الخزفيّات الإغريقية أمرٌ خارق للتصوّر، إنّها عبارة عن نكته شعبية حقّاً. لكنْ، أيعقل هذا كلّه؟! بحقّ الربّ، ألا يُفترَض برجل في موقعه أن يكون على قَدْرٍ من الجدّية.؟! هل أنتم تؤمنون بوجود المافيا؟

- في الواقع.

- هل تؤمنون بوجودها؟

- كلّا، لا أؤمن بذلك.

- برافو، أحسنتم، نحن صقليّان(22) ولا نؤمن بوجود المافيا، ونحن مُقتنعان بذلك، وينبغي لهذه القناعة، التي يبدو أنّكم، أنتم أيضاً، تؤمنون بها، أن تعني شيئاً ما، أليس كذلك؟. لكنّي أستوعب أيضاً ما قد يدور في خَلدكم، فلستم من أصل صقلّي، والمواقف المُسبَقة عَصيّة على التغيير. بمرور الوقت ستدركون بأنّ كلّ ما يُشاع في هذا الصدد

ليس إلّا من ابتداع الخيال. وعلى أيّة حال، تابعوا التحقيقات التي يُجريها هذا الـ "بيلّودي" بأناة. أمّا أنتم(23)، إذ لا تؤمنون بوجود المافيا حقّاً، فحاولوا اتّخاذ بعض الإجراءات، ابعثوا إلى هناك ضابطاً آخر، ليفعل شيئاً ما، وليَحولَ دون أن يتسبّب بيلّودي هذا بإشكالات، أي، كما يُقال باللاتينية "أنْ يحوّل التراب إلى ذهب!"، أعني، بلاتينيّتي أنا، وليس بلاتينيّة أوراتسيو(24).

**

انقضت خمسة أيّام على اختفاء باولو نيكولوزي، الذي يعمل مُزارعاً ومُشذّباً لأغصان الأشجار والكروم. وُلد في بلدة "B" في الرابع عشر من ديسمبر 1920، يسكن في بلدة "S" في الرّقم 97 من شارع كاڤور. في اليوم الرابع لاختفائه، كانت زوجته المتألّمة والحزينة قد عادت لإطلاع الرقيب أوّل عن غيابه المتواصل، فانتاب العسكري قلق جديّ بشأن ذلك الغياب.

وكان هناك، على الطاولة أمام النقيب بيلّودي تقرير بهذا الشأن، وثمّة خطٌّ أحمر يُبرِزُ عنوان الشخص الغائب، "رَقْم 97 في شارع كاڤور".

كان النقيب يجول في الغرفة، ويدخّن بعصبيّة واضحة، بانتظار أن يحملوا إليه من النيابة العامّة، ومن دائرة السوابق القضائية ملفّ المعلومات الخاصّة بباولو نيكولوزي، لمعرفة ما إذا كان المختفي من أرباب السوابق أو أنّ هناك متعلّقات قضائية قائمة بحقّه حالياً.

الطلقتان اللتان قتلتا كولاسبيرنا انطلقتا من زاوية التقاء ساحة

غاريبالدي مع شارع كاڤور. ومن المؤكّد لم يهرب القاتل، فور تنفيذه الجريمة، صوب الساحة، حيث كانت تقف الحافلة، وعلى متنها ما يربو على خمسين مسافراً، إضافة إلى بائع فطائر الحمّص الذي كان قرب الحافلة، وعلى بُعد خطوتَين من القتيل. لذا فإنّ من البديهي أن يَفِرّ القاتل من ذلك المكان عبر شارع كاڤور، الذي يقطن فيه نيكولوزي في المنزل الكائن في الرّقم 97. كانت الساعة خلال اغتيال كولاسبيرنا تُشير إلى السادسة والنصف صباحاً، وهي الساعة التي كان نيكولوزي يستعدّ فيها، كما ورد في التقرير الخاصّ باختفائه، للتوجّه إلى عمله في تشذيب أشجارٍ في مزرعة بضيعة فونداكيلّو، التي تُبعد ما يربو على ساعة واحدة سيراً على الأقدام؛ وربّما خرج نيكولوزي من باب منزله بالذات في لحظة مرور القاتل في شارع كاڤور فارّاً من مكان الجريمة. وربّما تعرّف نيكولوزي على القاتل. لكنْ، مَنْ يدري كم هو عدد الأشخاص الذين شاهدوا القاتل فارّاً في تلك اللحظة؟، وبافتراض أنّه كان بالإمكان تحديد هويّته، أو افتراض أنّه شخص معروف في البلدة، فقد كان بإمكان القاتل، حتماً، الاطمئنان إلى صمت نيكولوزي، بالضبط كاطمئنانه إلى صمت بائع الفطائر والآخرين، إلّا أنّ تنفيذ جريمةٍ مثل هذه لا بدّ أن تكون قد أُوكِلَت إلى شخص غريب عن البلدة، جاء من خارجها. وأمريكا تُعدّ مدرسةً في هذه الإطار(25).

"لا تسرحنّ في الخيالات!"، هذه كانت توصيّة المقدّم للنقيب بيلّودي. "حسنٌ، لنبتعد عن الخيال. لكنّ صقليّة بمجملها عبارة عن فضاءٍ خياليّ. وكيف بالإمكان العيش في داخل هذا المكان دونما خيال؟ وعلى أيّة

حال، لا شيء من الخيال. بل الاستناد إلى الوقائع وحدها". وكانت تلك الوقائع تُشير إلى ما يلي، شخص اسمه كولاسبيرنا وقع ضحيّةً لعملية اغتيال فيما كان يهمّ باعتلاء سلّم الحافلة المتّجهة إلى پاليرمو، وقع الحادث في ساحة غاريبالدي في الساعة السادسة والنصف صباحاً؛ أطلق القاتل رصاصَتَيه من زاوية التقاء شارع كاڤور بساحة غاريبالدي، وفرّ من المكان عبر شارع كاڤور نفسه. في اليوم ذاته، وفي الساعة ذاتها، شخص آخر، يسكن في شارع كاڤور نفسه، كان يهمّ بالخروج من منزله. كان يُفترَض أن يعود إلى منزله مساءً، في ساعة صلاة الغروب، كما تُصرِّح زوجته، إلّا أنّه لم يعدْ؛ وهو غائب عن منزله منذ خمسة أيّام. ويؤكّد أصحاب المزرعة التي كان عليه أن يعمل فيها في ضَيعة فونداكيلا بأنّهم لم يرَوْه. كانوا يترقّبون وصوله، إلّا أنّه لم يحضر. اختفى ما بين باب منزله والمزرعة الكائنة في ضيعة فونداكيلا التي تبعد ما يربو على ستّة أو سبعة كيلومترات، اختفى برفقة بغله وأدوات العمل المعتادة، دون أن يترك وراءه أيّ أثر.

كان بالإمكان التفكير باحتمال هرب نيكولوزي واختفائه، لو أنّه من أرباب السوابق، أو لكونه على صلةٍ بعالم الإجرام، بشكلٍ أو بآخر، أو أنّه قد تعرّضَ إلى القتل عقاباً على تخلّفه عن إيفاء دَينٍ؛ لكن اختفاءه يتقاطع بالملموس، وبعيداً عن أيّ خيال، مع مقتل كولاسبيرنا، وإذا ما كان سجلّه القضائي نظيفاً، فإنّ ذلك يعني بأنْ لا وجود لأيّ سببٍ للهرب أو الاختفاء عن الأنظار على عجلٍ أو بشكلٍ مُدبّر، ثمّ إنّه لم يستَدِنْ قرضاً، إذ لم يطالبه بذلك أحدٌ ما، ولم يكن مرتبطاً بعالم

الإجرام.

لم تُراود النقيب بيلّودي في تلك اللحظة فكرةُ أنْ تكون لزوجة نيكولوزي دورٌ في اختفائه بأيّ بشكلٍ من الأشكال. إذْ لم تكن هناك مسبّبات ذات صلةٍ باحتمال وقوع الخيانة الزوجيّة، التي كانت، بالنسبة إلى المافيا وللشرطة على حدّ سواء، منبعاً هامّاً للتحرّك التحقيقيّ.

ومُنذ أنْ انشقّ الصمت المخيّم على فضاء الأوركسترا في مقدّمة المسرح بصرخة مفاجِئة، تُعلمُ الجميع بأنّ أحدهم أقدم على "قَتْل السيّد توريدّو!"(26)، فقد أسرَتْ، تلك الصرخة قشعريرة باردة في ظهور عُشّاق الأوبرا والمسرح، ومنذ ذلك الوقت وُلدَت علاقة طرديّة ما بين حالات الخيانات الزّوجيّة وأعداد الموتى اغتيالاً، وأصبحت تبرز بجلاءٍ في الإحصائيات الخاصّة بالجرائم في صقليّة، وصارت واحدة من افتراضات المراهنات لدى مقامري مراهنات الـ "لوتّو". ولأنّه يتمّ الكشف عن جرائم العشق والخيانات الزّوجيّة بسرعة كبيرة، لكونها تحتلّ الأولوية في مسار تحرّيات الشرطة. فالمراهنة عليها لا تُحقّق أرباحاً عاليةً. وتُدرج الشرطة جرائم الخيانة الزّوجيّة ضمن مسلسل الأفعال التي تُنفّذ بأيدي أُناس ذوي صلاتٍ مع المافيا. وتُقلّد الطبيعةُ الفنّ أحياناً. فمُذ قُتِلَ توريدّو ماكّا بخنجر السيّد آلفيو على خشبة المسرح الأوبرالي، وبموسيقى ماسكانّي، فقد ازدحمت مصاطب التشريح العدلي في المستشفيات وخارطة السياحة بالعديد من الجثث الشبيهة بتوريدّو ماكّا الذين قُتلوا بأيدي آخرين، يُشبهون السيّد آلفيو، وقد صُرع بعض هؤلاء إمّا بإطلاق رصاص من بنادق الصيد

أو بالذبح والطعن بسكاكين وخناجر، (ولم يحدث كلّ ذلك في إطار الأوبرا أو على خشبة المسرح، بل في الواقع الفعلي)، ومع ذلك لم يكن النقيب بيلّودي مُقتنعاً حتى تلك اللحظة باحتمال كون هذه الجريمة ذات طابعٍ عاطفي أو غرامي، أو بأنّها مرتبطةٌ، بشكل أو بآخر، بإحدى حالات الخيانة الزوجيّة؛ ولربّما لم يرَ ضرورة في أخذ ذلك الاحتمال في الحسبان، بل عارضه، بشكلٍ ما، منذ البداية، رغم قناعته بأنّ ذلك التجاهل المتعمّد سيتسبّب له، في النهاية، بتوبيخ انضباطي من رؤسائه.

عاد الشرطيّان دانتونا وبيتروني من المحكمة ومن دائرة السجلّ العدلي، وهما يحملان شهادَتَين، تُدلّلان على خَوَاء السجلّ القضائي لباولو نيكولوزي من أيّة سوابق أو ملفّات قضائية عالقة. لم تصدُر بحقّه أحكام، ولا وجود لمحاكمات جارية، له أيّ علاقة بها. وشعر النقيب في تلك اللحظة بارتياح كبير، وبضرورة الاستعجال في الإقدام على خطوة أخرى. الاستعجال للتوجّه إلى بلدة "S" للحديث مع زوجة نيكولوزي في الحال، إضافة إلى استجواب عدد من أصدقاء الرجل الذي اختفت آثاره، بحضور الرقيب أوّل؛ وكان يرغب أيضاً باستجواب أصحاب المزرعة الكائنة في بلدة فونداكيلّا، والتي كان يُفترَض أن يعمل فيها نيكولوزي في يوم اختفائه، وإذا ما استدعت الحاجة أن يقوم باستجواب لا روزا وپيتسوكو، وهما الشخصان اللذان أسرّ المُخبر إليه باسمَيهما.

كانت الساعة تُشير إلى منتصف النهار. أصدر النقيب أوامره لإعداد

السيّارة، وهبط مُهروِلاً. كان يشعر برغبة متزايدة في الغناء. وكان يردّد نغمات أُغنيَةٍ فيما كان يتّجه صوب حانوت المعسكر، أوصى على شطيرَتَين، وشرب قهوة ساخنة للغاية. أعدّ الشرطيّ النادل القهوة بكميّة مناسبةٍ من القهوة المطحونة مستخدِماً البراعة المعهودة لدى سكّان نابولي، وأمضى الوقت اللازم لإعدادها بالشكل الذي أتاح له الفوز بمديح من قِبَلِ رئيسه.

كان النهار بارداً، لكن؛ غارقاً في ضياء الشمس، وكانت الطبيعة زاهية بألوانها. الأشجار والحقول والصخور تمنح الإحساس بهشاشة باردة، كما لو أنّها قد تتناثر إلى جُزيئات من البلّور إذا ما مسّتها ريحِ باردة أو تعرّضت إلى أيّ صدمة. وكما كان البلّور المتناثر سيتراقص في الهواء، فقد كان محرّك السيّارة التي تُقلّ النقيب ومرافقَيه يتراقص على الدرب، فيما أسرابٌ من الطيور السوداء تطيرُ كما لو أنها تُحلّق داخل نفقٍ زجاجي، تستدير فجأةً، أو تتهاوى بخطٍّ مستقيم وعمودي، لتعود ثانية باتجاه الأعلى، وبدا ذلك التحليق وكأنّه يجري في إطارِ جدران خفيّة. كانت الشوارع مقفرة. جلس نائب العريف دانتونا على المقعد الخلفي ممسِكاً بين قبضَتَيه بندقيته الرشّاش موجّهاً فُوَّهتها إلى خارج نافذة السيّارة، وسبّابته متأهّبة على الزناد، فقبل شهر من ذلك التاريخ أوقفت عصابة من قاطعي الطرق في المكان ذاته حافلة كانت تسير ما بين بلدتَي "S" و"C"، وجرّد أفراد العصابة الركّابَ من أموالهم ومجوهراتهم. كان الحذر ضرورياً رغمَ أنّ جميع السرّاق كانوا قد أُوقِفوا وأُودِعوا السجن في مدينة سان فرانتشيسكو.

كان نائب العريف يُحدّق في الطريق قلقاً فيما انشغل تفكيره براتبه الشهريّ وبالمصاريف التي عليه إنفاقها، كان يفكّر بزوجته وبراتبه الشهريّ، بجهاز التلفزيون وبراتبه الشهريّ، بأولاده المرضى وبراتبه الشهريّ. أمّا الشرطيّ السائق، فقد كان يُعيد التفكير بلقطات من فيلم "أوروبا في الليل(27)" الذي شاهده على شاشة التلفزيون في الليلة السابقة. وجالت في خاطره أفكارٌ أخرى تمنّى ألّا ينتبه إليها النقيب بفراسته المعهودة، وانصبّ تفكيره في تلك اللحظة على أنّه لم يتناول غداءه في المعسكر، وما إذا كان سيلحق لتناول لقمةٍ مع زملائه من أبناء القوّة في بلدة "S". إلّا أنّ النقيب، وكان ذا قدرة شيطانية خارقة، اكتشف ذلك السر، وقال بأن عليهما اجتراح وسيلة ما لتناول الغداء بمجرّد الوصول إلى "S"، وأعتذر إليهما لأنّه لم يفكّر بذلك ما قبل الانطلاق من المعسكر، احمرّت سحنة الشرطيّ، وفكّر في سرّه، "إنّه طيّب القلب، لكنه قادر على قراءة ما يدور في خلدي"، ولم تكن تلك هي المرّة الأولى التي يحدث فيها أمر كهذا؛ قال نائب العريف أنْ لا شهية عنده للأكل، وبأنّه قادر على الصوم حتّى نهار اليوم التالي.

وفي بلدة "S" خرج الرقيب أوّل من غرفته متفاجئاً بوصول النقيب، إذْ لم يكن قد بُلِّغ بأمر تلك الزيارة. كانت لقمة الطعام ما تزال عالقة في حلقه، وسحنته محمرّة بسبب الغضب للمَقْلَب الذي يواجهه الآن، فقد بقيت قطعة لحم الضأن المشوية في الصحن، وستبرد بالتأكيد، ولن يَنفعَ تسخينها في إعادتها إلى مذاقها الأصلي. فلحم الضأن المشوي ينبغي أن يُؤكَل ساخناً، وبشحمه سائلاً، يفوح منه عبق الفلفل الأسود.

كفى!، فكّر الرقيب الأوّل: فلتكن تلك كفّارتنا، ولنرَ ما الجديد الذي أتى بالنقيب إلى هنا.

وبالفعل كانت هناك أمورٌ جديدة عديدة. ولم يكن أمام الرقيب أوّل إلّا إبداء اتّفاقه في الحال. إلّا أنّه لم يكن شديد الاقتناع بوجود صلة ما بين اغتيال كولاسبيرنا واختفاء نيكولوزي. بعث استدعاءً إلى زوجة نيكولوزي وإلى اثنين آخرَين من بين أصدقائه، إضافة إلى شقيق الأرملة. وقد استخدم هذه الكلمة مع الشرطيّ المُبلّغ "الأرملة". فقد كانت قناعته بموت المختفي قد ترسّخت، ولم تكن لديه شكوكٌ في ذلك؛ إذ ليس بإمكان إنسان هادئ وطبيعي مثل نيكولوزي أن يختفي ما لم يكنْ ميتاً بالفعل. في الغضون اقترح على النقيب أن يتناول لقمة. اعتذر النقيب عن الدعوة، وأخبره بأنّه قد تناول غداءه. "آه، أكلتَ إذاً!" فكّر الرقيب أوّل في سرّه. وشعر بغضب جامد مثل جمود الشحم الذي تكوّم حول قطعة لحم الضأن البارد.

كانت الأرملة على قَدرٍ لا بأس به من الجمال. شعرٌ كستنائي، وعينان بسواد غامق، وملامح رقيقة وهادئة، وثمّة ابتسامة ماكرة انطبعت على شَفَتَيها. لم تَبدُ خجولة. وكانت تتكلّم بلهجة مفهومة المعاني، ولم يحتج النقيب إلى طلب مساعدة الرقيب أوّل للترجمة. وكان يستفسر من السيّدة نفسها عن معاني بعض الكلمات، فتقوم هي بتفسيرها بجملة تُقال باللهجة الصقليّة. وكان النقيب قد تعرّف فيما مضى على عدد من الصقليّين سواء خلال حياته ما بين الأنصار المكافحين ضدّ الفاشيّة أو خلال عمله في صفوف الدَّرَك. وكان قد قرأ كتب جوفاني

ميلي(28) بشروح فرانتشيسكو لانتزا(29)، كما قرأ قصائد إينياتسيو بُوتّيتا(30) بالنصّ الإيطالي المقابل الذي صاغه الشاعر سلفاتوري كوازيمودو(31).

في يوم احتفائه، كان زوج الأرملة قد نهض من فراشه في السادسة صباحاً، وأحسّت هي بنهوضه من الفراش. لم يُضئ المصباح، لأنّه لم يرغب في إيقاظها. كان هذا ديدنهُ في كلّ صباح. كان إنساناً مُفعماً بالرّقّة (هكذا قالت بالضبط، استخدمت فعل الماضي الناقص "كانَ"؛ فبخصوص مصير الزوج، كان رأيها، هي الأخرى، من رأي الرقيب أوّل نفسه)، إلّا أنّها، وككلّ صباح، أفاقت من النوم؛ وككلّ صباح قالت له: القهوة جاهزة في خزانة المطبخ، يكفي أن تُسخّنها. ثمّ عادت لتغرق في النوم من جديد، وهذا ما كان يحدث معها في العادة كلّ صباح. كانت تشعر بزوجها وهو يتحرّك في المطبخ، ومن ثمّ سمعتْهُ وهو ينزل السلّم إلى الطابق الأسفل، ليفتح من الشارع باب الاصطبل. ولمجرّد الوقت الذي استغرقه الزوج في إعداد البغل للرحلة، وربّما بعد مرور خمس أو عشر دقائق فحسب، عاد الوسن، ليفرض هيمنته عليها. إلّا أنّ الوسن انجلى عندما عاد الزوج إلى الغرفة، إذْ كان قد نسي علبة سجائره، وبينما كان يبحث عن تلك العلبة في ظلمة الغرفة أسقط أيقونة فضّيّة، كانت قد أهدتْها إليها خالتها، الراهبة الكبرى، في دير العذراء. أفاقت حينها وسألت زوجها: ما الذي حدث؟ فأجابها الزوج: لا شيء، نامي، لقد نسيتُ سجائري. ولأنّها كانت قد أضاعت نومها بشكلٍ نهائيّ، قالت له: أضئ المصباح. إلّا أنّ الزوج أكّد بأنْ لا حاجة لذلك،

فقد عثر على ما كان يبحث عنه، ثمّ سألها إنْ كانت قد أفاقت لسماعها صوت إطلاق رصاص صدر عن مكان قريب، أم أنّه هو مَنْ أيقظها عندما أسقط الأيقونة الفضيّة في الظلام، وأحدث الضوضاء؟ أراد معرفة سبب استيقاظها، لأنّه كان قد جُبل على هذه الشاكلة، فقد كان قادراً على قضاء يوم كامل يشعر فيه بالندم، إذا ما كان هو مَنْ أفاقها من النوم. كان يُحبّها بالفعل.

- لكنْ، هل سمعتِ دوي الطلقَتَين؟

- كلّا، إن نومي رقيق للغاية تجاه الأصوات التي تصدر داخل المنزل، وتجاه الضوضاء التي يُحدِثها زوجي؛ أمّا فيما يتعلّق بما يَحدث خارج المنزل، فلن تتمكّن حتّى الألعاب الناريّة التي تُقام احتفاءً بالقدّيسة روزاليّا، من إيقاظي.

- وماذا حدث بعد ذلك؟

- بعد ذلك أضأتُ بنفسي المصباح الصغير بجوار سريري. نهضتُ، وبقيتُ جالسة في فراشي على السرير؛ ثمّ سألتُهُ عمّا حدث بِتَنيِنِكَ الطلقتَين. أجابني زوجي "لا أعلم ما الذي حدث، إلّا أنّني شاهدتُ عبور .... راكضاً".

- مَن الذي كان يركض؟ - سألها النقيب وقد دفعه الإحساس بالحماس أن يتقدّم بجسمه صوب المرأة الجالسة على الطرف الآخر من الطاولة، فاصطبغت ملامح وجهها في الحال بقَذر من الفزع المفاجئ. ما قَلَبَها وجعلها تبدو للحظةٍ قبيحة المرأى. عاد النقيب ليُسند ظهره إلى

الكرسي مُجدّداً، وسألها بهدوءٍ كبير، مَن؟

- لقد نطق باسم شخص، لا أذكره الآن، أو ربّما كان ذلك كُنيةً ما. وإذا ما أمعنتُ التفكير الآن، فلا بدّ أن الأمر يتعلّق بكُنية.

واستخدمت المرأة مفردة Ingiuria للدلالة على الكُنية، فشعر النقيب للمرّة الأولى بالحاجة إلى مَقدِراتِ الرقيب أوّل التّرجمانيّة.

قال الرقيب أوّل: إنّها تعني "الكنية". فهنا يمتلك الجميع تقريباً كنيةً ما، صيغت للدلالة عليهم، وبعضها مُهينٌ حقّاً.

- يمكن أن تكون كُنيةً، لكن، يمكن أن تكون أيضاً لقباً غريباً لشخص ما، وقريباً من الكنية تلك. ألم يسبق لكِ أن استمعتِ من قبل إلى ذلك الاسم، أو إلى تلك الكنية التي نطقها زوجكِ؟ حاولي أن تتذكّري، أرجوكِ. إنّه أمرٌ ضروري للغاية.

- ربّما لم أسمع بذلك الاسم من قبل أبداً.

- حاولي أن تتذكّري. وفي الغضون أخبريني ما الذي قاله زوجكِ بعد ذلك أو فعله.

- لم يقل شيئاً البتّة. رحل.

كانت سحنة الرقيب أوّل قد تجمّدت منذ دقائق في هيأة مُستفزّة وغاضبة، بالذات منذ أن أبدت المرأة حالة الفزع السابقة. فقد كانت تلك، برأي ضابط الصفّ، اللحظة المناسبة لرفع مقدار الفزع لديها، لإخافتها وإجبارها على النطق بذلك الاسم أو بتلك الكُنية. وهو اسم

تعرفه وقد انطبع في ذهنها، كان الرقيب أوّل واثقاً في ذلك كوثوقه بوجود الربّ. لكنْ، على العكس من ذلك، فقد صار النقيب أكثر تودّداً من المعتاد تجاهها. "مَنْ يعتقد نفسه، يا تُرى؟ أيعتقد أنّهُ صار آرسين لوپين؟". كان الرقيب أوّل يفكّر في داخله، بحث في ثنايا ذاكرته عن نماذج قرأ عنها وخلط ما بين الشرطيّ والسارق.

- حاولي أن تتذكّري تلك الكنية، في غضون ذلك سيكون مساعدنا الرقيب أوّل في غاية الكرم، وسيُقدّم إليكِ كأساً من القهوة.

- "القهوة أيضاً! هذا كثيرٌ للغاية" - فكّر الرقيب أوّل "حسنٌ، قد نستوعب أن يكون عاجزاً عن إطلاق صرخة مرعبة في وجه تلك المرأة، لكنْ، أن يقدّم لها القهوة أيضاً، فذلك كثير". إلّا أنّه لم يذهب أبعد من النطق بـ: أوامركَ، سيّدي.

بدأ النقيب بالحديث عن صقليّة، وقال بأنّها أجملُ بكثير في مناطقها القَصيّة والعسيرة والجرداء والخالية من الزرع. وتحدّث عن الصقلّيّين مُشدّداً على ذكائهم. وبأنّ صديقاً له، يعمل آثارياً، أخبره عن مقدار براعة الصقلّيّين وعن شفافيّة وإيثار الفلاحين الذين يُجيدون العمل في مناطق الحفريات أفضل من العمّال المتخصّصين القادمين من الشمال. وقال أيضاً بأنّ ما يُشاع عن كسل الصقلّيّين عارٍ عن الصحّة، وبأنّ ما يُقال عن افتقادهم إلى روحيّة المبادرة أبعد ما يكون عن الحقيقة.

وصلت القهوة والنقيب ما يزال يتحدّث عن صقليّة والصقلّيّين.

احتست المرأة قهوتها بجرعات قصيرة، وبقَدر من الرهافة الغريبة عن امرأة متزوّجة من مقلّم أغصان. وبلغ الأمر بالنقيب، وهو يُحلّق على المشهد الثقافيّ الصقلّيّ ابتداءً من جوفانّي ڤيرغا(32) وصولاً إلى رواية "الفهد(33)"، ليحطّ فيما بعد على نوع أدبي، يؤكّد بأنّ الكنيات المستخدمة في صقليّة، إنّما هي دالّة على الشخص المحدّد ومواصفاته. لم تكن المرأة تعي الكثير ممّا يقوله النقيب، وبمثلها، كان الرقيب أوّل عاجزاً عن الفَهم. لكنّ بعض ما يعجز الذهن عن استيعابه، يدركه القلب؛ وفي صُلب قلبَيهما كصقليّين، كانت المرأة والرقيب أوّل يُدركان المغزى الموسيقي لكلمات النقيب. "ما أجمل الاستماع إلى كَلماته!"، كانت المرأة تفكّر مع ذاتها؛ أمّا الرقيب أوّل، فيقول في سرّه "بقَدر ما يتعلّق الأمر بالكلام، فإنّكَ تُجيده بشكل رائع، وحتّى أفضل من تيرّاتشيني"(34)، وكان ضابط الصَّف يُعدّ "تيرّاتشيني"، بمعزلٍ عن أفكاره بالطبع، الأفضل على الإطلاق من بين الخطباء السياسيّين جميعهم الذين قُيّض له الاستماع إليهم خلال الاجتماعات والتظاهرات السياسيّة التي وجب عليه حمايتها.

- ثمّة كنيات تُولَد من طبيعة الشخصيّات أو من عيبٍ جسدي فيهم. قال النقيب. في حين أنّ هناك "كُنياتٍ" تقتبس الطبيعة الأخلاقيّة للشخص؛ وهناك أخريات مرتبطة بأحداث خاصّة أو قضايا مُحدّدة. ثمّ إنّ هناك كنيات متوارثة وشاملة لأفراد الأسرة جميعهم؛ وقد تتواجد أحياناً حتّى في سجلّات الطابو وخرائطه. لكنْ، دعونا نسير بانتظام، فالكنيات التي تتناول العيب الجسدي، ومن بينها الأكثر بداهة، الأهبل،

والأعرج والمتشرّد والمهووس. هل كانت الكُنية التي نطق بها زوجكِ تُشبه إحدى هذه؟

- كلّا. قالت المرأة وهي تهزّ رأسها.

- هل كان هناك شبه بحيوان ما أو بنوع من الشجر أو بأشياء. كأنه ذكر، على سبيل المثال، القط. وهو بذلك يُشير إلى رجل بعينَين رماديَّتين، تجعلانه شبيهاً بالقطّ. لقد تعرّفتُ على رجل كان قد كُنّيَ باسم "Lu Chiuppu" وذلك لتشبيهه بشجر الحور، بسبب قامته الطويلة، ولاهتزازٍ في مشيته، وكأن ريحاً ما تُحرّكه. هكذا وصف الآخرون لي الحالة. أمّا الأشياء. لنرَ قليلاً، كُنيةٌ تُشبّه الأشخاص مع شيءٍ أو أداة ما.

- أعرف شخصاً كُنّي بالقارورة. قال الرقيب أوّل، وقد كان بالفعل على هيئة قارورة.

- لو سمحتُم لي. قال نائب العريف سپوزيتو، والذي كان قد توارى عن الأنظار بالكامل، بسبب ثباته المطلق في تلك الغرفة. لو سمحتُم لي، فإنّ بإمكاني أنْ أورد لكم بعض النماذج من الكنيات المستقاة من أسماء الأشياء، الفانوس، وهو شخص بعينَين تبرز مقلتاهما من المحجرَين؛ الكمّثرى المطبوخة، شخص أُصيب بمرض مجهول؛ الإجاص، ولا أعلم لِمَ هذه الكُنية، ربّما لوجهه الخالي من أيّ تعبير؛ خبز القربان(35)، لأنّ وجهه مدوّر وأبيض ببياض خبز القربان.

أطلق الرقيب أوّل سعلةً ذات مغزى تأنيبي. لم يكن يسمح بأن يُتَندّر،

بأيّ شكلٍ من الأشكال، على رموز ذات صلة بالدِّين.

أقلع سپوزيتو عن الكلام، وحدّق النقيب بالمرأة بنظرة مُستجوِبة. ردّت هي بـ "لا" متكرّرة بهزّة من رأسها. فلم يكن من الرقيب الأوّل، الذي صارت حدقتا عينَيه في تلك اللحظة ككُوَّتَين مليئَتَين بالماء، إلّا أن دنا بوجهه من وجه المرأة مُحدِّقاً فيها بنظرة مُهدِّدة. ما دفعها أن تُسارع إلى لفظ الاسم، الذي بدا وكأنّه قد عاد إلى ذهنها بشكل مفاجئ، وقالت "زِكّينيتّا".

- "زيكّينيتّا"(36) ترجم الشرطيّ سپوزيو في الحال. إنها لعبة، يمارسها المقامرون بأوراق اللعب الصقليّة.

رمى الرقيب أوّل صوبه نظرة مؤنِّبة أخرى، كما لو أنّه يقول له بأن وقت التفسيرات اللغوية قد انقضى، فلدينا الآن اسم ننطلق منه في التحقيقات؛ ولم يكن يهمّ على الإطلاق ما إذا كان ذلك الاسم يعني لعبة قمار أو قدّيساً من قدّيسي الفردوس. وكان يشعر في تلك اللحظة بقَدر من الاستثارة، وكان رأسه مزدحماً بمشاهد الملاحقة والتحرّيات.

وعلى العكس منه، فقد شعر النقيب بخيبة أمل عميقة في داخله. إذ تملّكَهُ إحساس بالإحباط، وشعور بالضعف الكبير، فتلك الكنية، أو ذلك الاسم، أو أيّاً كان، طفى إلى السطح. لكن، فقط في اللحظة التي صار فيها الرقيب أوّل، في نظر المرأة، تهديداً مُروّعاً كمحاكم التفتيش، وحين صار تمثيلاً قائماً للقمع. ربّما هي كانت تتذكّر الاسم منذ اللحظة التي نطق به زوجها، ولم تكن صادقة حين صرّحت بأنّها قد نسيتْهُ. أو

ربّما، استعادتْ ذاكرتها خلال الرعب المفاجِئ واليائس الذي تعرّضت إليه في تلك اللحظة. لم تكن لتُفصح عن ذلك الاسم دون غضب الرقيب أوّل الذي تحوّل في لحظة ما إلى تهديد مُرعب، خيّم على رأسها.

قال الرقيب أوّل، أعطني الوقت الذي تستغرقه حلاقة ذقني. وسأعرف ما إذا كان "زِكّنيتا" هذا من سكّان البلدة أم لا. حلّاقي يعرف الجميع مثل باطن كفّه.

- اذهب. قال النقيب بانزعاجٍ واضح؛ فتساءل الرقيب أوّل في سرّه "ماذا دهاه، يا تُرى؟". وبالفعل فقد كان الإحساس بالخيبة هو ما هيمن على النقيب في تلك اللحظة. وامتزج إحساس الخيبة ذاك بقَدْرٍ كبير من الحنين.

شريط من ضياء الشمس المتساقط على الطاولة أنار حُزمة ذهبية من الذّرّات المتطايرة، أعاد إلى ذهنه صوراً من جولات الفتيات على متن الدّرّاجات الهوائية في شوارع "إيميليا"(37)، ومشهد الأشجار في الضباب تحت سماء بيضاء؛ وأعاد إلى ذهنه دارةً واسعةً، تستسلم فيها المدينة للريف. إنّها دارةٌ جميلة، غلّفها ضياء المساء، وفاح منها عبق الذكريات "هناك. حيث تَفْتقِدُكَ اعتياداتُنا القديمة كلّ مساء"(38)، كما تقول كلمات الشاعر القادم من أرضه نفسها، والذي يُناجي فيها شقيقه الميت. ولشعوره بالإشفاق على نفسه وبالخيبة التي اجتاحتهُ، كان النقيب بيلّودي يشعر بنفسه، في تلك اللحظة، ميتاً هو الآخر.

كانت المرأة تُحدّق فيه بقلق، وحُزمة الضوء الملتمعة بالذرّات المُذهّبة تتساقط على الطاولة، وتفصل ما بينهما. مُولّدة لديه إحساساً ببُعدٍ قَصِيٍّ وخارجٍ عن الواقع، في حين كانت تجتاح المرأة مشاعر مَنْ يعيش في لُجّة كابوس.

- أيّ نوعٍ من الرجال كان زوجكِ؟ سأل النقيب المرأة، وفي سؤاله هذا اكتشف أنّه بات من الطّبيعيّ لديه أن الزوج في عداد الموتى.

ولأنها كانت ما تزال غارقة في أفكارها المرتعبة، لم تُدرك المرأة مغزى السؤال في الحال.

- أرغب في معرفة أيّ نوعٍ من الشخصيّة كانت لدى زوجكِ، ما كانت عاداته؟ ما نوع صداقاته؟

- كان طيّب القلب. مُوزّعاً ما بين العمل والبيت. في الأيّام التي لم يكن يعمل فيها، كان يذهب إلى نادي المزارعين لقضاء بضع ساعات مع أصدقائه. وفي يوم الأحد، كنّا نرتاد السينما لمشاهدة فيلم. كان لديه عددٌ قليلٌ من الأصدقاء، وهم أشخاص طيّبون للغاية، من بينهم شقيق عمدة البلدة، وحارس البلديّة.

- هل تخاصمَ مع أحدٍ ما؟ أو هل كانت لديه مصالح أو عداوات؟

- أبداً، على العكس من ذلك، فقد كان الجميع يحبّونه، لم يكن من أهل هذه البلدة في الأصل، والغرباء يهنؤون هنا بحياة جميلة.

- آه، نعم، لم يكن من أبناء البلدة. وأنتِ، كيف تعرّفتِ عليه؟

- هو مَنْ تعرّف عليّ، خلال حفلة عُرس. أحد أقاربي تزوّج فتاة من بلدته، وقد حضرتُ حفلة العرس برفقة شقيقي. وهناك رآني، وعندما عاد قريبي من شهر العسل، طلب منه أن يخطبني من والدي. وقد استعلم والدي عنه، وتحدّث معي. قال لي: "إنّه شابٌ طيّب. ولديه مهنة بوزن الذهب"، فأجبتُهُ بأنّني أجهلُ حتّى شكله، وبأنّني أرغب في التعرّف إليه قبل إبداء رأيي. وفي أحد أيّام الآحاد زارنا، ليس كخطيب، بل كصديق؛ كان شحيح الكلام. وأمضى جلّ الوقت مُحدّقاً فيّ كما لو كان مسحوراً. "إنّه مُطلسم"، كان قريبي يتندّر عليه، يبدو كَمَنْ صنعوا له تعويذة عشق. وكما هو واضح، فقد وافقتُ على الزواج منه.

- وكنتِ تُحبّينه؟

- بالتأكيد، كنّا متزوّجَين.

عاد الرقيب أوّل من جولته الحلّاقية، وملأ أجواء الغرفة بعبق ماء الكولونيا التي يستخدمها الحلّاقون. بادر بالقول في الحال: لا شيء. ثم انتقل إلى ما وراء ظهر المرأة مُحاوِلاً إفهام النقيب بإيماءات عصبية، بضرورة جعل المرأة تذهب إلى حال سبيلها، فقد كانت هناك معلومات جديدة، أشياءُ مريبة تخصّ المرأة ذاتها، تذهب أبعد من اسم أو كُنية "زِكّينيتّا" هذا، كان يومئ مُدوِّراً يده اليمنى بالقرب من رأسه، كما لو أنّها مروحة طاحونة هواء.

سمح النقيب للسيّدة بالمغادرة. بلهفة وعلى عجل دلقَ الرقيب أوّل ما في جُعبته من معلوماتٍ، حصل عليها من الحلّاق، فللسيّدة عشيق،

اسمه پاسّيريلّو، ويعمل جابياً لفواتير الكهرباء. معلومات موثوق فيها، حصل عليها من دون تشيتشو الحلّاق.

لم يُبدِ النقيب أيّ استغراب، وبدلاً من ذلك سأل عن المعلومات حول زِكّينيتّا، قالِباً، رأساً على عقب، التقاليد القديمة الصلدة بتفضيل الخيانات الزّوجيّة في التحقيقات حول جريمةٍ ما.

- دون تشيتشو نفى بشكلٍ قاطع أن يكون في البلدة شخص يحمل هذا اللقب أو الكنية، وبالنسبة إلى هذه الأمور، فإن دون تشيتشو بمثابة محكمة النقض العليا. وإذا ما أفاد بأن قروناً نبتت على رأس المسكين نيكولوزي(39)، فإنّ بإمكاننا أن نُصادق بالخَتم والطابع بأن تلك القرون موجودة بالفعل. ولربّما يُفترَض بنا أن نبحث عن پاسّيريلّو هذا، ونحاول عصره لاستخراج المعلومات منه.

قال النقيب: كلّا سنقوم، بدلاً عن ذلك، بجولة قصيرة، سنزور زميلكَ في بلدة "B".

- أوامركَ، سيّدي - قال الرقيب أوّل بقدرٍ من الانزعاج.

سافر الفريق إلى بلدة "B" بصمت، سالكين الطريق الساحلي. حيث البحر الهادئ يستقي ألوانه من السماء. كان الرقيب أوّل الآخر بانتظارهم في مكتبه، وعلى طاولته ثمّة ملفّ يخصّ شخصاً، اسمه دييغو ماركيكا، المعروف بكُنية "زِكّينيتّا"، والذي أُفرجَ عنه من السجن منذ وقت قصير بعد تشميله بقانون العفو العامّ؛ وكانت على الطاولة أيضاً معلومة إخبارية، ضمّنها أحد المخبرين معلومات حول حلبات

القمار غير القانونية، وبالذات لُعبة "زيكّينيتّا"، التي كان ماركيكا يمارسها في نادي الصيّادين، والتي كان يخسر خلالها مبالغ طائلة، ويدفع مبالغ تلك الخسارات بشكل نظامي وغريبٍ على إمكانيات مُزارع عاطل عن العمل، وهي الدفوعات التي لم يكن بمقدوره الإيفاء بها، ما لم يكنْ له مورد آخر أو أنّه يحصل على ذلك المال من مصدر غير شريف.

وُلد ماركيكا في عام 1917، وبدأ حياته الإجرامية في عام 1935، سطو على منازل وسرقة ممتلكات؛ وقد حُكِمَ عليه بسبب ذلك. واقترف في عام 1938 جريمة إضرام حريق مُتعمَّد؛ إذ احترقت مخازنُ حبوب منْ كانوا قد أدلوا بشهاداتٍ أسهمت في إيداع ماركيكا في السجن عن جريمة السطو والسرقة السابقة؛ إلاّ أنّه نال البراءة عن تهمة إحراق مخازن الحبوب لعدم اكتمال الأدلّة. وفي آب/ أغسطس من عام 1943 اتُّهِمَ بالسطو المسلّح، وبحمل سلاح حربي، والانتماء إلى جماعة إجرامية؛ وحوكم من قبَل الأمريكيين(40) وأُخلي سبيله (دون أن يُدركَ أحدٌ سبب تبرئته(41)). واتُّهم في عام 1946بالانتماء إلى جماعة مسلّحة، حيث قُبض عليه خلال مواجهة بالسلاح النّاريّ مع الدَّرَك، وحُكم عليه بالسجن لهذه التهمة؛ واتُّهم في عام 1951 بجريمة القتل العمد، إلّا أنّه نال البراءة لعدم توافر الأدلّة الكافية للإدانة. وفي عام 1955 وُجّهت إليه تهمة الشروع بالقتل خلال مشاجرة، وقد أُدين بسبب ذلك، وحُكم عليه. وقد أثارت التهمة التي وُجّهت إليه في عام 1951 اهتمام النقيب، جريمة قتل بالتكليف، وهو ما ثَبتَ أمام

المحققين من خلال الاعترافات التي أدلى بها إلى الدّرَك شركاء ماركيكا نفسه. وقد ذابت تلك الاعترافات، كما الثلج في أوّل بزوغٍ للشمس، إذ أبرز المعترفان للقاضي وللطبيب الشّرعيّ كدماتٍ وأوراماً قالوا إنّ الدّرَك قد تسبّبت فيها بالتعذيب والضرب في أثناء التحقيق معهما لإجبارهما على الاعتراف ضد ماركِكا. وما هو مثير للفضول هنا هو أنّ ماركيكا، وهو الوحيد الذي لم يُدلِ بأيّ اعتراف، لم يُبرز للقاضي أيّ نوع من أنواع الكدمات أو الأورام. وقد أحيل عريفٌ وشرطيان إلى التحقيق القضائي لاستخدامهم التعذيب والضرب خلال الاستجواب، إلّا أنّ ساحتهم بُرِّئت بعد محاكمة سريعة لعدم اقترافهم الجُرم الذي اتُّهموا به. وكان هذا الحكم يعني بدوره بأن شريكَيْ ماركيكا كانا قد أدليا باعترافاتهما الأولى ضدّه، طوعاً ودون التعرّض إلى أيّ تعذيب أو ضرب، إلّا أنّ قضيّة ماركيكا لم تُفتح ثانية، أو ربّما ما تزال أوراق القضية تتجوّل في دهاليز القضاء.

وكانت المعلومات الواردة في ملفّ التحقيق تصف ماركيكا على أنّه مجرمٌ بارع وقاتلٌ موثوقٌ في ولائه، إلّا أنّه كان أيضاً مقامراً مدمناً وتصيبه اهتياجات مفاجئة، كما أظهرت محاولته القتل العمد خلال خصام نشب بينه وشخصٍ آخر. وكان الملفّ يحتوي أيضاً على تقرير إخباري، يُشير إلى تواجده خلال حفل خطابي للبرلماني ليفيئي، الذي كان يُحيط به حشد من صفوة المافيا المحلّيّة، على يمينه عميد هذه المافيا "دون كالوجيرو غويتشاردي"، وإلى يساره المدعو ماركيكا، كان الجميع واقفين في منتصف الشرفة المركزية لعائلة "آلفاريز". قال

البرلماني في ذلك الاجتماع بالحرف الواحد: يتهمونني بالعلاقة مع مافيويّين، أي مع المافيا، لكنّي أقول لكم بأنّني لم أتمكّن، حتّى هذه اللحظة، أن أفهم ما هي المافيا، وما إذا كانت موجودة بالفعل أم لا، لكنّ بإمكاني الجزم، بضمير الإنسان الكاثوليكي الحقيقي المؤمن والمواطن المستقيم، بأنّني لم أتعرّف أبداً على شخصٍ مافيوي. ما دفع معارضيه الذين كانوا قد تجمهروا في عمق الشارع، إلى الصراخ بسؤال واضح ومُحدّد - وهل مَنْ يقفون إلى جوارِكَ الآن تلاميذُ في مدرسة اللاهوت؟ وتبعت ذلك السؤال موجة من الضحك الذي عمّ المكان، فيما تصرّف البرلماني وكأنّه لم يستمع إلى السؤال، وواصل عرض برنامجه حول إصلاح الزراعة.

وكان هذا التقرير المُضمَّنُ في ملفّ ماركيكا يرمي للإحاطة بنوع الحماية التي يحظى بها ماركيكا، وذلك في حال ما إذا وُجّهت إليه تهمة لجُرمٍ أو خطأ.

كان رأس عرفاء بلدة "B" حاذقاً، ويعرف أسرار مهنته حتّى العمق.

**

- ثمّة شيءٌ ما يتحرّك. قال الرجل العجوز. هناك تحرُّك لا يُعجبني، الشرطة يُحيكون أمراً ما.

- إنّهم يُحيكون في هواء الريح - قال الشاب.

- لا تُطَمْئِنَنّ رأسكَ بفكرة أن جميع رجال الشرطة حمقى وبليدون، فمِنْ بينهم أناسٌ يمكنهم أن يخلعوا من قَدَمَيْكَ الحذاء، فتسير في

الشارع حافياً دون أن تنتبه لما حدث. أذكرُ، أنه كان هنا في عام 1935 عريفٌ بمكر الثعلب، وبسحنة كلب الصيد. وكان، عند أيّ وقوع حادث، يتأهّب كَمَن يستعدّ للانقضاض على الفريسة، وكان يلتقطكَ، كما يلتقط الكلبُ أرنباً بريّاً فرّ من جُحره للتوّ. يا لَمكره الفريد، ابن ال.... لقد وُلد شُرطياً، بالضبط كما يُولَد البعض رهباناً أو مَنْ يُولَدون وقد نبتت على رؤوسهم القرون(42). لا تعتقدَنّ بأنّ على رأسِ شخصٍ ما قرونٌ لأنّ النساء هنّ مَنْ أنبتْنَها له، أو أنّ الإيمانَ يهبط على رأس البعض الآخر، في لحظة ما من حيواتهم، فيغدون رهباناً، الناس يُولَدون ومساراتُ حياتهم مرسومة، لا أحد يُصبح شرطيّاً لأنه شعرَ في لحظة ما في حياته بالحاجة إلى أن يُرشَى، أو لأن القانون صار امتحاناً، يشترك فيه العاطلون عن العمل، أولئك يُصبحون رجال شرطة، لأنّهم وُلدوا ليكونوا كذلك. أقول ذلك عن رجال الشرطة الحقيقيّين، فثمّة رجال مساكين ومثيرون للشفقة، ومنهم مَنْ جُبلوا من طينة الملائكة؛ لذا لن يكونوا أبداً رجال شرطة حقيقيّين. رجل شريف مثل الرقيب أوّل الذي كان هنا خلال الحرب، هل تذكرُ ما كان اسمه؟ ذلك الذي كان فَرِحاً بوجود الأمريكان، أبالإمكان اعتبار ذلك الرجل الطيّب شرطيّاً؟ لقد تكرّم علينا ببعض الأفضال، وأسدى لنا بعض الخدمات، ونحن أعَدنا إليه تلك الأفضال، وشكرناه على الخدمات بصناديقَ من "الپاستا(43)" وبكثيرٍ من قوارير زيت الزيتون. كان رجلاً طيّباً، ولم يُولَد ليكون واحداً من الشرطة، ومع ذلك فإنّه لم يكن بليداً. لقد اعتدنا أن نعدّ شرطياً كلّ مَنْ كُتب على قبّعته حرفَي V. E.

.(44)

أكانت قبّعات هؤلاء تحمل حرفَي V. E.؟

نعم، كانت تحملهما، أنا أتناسى دائماً بأن الملك ما عاد على رأس الدولة في إيطاليا(45). نعم، لكنْ، من بين عناصر الشرطة رجالٌ بليدون حقًّا، ثمّة رجال طيّبو القلب وآخرون وُلدوا ليكونوا رجالَ شرطة. وكذا هو الحال ما بين الرهبان أيضاً، هل بالإمكان أنْ تُعِدّ "دون فراتسو" راهباً حقيقيّاً؟ إنّ أفضل ما يُمكن أن يُقال عنه بأنّه ربّ أسرة طيّب القلب. أمّا الأب سپينا، فذاك هو رجلٌ وُلد ليكون راهباً.

- وماذا عن القوّادين؟

- والآن إليكَ ما يعني القوّاد. انظر. يكتشف امرؤٌ ما بأن هناك مَنْ يعتدي على شرف عائلته ويُقيم علاقة زنا مع زوجته، فيُقيم مذبحةً. حسنٌ، هذا ليس شخصاً وُلدَ ليكون قوّاداً بالفطرة. لكنْ، إذا ما تغاضى عن ذلك الاعتداء، وتعايش بسلامٍ مع قرنَيه، فذاك هو مَنْ وُلِدَ ليكون قوّاداً حقيقياً. والآن أوضّح لكَ كيف يُولَد المرء شُرطياً بالفطرة. فعندما يصل هذا الشرطيّ إلى بلدتكَ أو مدينتكَ، تحاول التقرّب إليه، وتتعامل معه بلُطف، وتتملّق إليه؛ وإذا ما كان متزوّجاً، ربّما تُرافق زوجتكَ لتزور زوجته، تتمتّن علاقة الصداقة بين الزوجَتَين، فتتوهّم بأنه بدأ يعدّكَ شخصاً لطيفاً، ويُبادلكَ مشاعر طيّبة، تُدلّل على الصداقة؛ إلّا أنّكَ لستَ، بالنسبة إليه، إلّا ما تصفُكَ به الأوراق التي يحتويها الملفّ الذي يحتفظ به في مكتبه. وإذا ما دار بينكما حديثٌ ما، أو حتى

عندما تحتسيان معاً كوباً من القهوة في صالة منزله، فلستَ، بالنسبة إليه، إلّا شخصاً اقترف مخالفةً ما. فإذا ما كبوتَ وأنتَ تقترف مخالفة مروريّة، حتّى ولو كانت تلك المخالفة صغيرة، وأنتما وحدكما، ولم يشهد أحدٌ تلك المخالفة، فإنّه سيكتب ضدّكَ محضر المخالفة بالسهولة ذاتها التي يحتسي فيها قدحاً من الماء، فما بالكَ، إذاً، لو كانت تلك المخالفة كبيرة؟!. أذكر، في عام 1927 كان هناك رأس عرفاء الدّرَك، وكان في منزلي، كما يُقال، من أهل الدار، ولم يكن يمضي يومُ واحد دون أن تزور زوجته أو أبناؤه دارنا، وكانت الصداقة قويّة إلى درجة أنّ ابنه الصغير ذي السنوات الثلاث كان يُنادي زوجتي بـ خالتي!. في أحد الأيّام شاهدتُهُ يصل إلى منزلي حاملاً في يده أمر توقيف أصدره القاضي بحقّي. كان ذلك واجبه وعليه أن يؤدّيَه، أعرف ذلك، كانت تلك أوقاتاً عصيبة، كان قد وصل إلى هنا الجنرال "موري"(46). كيف تتوقّع أنّه تعامل معي؟ كان كَمَنْ لم يلتقِ بي إطلاقاً، ولم يتعرّف إليّ أبداً.. وكيف تصرّف مع زوجتي التي ذهبت إلى المعسكر آملة بعناية منه؟ تصرّف معها كالكلب المسعور. وكما يقول المثل الشّعبيّ "مَنْ يُصاحب الشرطة يُصبح نبيذه خلاً، ويُمسي سيكاره رماداً"، وأنا، بصلتي مع ذلك الشرطيّ، خسرتُ النبيذ والسيكار معاً، فقد كان يستمتع باحتساء نبيذي، وتدخين سكائري.

قال الشابّ: في عام 1927 كانت الفاشيّة قائمة، وكان الوضع مختلفاً، فقد كان موسّوليني هو مَنْ يُقرّر أمر نوّاب البرلمان، ويُحدّد عمل إدارات الدولة، وكان يُنفّذ كل ما يدور في رأسه. أمّا الآن، فالشعب

هو الذي يختار النوّاب والنقابات.

أطلق الرجل العجوز ابتسامة: الشعب؟! الشعب كان قوّاداً، وقوّاداً سيبقى. الفارق الوحيد يكمن في أنّ الفاشيّة كانت ترفع على قرن الشعب راية واحدة، باللون الذي كان يحلو لها، فيما الديموقراطيّة تترك الناس ليختاروا الراية التي يرغبون في رفعها على قرونهم. فنحن ما نزال ندور في الحلقة ذاتها، ليس هناك أشخاص فحسب، وُلدوا كقوّادين، بل هناك أيضاً شعبٌ أبناؤه قوّادون بأسرهم، جيلاً بعد جيل.

- أنا لا أعدّ نفسي قوّاداً.

- ولا أنا. لكنّنا نحن، يا عزيزي، نمشي فوق قرون الآخرين، كما لو أنّنا راقصون. ونهض الرجل العجوز من مكانه، وبدأ يمشي بحركات راقصة؛ كان يرغب في تمثيل إيقاع وحالةِ توازنِ مَنْ يسير فوق قرون مُتخيّلة، متقافزاً من نقطة إلى أخرى.

ضحك الشابّ، كان الحديث مع الرجل العجوز مشوّقاً للغاية. فقد عُرف عنه في شبابه عنفه البارد والماكر، وحساباته الدقيقة للمغامرات، وحذقه وحدّة ذهنه وقسوة قبضَتيه، وقد أوصلتْهُ هذه المواصفات كلّها إلى فرض هيبته على الآخرين وأن يحظى بالاحترام من قبَل مَنْ يُحيطون به، والذين كانوا ينجلون عن طريقه خلال مروره كما الموجة تنجرّ من الساحل إلى البحر تاركة وراءها على رمل السنين أصدافاً، أفرغتها الأمواج من كائناتها. "تراه في بعض المرّات يُصبح كما الفيلسوف"، كان الشابّ يُكرّر مع ذاته، معتبراً الفلسفة ضرباً من لعبة

المرايا العاكسة التي تبعثُ الذكرى البعيدةُ والمستقبلُ القريب عبرها شعاعاتِ أصيلة من الأفكار وصوراً مشوّهة عن الواقع. وكان يراه، في بعض الأوقات، يبزغ أمامه على حين غِرّة، مُفصِحاً عمّا كان عليه من قسوة لا ترحم، وكان مثيراً للفضول أن يستمع منه إلى تكرار متواصل لكلمَتَي "القرون" و"القوّادون" كما لو أنهما حبّتا صقيعٍ تتساقطان من السماء، وعندما كان يستعيد موقفه الأقسى إزاء أمور العالم، كانت الكلمات تتردّد متلوّنةً بتنويعات متعدّدة، لكنْ، مُغرقة، على الدوام، بالازدراء والاحتقار.

- الشعب، الديموقراطيّة. قال الرجل العجوز وهو يعود إلى جلسته الأولى، وقد بدا عليه بعضُ الإنهاك بعد الاستعراض الذي أدّاه للمشية الراقصة المتقافزة فوق قرون مُتخيّلة: هذان المفهومان عبارة عن اختراع جميل، اختراعات تحققت حول طاولة، من قبَل أناس قادرين على إيلاج الكلمات في عجيزة الإنسانيّة، مع شديد الاحترام. أعني شديد الاحترام للإنسانية بالطبع. غابة من القرون، هي هذه الإنسانيّة، وهي أشدّ كثافة من غابة "فيكوتسا العامرة بالشجر"(47) عندما كانت غابة حقيقيّة. وهل تعلم مَن الذي يتجوّل راقصاً فوق قرون الآخرين؟ أوّلهم، واحفظ ذلك في ذاكرتكَ جيّداً، الرهبان؛ وثانيهم، السياسيّون، وكلّما زاد هؤلاء في القول والمبالغة بأنّهم يقفون إلى جانب الشعب، وبأنّهم يعملون لصالح الشعب، فهم الأبرعُ رقصاً فوق القرون؛ أمّا الصنف الثالث، فهم أولئك الذين يُشبهونني ويُشبهونكَ أنتَ. صحيح أننا نُخاطر، أعني الرهبان والسياسيّون وأنا، بأن تنزلق

أقدامُنا في الفراغات الكائنة ما بين القرون، وأن تنغرز فينا تلك القرون، لكنْ، إذا تمكّن قرنٌ ما من تمزيق بطني، فإنّه سيظلّ قرناً في الأحوال جميعها، وليس مَنْ يحمله على رأسه إلّا قوّاداً فحسب. الرضا عن الذات، بحقّ دم المسيح، الرضا عن الذات، قد أنهزم في مواجهةٍ ما، قد أموت، إلّا أنكم ستظلّون قوّادين. وبالمناسبة، بدأت تنتابني شكوك حول ذلك القوّاد پارّينييدّو، فأنا واثق بشكل مؤكّد بأن له دوراً ما في تحرُّك الشرطة الأخير. بالأمس عندما تقاطع معي في الطريق اصفرّتْ سحنته، وتبدّلت ملامحه، تظاهر بأنّه لم يَرَني، وتسلّل من المكان على عجل. حسنٌ، أيها الأبله، لقد تركتُكَ تلعب دور الجاسوس، لأنّني على علمٍ بأنّ عليكَ أن تسعى لتدبير قوت يومكَ؛ لكنْ، ينبغي عليكَ أن تفعل ذلك بحكمة، لا أن تقتحم الكنيسة المقدّسة. وعَدّ الرجل العجوز نفسه بمثابة "الكنيسة المقدّسة"، فهو معصوم بشبكة الصداقات التي يمثّلها ويحافظ عليها.

ومن ثمّ واصل حديثه وكأنّ پارّينييدّو جالس أمامه وهو يرمي عليه كلامه بوقاره المعتاد ذاته: فإذا ما تجاسرت واقتحمت الكنيسة المقدّسة، فما الذي عليّ أن أفعل بكَ، يا عزيزي؟، لا شيء، أقول لكَ فقط بأنّكَ قد مُتَّ في قلوب أصدقائكَ.

بقي الرجلان صامتَين لبعضِ الوقت وكأنهما يتلوان مرثاةً للرجل الذي مات في قلبَيهما. ومن ثمّ قال الرجل العجوز - أنا أرى أن نُرسل "دييغو" لبعض الوقت خارج البلدة، ليلهو قليلاً، أعتقد بأنّ لديه شقيقة تسكن في جنوة.

**

اعتقلت الشرطة دييغو ماركيكا في نادي الصيّادين في التاسعة مساءً. ولم يتمكّن رأس عرفاء الدَّرَك في بلدة "B" إلّا من عصفورٍ واحد من العصفورَين اللذَين كان ينوي اصطيادهما، فقد كان يسعى إلى مباغتة مُقامري الـ "زيكّينيتّا"، وإلى اعتقال دييغو ماركيكا؛ إلّا أنّ المقامرين، لحظة المداهمة، كانوا منشغلين في لعبة "بريسكولا"(48) بريئة. ويبدو أنّ أحداً ما، كان يرصد بالقرب من دائرة البريد، فأبلغ اللاعبين عن حضور رجال الدَّرَك. أمّا دييغو ماركيكا، فقد كان سيُقاد إلى مركز الشرطة، سواء أكان يلعب الـ "بريسكولا" أو غيرَها من ألعاب الورق، احتجّ في البداية، ثمّ أذعن، وأثار توقيفه تعليقات من قبَل الناس في المكان، وبلغت التعليقات آذان الرقيب أوّل وماركيكا، على حدٍّ سواء، على شكل دهشات أو تعاطف (وكانت من قبيل، تُرى ما الذي فعل؟ أوَلَم يكن ينأى بنفسه عن التدخّل في شؤون الآخرين؟ كيف يحدثُ هذا وهو لم يُزعِج أحداً؟)، لكنّ الجميع، تقريباً، كانوا يتضرّعون إلى الربّ في سرّهم بأنْ يحثّ دييغو الخُطى صوب زنزانة في السجن، وأنْ يقضي أيّامه هناك.

وفيما كانت الشرطة في بلدة "B" تُوقِفُ دييغو ماركيكا، كانت الأقدار تُدرِج اسم شخص آخر ضمن قائمة القتلى، وتمنح المراهنين الفرصة لِلَعِبِ الرَّقْم المُخصّص للموتى المُغتالين. وقد كانت الساعات الأربع والعشرون التي قضّاها كالوجيرو ديبيلّا، المعروف باسم پارّينييدّو، في هذه الأرض، تبدو له عبوراً إلى غابة لا نهائية وكثيفة

الأشجار والمتشابكة إلى درجة تمنع مرور الضوء، ومُذ بدأ بالتعامل مع الشرطة كمُخبر، كانت تلك هي المرّة الأولى التي وفّر فيها للمحقّقين رأس الخيط للوصول إلى الحقيقة؛ كان بمقدوره تحويل اهتمام الشرطة وشكوكها عن شبكة واسعة من الصداقات والمصالح التي تتشابك مع وجوده هو أيضاً، لكنّه لم يفعل ذلك.

كانت تسريباته في السابق غالباً ما تُصيب أشخاصاً غريبين عن شبكة صداقاته ومصالحه تلك، صبيةً وغلمانَ طائشين يرتادون صالة السينما مساءً لسرقة بعض الروّاد، أو بعض ممّن كانوا يوقفون الحافلة في نهار اليوم التالي لنهب الركاب؛ وبالمحصّلة، مجرمون صغار، شباب معزولون، ودونما حماية من أيّ طرف من أطراف الجريمة المنظّمة. لكن الوضع، في هذه المرّة، اختلف عن سابقاتها، فلقد دلّ الشرطة على شخصَين، ورغم أنّه لم تكن لواحدٍ منهما، أي المدعو دي روزا، أيّة صلةٍ بالحادث، فإنّ الاسم الآخر كان في صُلب القضية، ورأسَ خيطٍ ضرورياً لفكّ عُقدتها، ومُذ نطق بذلك الاسم، فقد أضاع پارّينييدّو سلامَهُ الداخليّ، صار جسده شبيهاً بقطعة من الإسفنج المتشرّب بالرعب، وقد انطفأت حتّى آلام الحرقة الناريّة في كبده، وزال اضطراب نبضات القلب الذي يُعاني منه.

فشل پيتسوكّو، الذي كان جالساً في بار غولينو، في محاولة إبقائه معه، ليحتسيا كأساً من شراب "آمارو آڤيرنا"(49)، كما كانا يفعلان في كلّ مرّة، واندهش من رفض پارّينييدّو القاطع لتلك الدعوة، ومن مسارعته إلى مغادرة المكان، كما لو أنّه يفرّ من شيءٍ ما، ولأنّ

پيتسوكو لم يكن فطِناً بالقَذر الكافي لاستيعاب ما جرى، فقد بقي يفكّر بالأمر طوال النهار. من جانبه بقي پارّينييدّو يُقلّب في خاطره تلك الدعوة على كأس "الأمارو"، خيانةٌ مُرّة وموت مرير، متناسياً اعتياد پيتسوكو المعروف على ذلك الشراب، رغم تحذيرات الطبيب له من احتمال الإصابة بتليّف الكبد، وكان ذلك "الأمارو" بالطبع صقليّ الصنع، وأُعدّ في مصنع الأخوَين "آڤيرنا" للخمور؛ وهو الشراب الذي كان پيتسوكو يؤسّس عليه إيمانه المطلق بفكرة استقلالية صقليّة عن إيطاليا؛ وكان يزعُم بأنّه انتمى في السابق إلى صفوف "Evis"(50)، غير أنّ الشرطة الإيطالية كان تزعُم بأنّه من بين الداعمين لـ "سلفاتوري جوليانو"(51).

آخرون كُثُر لاحظوا شرود ذهن پارّينييدّو، وشاهدوا مسيرَةُ القلق الذي يُشبه مشيةَ مَنْ يستشعر وراءه ملاحقة كلبٍ شرِسٍ ومسعور، ومن بين الذين لاحظوا ذلك، أكثر من غيرهم، كان بالذات ذلك الشخص الذي يسعى پارّينييدّو إلى التهرّب من نظراته. وفي الغضون، وقع اللقاء مع الرجل المُهاب أكثرُ من غيره، الرجل الذي كان قادراً على استكشاف أو تكهّن، ما أفصح عنه المخبر سرّاً داخل الجدران المُغلقة في دائرة الشرطة. لقد تظاهر پارّينييدّو بأنّه لم يَرَهُ، واستدار عند أوّل منعطفٍ، لكن ذلك الشخص رآهُ بوضوحٍ تامّ، وتابعه طويلاً بنظرته التي بَدَتْ منطفأةً تحت جفنَين ناعسَين.

ومنذ تلك اللحظة دارت حياة المُخبر في الساعات الأربع والعشرين التالية في أتون فظاعةٍ شديدة الاهتياج. كان يُدرك استحالة الفرار،

وامتزج تجواله التائه برؤى مرعبة للموت. وكان الفرار بالنسبة إليه شبيهاً بصفير طويل، دونما انقطاع، لقطارات غير مَرئية، تنفتح أمامها حقول بلدات تتوالى ببطء، وتُطلّ من شبابيكها وأبوابها نساءٌ، وتزدان شرفاتها بالزهر النَّضِر، ثمّ يلي ذلك كلّه فجأة نفقٌ مظلمٌ، فيما عجلات القطار تُصدِرُ صريراً يُردّد اسم الموت متزامناً مع فيضان مياه الموت السوداء، لتبتلع جسده.

ودون إدراك منه كان المُخبر قد أقدم، في أيّام العذاب الثلاثة تلك، على حفر قبره بيَدَيه، بسبب خطوات ما اقترفه من أخطاء، وبسبب الرعب الذي اجتاحه. وغرق في التفكير بأنّهم على وشك قتله "كالكلب"، فبعد انفجار الرعب في داخله، اعتقد بأنّ الموت صار على مقربة منه بسبب المعلومة التي أفشى بها إلى الشرطة، لا لأنّه منح الآخرين صورةً عمّن اقترف خيانةً ما. كان الاسمان اللذان أفصح عنهما خلال التحقيق مخزونَين في ذهن النقيب بيلّودي فحسب، ولم يكن النقيب راغباً في أن يجد نفسه أمام جثة قتيلٍ آخر، وكان جادّاً في عزمه على حماية المُخبر، إلّا أنّ أعصاب پارّينييدّو التي أتلفها القلق جعلتهُ يرى الوشاية سابحةً في الهواء كقشرة القمح التي تُطيّرها مذراة. كان يشعر بنفسه ضائعاً. وفي فجر اليوم الذي يُفترَض أنّه الأخير في حياته، كتب رسالةً على ورقة شفّافة، من تلك التي تُستخدَم في المكاتيب المُرسَلَة بالبريد الجوّيّ، وجّه الرسالة إلى النقيب بيلّودي. سطّر على الورقة اسمَين، وأردفهما بجملة "أنا ميتٌ!"، وكما لو أنّه يُنهي رسالة حقيقيّة، فقد ختمها بالقول "مع فائق احترامي،

كالوجيرو ديبيلّا". وتوجّه ليرمي الرسالة في صندوق البريد وشوارع المدينة ما تَزَال مقفرة، قضى النهار بأسره يجول في الشوارع على غير هدى، دخل منزله، وخرج منه لأكثر من عشرِ مرّات، وعندما قرّر أخيراً الاعتصام في المنزل، والاختباء فيه، فاجأتْهُ عند الباب طلقتا مُسدّس، لم تُخطِئا الهدف.

قرأ النقيب الرسالة بعد استلامه نبأ مقتل المُخبر. فبعد أن كان وجّه أوامره إلى الرقيب أوّل في بلدة "B" باعتقال ماركيكا، عاد النقيب بيلّودي إلى بلدة "C"، ولأنّه كان مُنهَكاً، فقد توجّه فور الوصول إلى محلّ إقامته. وحين أعلموه بمقتل ديبيلّا، هبط إلى مركز الشرطة، وعثر على رسالة المُخبر ما بين الرسائل الواصلة خلال فترة ما بعد الظهر. وغمره ذلك كلّه بكَمٍّ هائلٍ من الانفعالات.

كان ذلك الرجل يُغادر هذا العالم بوشاية أخيرة، وهي الوشاية الأدقّ والأكثر تفجّراً في حياته. اسمان كُتبا في منتصف الورقة، وتحتهما، على حافّة الورقة تقريباً، رسالة الاستنجاد الأخيرة، التي تولّدت من الاحتضار المخيف الذي عاشه. فقد كانت تلك "الاحترامات" تُثير في النقيب مشاعر متناقضة، امتزج فيها التعاطف الأخوي مع الاستياء المؤلم، شفقةُ مَنْ يجد قلبه على حين غِرّة، عارياً، مستاءً ومتأثّراً بالمأساة، برغم أنّ الواجبَ والمظاهر تُصنّف تلك المشاعر بكونها مرفوضة بالكامل. فبموته، وبنظرته الأخيرة التي ألقاها على الحياة، كان المُخبر قد دنا من النقيب بإفصاحٍ إنساني، كان ذلك الإفصاح مقيتاً كما الوشاية؛ إلّا أنّه، ورغم كلّ شيء، لمس في مشاعر مَنْ وُجّهَت إليه

تلك الوشاية وأفكاره، ردّاً مُفعماً بالشفقة، وبمقدار عالٍ من التعاطف.

ومن هذه الحالة النّفسيّة، انفجر الغضب الجامح. وشعر النقيب بالحزن إزاء العوائق والمُحدّدات التي يفرضها القانون إزاء الخطوات التي ينبغي عليه اتّخاذها؛ وكنوّابه، رؤساء العرفاء ورجاله، حَلُمَ بسلطة مُطلقة، وبحرّيّة استثنائية في الفعل، ورغم أنّه كان دائم الانتقاد لنوّابه على اقتناصهم الحقّ في استخدام تلك السلطات الاستثنائية. حَلُمَ النقيب لبرهة في تعطيل استثنائي ومؤقّت للضمانات الدّستوريّة في صقليّة لبضعة شهور، لأن ذلك قد يُتيح فرصة اقتلاع الشرّ من جذوره. إلّا أنّه وبمجرّد التفكير بالجنرال موري وبالحكم الفاشي، استعاد قَدْراً من التوازن ما بين أفكاره والأحلام التي جالت في ذهنه تلك اللحظة، لو بلغ غضبه أوج الاشتعال، وكان ذاك غضب رجلٍ شمالي، يشمل الأرض الصقليّة بأسرها، فقد تمكّن هذا الإقليم أن يحظى حقّاً بالحرّيّة خلال الحكم الدّيكتاتوريّ الفاشي فحسب، ذلك التحرّر الذي تمثّل في الحصول على الأمان على الحياة والممتلكات. تُرى كم من الحرّيات فَقَدَ الصقليّون من أجل التحرّر من عسف المافيا؟! لم يكن لدى الصقليّين أيّ جوابٌ على ذلك، وربّما لم يكونوا مَعنيين بمعرفته، إلّا أنّه كان هناك ما يكفي ليدفع أيّ إنسان هادئ الطبع إلى أن يستشيط غضباً.

كان الرقيب أوّل يشعر، حينها، بنعاسٍ شديد، بعد أن امتزج لديه الجوع بالإنهاك، فَهَمّ بالتّوجّه لتناوُل فنجانٍ من القهوة، وبينما كان عند مدخل البار، أوقفه نداءُ النقيب الذي كان قد وصل إلى المكان للتوّ، ما أوّلَهُ الرقيب أوّل بسوء الطالع الذي يُلاحقه لأنّه وُلِدَ، بالتأكيد، تحت

نجمة منطفئة، على الأقلّ فيما يختصّ بأواصره مع رؤوسائه. بَلَغَه النقيب عند الباب، واحتسيا فنجاني القهوة معاً، وأصرّ على دَفْع ثمنها، على الرغم من إلحاح الشرطيّ النادل بقبول ضيافته للقهوة للسيد النقيب وللسيد الرقيب الأوّل، لأنّهما شرّفا البار بحضورهما معاً، وفاض الغضب في داخل الرقيب أوّل كفيضان رغوة البيرة المصبوبة في الكأس من علٍ، وانشغل خاطره بقلقٍ من أن يفكّر النقيب "بأنّني آتي إلى هذا البار لاحتساء القهوة بالمجّان".

إلّا أن خاطر النقيب كان منشغلاً بأمور أخرى بعيدة كلّ البُعد عن أفكار الرقيب الأوّل.

كانت جُثة پازّينييدّو ما تزال مسجّاة على رصيف الشارع، وقد غُطّيت بملاءة سماوية اللون، كانت الجثّة منكمشة على نفسها كما الجنين ما قبل لحظة مُغادرة رحم الأمّ، إلّا أنّها، على العكس من الجنين، كانت جُثّة مُغلّفة بظلمة الموت الغامضة. كان پازّينييدّو قد كتب في رسالته إلى النقيب جملة - أنا ميتٌ! - وها هو قد مات على مقربة من باب منزله؛ وكانت تصل إلى الآذان عبر الشبابيك وَلْوَلَة زوجته، وهمس الجارات اللاتي سارعنَ إلى التخفيف عنها ومواساتها. نظر النقيب إلى الجثّة لبُرهة من الوقت، ثمّ أومأ إلى رجاله بأن يُغطّوها من جديد، كان مرآى المَيتين يثير فيه على الدوام اضطراباً عميقاً، وشعر في تلك اللحظة باضطراب أعظم. عاد أدراجه إلى مركز الشرطة، يتبعه الرقيب الأوّل.

كانت خطّته تتلخّص في أن يأمر في الحال باعتقال الشخصَين

اللذَين ضمّن پارّينييدّو اسمَيهما في وشايته الأخيرة، وأن يُخضِعَهما إلى الاستجواب في أوضاع وبأشكال كان قد رسمها بعناية فائقة، على أن يُستجوب كلاً منهما على حدة، وفي الوقت ذاته، الاثنان، ومعهما الثالث الذي قُبِضَ عليه قبل ذلك بقليل. أعرب الرقيب أوّل عن اعتقاده بسهولة استجواب الأوّل، أي، روزاريو پيتسوكو بالشكل الذي رسمه النقيب، أي دون أيّة تداعيات تُذكَر، إلّا أنه أبدى ريبته حول استجواب الشخص الثاني، الذي امتلك المُخبر في لحظة الموت فحسب جسارة الإفصاح عن اسمه، وكان الرقيب أوّل يتكهّن بقَذرٍ من المصائب في هذا الإطار، لأنّه استشعر الحال، من التّطوّر الذي باتت تتخذه الأحداث، بأن كرة المطّاط المتقافزة نزولاً في درجات السّلّم سترتطم في وجهه هو، الرقيب أوّل الأقدم آرتورو فيرليزي، قائد مركز الدَّرَك في بلدة "S"، وتوقّع أن يحدث ذلك في غضون أيّامٍ قليلة للغاية. وفيما كان مندهلاً ممّا يجري، أعلم النقيبَ باحترام شديد عن فكرته حول التداعيات المحتملة. وكان النقيب قد سبقه في تكهّن تلك التداعيات، إلّا أنّه لم يكن هناك أيّ خيارٍ غير ما كان قد استقرّ قراره عليه.

ينبغي ربط الحمار حيث يرغب المالك؛ وبدا للرقيب أوّل فيرليزي بأنّ ذلك الحمار سيُربَط وسط مخزن محتشدٍ بالأواني الخزفية، وسرعان ما سنسمع الضجيج الناتج عن ركلات الحمار، وهو الضجيج الذي سيواصل الناس الحديث عنه لوقتٍ طويل.

- لا أفهم، بل أنا عاجزٌ عن الفَهم حقّاً، شخص في مقامِ دون ماريانو آرينا، رجلٌ من الأشراف، يقضي نهاره ما بين جدران منزله وفناء

الكنيسة؛ رجُلٌ مسنٌ ومصابٌ بعدد من الأمراض والأوجاع، ويحمل على كتفَيه العديد من الصلبان، كيف يُمكن أن يُعتقَل رجلٌ في مقامه مثل حثالات المجرمين، في الوقت الذي نرى فيه، واسمحوا لي أن أتجرّأ على هذا القول، مجرمون كثُر يصولون ويجولون على مرآنا ومسامعنا، وأجرؤ على القول أيضاً، على مرآكم ومسامعكم أنتم أيضاً، أدرك تماماً مقدار ما تبذلونه من جهد، وأثمّن جهدكم بشكلٍ عالٍ، رغمَ أنّني لستُ الشخص الأنسب في تقييمه بالاستحقاق الأفضل.؟!

- ممتنٌ لكم، نبذل ما في وسعنا من جهد، جميعنا، نبذلُ كلّ ما في وسعنا.

- لكنّ ما حدث أمرٌ لا يمكن القبول به، أستميحكم القول .. فعندما يُطرَق باب منزل رجل شريف في عمق الليل، أجل، رجلٌ شريف، ويُسحَب من سريره، رجلٌ مسكين، طاعنٌ في السنّ ومريض، ويُجرجَر إلى السجن كما لو كان مُجرماً، ويتسبّب بالألم والحزن الكبيرَين لعائلة بأسرها، حينها أقول لكم، لا، فهذا الأمر ليس مجرّد فعلٍ بعيد عن الإنسانيّة، بل هو ظُلمٌ حقيقي.

- لكنّ هناك شكوكاً مُثبتة بأنّ.

- أين؟!، وكيف يُمكن عَدّها شكوكاً مُثبتةً؟ افترضوا أنّ شخصاً ما فَقَدَ عقله، يبعث قُصاصات ورقية، كتب عليها اسمي، وأنتم تأتون في عمق الليل، وأنا في هذه السنّ الطاعنة، وتُجرجرونني إلى السجن، دونما أيّ اعتبار لماضيّ كواحد من الأشراف.

- إذا ما أردتُم الحقيقة، فإنّ في ماضي آرينا بعض الشوائب.

- شوائب؟. اسمحوا لي، يا صديقي العزيز، أن أقول لكم، من منطلق كوني صقليّاً ورجلاً، وأستحقّ قَدْراً من ثقتكم، لقد عَصَرَ الجنرال المشهور "موري" الناس هنا، وأسالَ الكثير من دمائهم ودموعهم. وكانت تلك إحدى الخطوات التي أقدمت عليها الفاشيّة، التي من الأفضل عدم استذكارها، ولتعلموا بأنّني لستُ من بين القادحين المُجحفين للفاشيّة، وما تزال بعض الصحف تُطلق عليّ صفة الفاشي. أوَلا تعتقدون بأنّ الفاشية قد احتوت على بعضِ الحسنات مثلاً؟ نعم، كانت هناك حسنات، بالتأكيد. وليس نُباحُ الكلاب الذي يسمّونه بـ "الحرية" إلّا قَذفاً للطين في الهواء، لتلطيخ نصاعة بياض ثياب بعض الأشراف، وتلويث مشاعرهم النّقيّة. لكنْ، لنترك هذا الأمر جانباً. كما قلتُ لكم، فإن الجنرال "موري" حلّ هنا كلعنةٍ من الرب، كان يمرّ ويقطف الثمر الناضج والحامض، كما يقولون؛ كانت لسعاته تلدغ مَنْ تورّط ومَنْ لم يتورّط على الإطلاق، الأوغادَ والأشراف، وكان يفعل ذلك استناداً إلى ما تتمخّض عنه مُخيّلته أو ما تصله من الوشايات والإخباريات الجاسوسيّة. لقد كان حضوره في صقليّة، يا صديقي العزيز، عذاباً متواصلاً للصقلّيّين بأسرهم. ثمّ تأتون أنتم اليوم لتتحدّثوا عن بعض الشوائب! عن أيّةِ شوائب تتحدّثون؟ فلو كنتُم تعرفون ماريانو آرينا كما أعرفه أنا، لما أقدمتُم على الحديث عن شوائب، واسمحوا لي بأن أُعلِمَكم بأنه رجل يَنْدُرُ مثيله، ولا أعني بذلك استقامته وإيمانه، وهاتان الخصلتان قد لا تعنيان لكم شيئاً ما؛ ودون

أيّة رغبة منّي في اعتبار موقفكم ذلك صحيحاً أو خاطئاً؛ فأنا أشدّد على صِدقهِ، على حبّه للمقابل، وعلى حكمته. وصدّقوني بأنّه رجلٌ استثنائي، بكلّ ما تعنيه هذه الكلمة، وأذكّركم بأنّه رجلٌ أمّيٌ، وبعيد كلّ البُعد عن كل ما له صلة بالثقافة، وآمل أنّكم ستتفقون معي على مقدار غلبة طيبة القلب ونقائه على أيّ ثقافة. آمل أنّكم ستتفقون معي في هذا على الأقلّ، فأنْ يُجرجَر رجلٌ مثله كما لو كان مجرماً، يدفعني إلى التفكير بأنّنا عُدنا إلى الزمن الذي كان الجنرال موري يحكم هذه البقاع.

- لكنّ الرأي السائد لدى الناس هو أنّ آرينا أحدُ عرّابي المافيا.

- الرأي السائد. وماذا يعني الرأيُ السائد؟ إنّه ثرثرة في مهبّ الريح، صخب في مهبّ الريح، يحمل افتراءً وقذفاً وانتقاماً حقيراً. ثمّ فَسّر لي ما هي المافيا؟. أوَلَيسَ الحديث حتّى عن هذه المافيا إلّا ثرثرةً في الهواء، ثمّة مَنْ يتحدّثون عنها، لكنْ، لا أحدَ تمكّن، حتّى الآن، من تحديد مكان وجودها. صخب وضوضاء غامضان، يرعدان في الرؤوس الضعيفة، وأستميحكم الإذن للقول. هل تعلمون ما الذي كان يقوله "فيتّوريو إيمانويلي أورلاندو(52)"؟ أوردُ لكم كلماته، وهي ذات أهمّيّة خاصّة، كونى أنا مَنْ يوردها، أنا البعيد بالمطلق عن أفكاره. كان يقول.

- لكنّ المافيا موجودةٌ، على الأقلّ، في بعض مظاهرها التي لمسْتُها أنا بنفسي.

- يؤلمني ما تقولون، يا ولدي، يؤلمني حقّاً، أشعر بالألم كصقلّي،

وكإنسانٍ منطقي، كما أعدّ نفسي. يؤلمني لما أمثّله، بكل تواضع، دون أيّ استغلال لموقعي بالطبع، لكنّي، وأنا الصقلّي والإنسان المنطقي. إنّ ذلك الصقلّيَ، ورجل المنطق الذي فيّ، إنّما يتمرّد إزاء هذا الحيف ضدّ صقليّة، وإزاء الإهانة للمنطق. ومع هذا. أخبروني أنتم أبالإمكان القبول بفكرة تواجد جمعيةٍ إجرامية بالتنظيم وبالسريّة التي تُوصف بهما المافيا، وتُمكّنها تلك السريّة وبالسطوة التي تملكها من فرض الهيمنة، ليس على نصف جزيرة صقليّة، بل حتّى على جزءٍ من الولايات المتّحدة الأمريكية، وهل يُعقَل أن يتسيّد على رأس هذه الجمعية شخصٌ يسكن هنا، في صقليّة بالذات؛ يزوره الصحفيّون، وتعرضه الصحف كرجلٍ مسكينٍ وملفّعٍ بالغموض.؟! هل تعرفون أنتم ذلك الشخص؟! أنا أعرفه، إنّه رجلٌ طيّب القلب وربّ أسرةٍ مثالي، وهو رجلٌ عاش من عَرَق جبينه، وعَمِلَ طوال حياته. لقد أثرى، نعم، هو ثريّ، لكنّ ذلك كلّه من عَرَق جبينه. هو أيضاً، كباقي الصقلّيين، واجه المتاعب مع الجنرال موري. ثمّة رجالٌ محترمون، استعانوا بقِيَمِهم وبمعارفهم، للنهوض من جديد، والاعتماد على الذات، وللإعادة السريعة لإعمار أواصر المحبّة والصداقة مع الآخرين؛ أمّا ما تسمّونه أنتم بـ "الرأي السائد"، فهو ليس إلّا عاصفة الافتراءات التي انطلقت صارخةً "ها هم رؤوس المافيا."، وهناك ثمّة ما لا تعرفونه أنتم، لدى هؤلاء الرجال، الذين يتّهمهم "الرأي السائد"، بكونهم رؤوساً للمافيا، صفة أتمنّاها موجودة في البشر كلّهم، وهي صفة تُبرّئُ الإنسان من أيّة خطيئة في مواجهة الربّ، وتلك هي خصلة الإحساس بالعدالة. فهي لديهم خصلةٌ غريزيّة وطبيعية، وهي هبة ربّانيّة، وهذه الخصلة هي ما تجعل منهم

موضع احترام الآخرين.

- وهذا هو بالذات جوهر القضيّة، فإدارة العدالة هي من مهمّات الدولة، وليس بالإمكان القبول بأنّ...

- أنا أتحدّث عن مغزى العدالة، وليس عن مهمّة إدارة العدالة .. وأضيف أيضاً، افترض أنّنا، أنتَ وأنا، نتخاصم الآن حول قطعة أرض، أو على ميراث أو دَينٍ ما؛ ثمّ يأتي شخص ثالث يحاول التوفيق، ويَحُلّ الإشكال القائم بيننا. فهو، هذا الشخص الثالث، يُدير بشكلٍ من الأشكال، العدالة، فيما بيننا، لكنْ، هل تعرف ما الذي كان سيحدث أمام "عدالتكم"، لو أنّنا واصلنا العراك فيما بيننا؟ الخصام سيستمرّ لسنين طويلة، ولربّما، يدفع الغضب وفقدان الأمل أحدنا، أو كلَينا صوب العنف. لذا لا أعتقد بأنّ الأمور ستصل برجلٍ مسالم أو بأيّ إنسانٍ يسعى إلى تحقيق الوئام بين الناس، إلى حدّ استغلال إدارة العدالة التي هي في قبضة الدولة، وبالطبع أعوذ بالربّ. أعتقد أنّ من حقّ ...

- إذا ما وضعنا الأمور على هذا المستوى.

- على أيّ مستوى تريدون وضع الأمور؟ على المستوى ذاته الذي وضعه زميلكم ذاك، الذي ألّف كتاباً عن المافيا؟! اسمحوا لي أن أعدّ ذلك الكتاب من صنع الخيال، ولم أكن لأترقّبه من رجل على هذا المقدار من المسؤولية.

- بقدر ما يتعلّق الأمر بي، كانت قراءة ذلك الكتاب في غاية الأهميّة والتوضيح.

- لا بأس إذا كنتم تعنون بأنكم اطّلعتم على أشياء جديدة، لكنّ الأمر مُغايرٌ إذا ما أردنا الحديث عن الموضوع الذي يتناوله ذلك الكتاب. على أيّة حال، دعونا نضع الأمور على مستوى آخر، هل حدث أنْ انعقدت محكمة وصدر عنها قرارُ حكمٍ، يؤكّد وجود جمعية إجرامية، اسمها المافيا؟ وهل حدثَ أنْ اتُّهمت هذه الجمعية بتنفيذ جريمة ما؟ وهل تمّ العثور على وثيقة، أو شهادة، أو أيّ مُثبت جرمي يؤكّد وجود روابط ما بين فعلٍ إجرامي معيّن وما يُسمّونه بـ "المافيا"؟، ولذا، وفي ظلّ غياب أيّة رابطة إجراميّة من هذا النوع، وبافتراض أنّ المافيا موجودةٌ بالفعل، فإنّ بإمكاني أن أقول لكم، بأنّها، أي المافيا، جمعية سريّة للتكافل المشترك، وهي في ذلك لا تقلّ ولا تزيد عن الماسونيّة(53)، فلماذا إذاً لا تتّهمون الماسونية بهذا النوع من الجرائم؟ هناك أدلّة وبراهين بأنّ الماسونيّة اقترفت أعمالاً إجرامية لا تقلّ عن تلك التي تُتّهم بها المافيا.

- أنا واثق.

- ثِقوا بي، حتى إذا افترضتم بأنّني أحاول خداعكم، فالربّ وحده يعلم إنْ كنتُ أسعى لخداعكم. أقول لكم، لو أنّكم، وضمن السلطات التي تُمسكونها في أيديكم، أردتم توجيه. كيف لي أن أُعبّر عن ذلك؟ إذا ما وجّهتم اهتمامكم صوب مَنْ يعدّه أصحاب "الرأي السائد" منتمياً إلى المافيا، لمجرّد أن الآخرين يعدّونه مافيوياً، دونما أيّة أدلّة ملموسة حول وجود المافيا أو حول انتماء الأشخاص إليها، حسنٌ، أقول لكم بأنّكم هكذا تقترفون أمام الربّ فعلاً ظالماً. وهو فعلٌ ظالم بالذات

فيما يتعلّق بقضية دون ماريانو آرينا. واسمحوا لي أن أعتبر الطريقة التي استخدمها هذا الضابط في اعتقاله، بأنّها طريقة لا تليق بتاريخ القوّة التي ينتمي إليها(54). ولوصف ذلك الضابط بإمكاني استخدام كلمات المؤرّخ اللاتيني "زفيتونيو"(55)، الذي يصف مَنْ مثله بأنّه "لا يتورّع حتّى عن ملاحقة الأشراف من بين المواطنين."، وبمعنى آخر، فإنّ دون ماريانو آرينا رجلٌ يحظى بحبّ بلدٍ بأسره، وبأنّه من بين مَن اصطفيتُهم أنا صديقاً، وآمل أن تُدركوا بأنّ لدي حصافةً وفراسةً ما في اختيار الأصدقاء، ناهيكَ عن كونه من بين المقرّبين من البرلماني ليفيتّي والوزير مانكوزو.

كانت ساعات التوقيف الأربع والعشرون بالنسبة لماركيكا قد انتهت للتوّ، وكانت على وشك الانتهاء بالنسبة لآرينا وبيتسوكو، وما إن حلّت الساعة التاسعة حتّى بدأ ماركيكا بالطَّرق العنيف على باب زنزانة التوقيف مُطالِباً باحترام حقوقه القانونيّة، وهي ما كان يعرفها بشكلٍ جيّد، فأخبره الرقيب أوّل بأنّ وكيل النيابة أصدر قراراً يُمدِّد به فترة التوقيف لأربع وعشرين ساعةً أخرى، ولمجرّد اطمئنانه على شكليات حقوقه القانونية استعاد ماركيكا هدوءه المعتاد، دون أن يُعير أدنى اهتمام إلى مضامين تلك الحقوق، وكانت تلك المضامين تتلخّص بالمصطبة الخشبية التي عاد ليستلقي عليها مُجدّداً، مُبدياً قَذراً من الابتهاج الذي أبداه كما لو كانت شهوةٍ نزقة. عاد الرقيب أوّل إلى مكتبه وهو مُستغربٌ من كيفية إدراك ماركيكا لحلول التاسعة بالضبط للبدء باعتراضاته ومطالباته، لم يكن يحمل بمعصمه أيّة ساعة، فقد كانت

ساعته محفوظة في علبة الأمانات التي صودرت منه لحظة دخوله زنزانة التوقيف، ومعها محفظته وربطة عنقه ورباط حذاءَيه.

في العاشرة ليلاً دعا الرقيب أوّل ماركيكا إلى الاستيقاظ من نومه، وأعاد إليه ممتلكاته المُصادَرة، فاعتقد الرجل بأن الشرطة قرّرت إخلاء سبيله، ما أذاب في الحال ركام النعاس الذي غلّف وجهه غير الحليق، وأزال عنه القلق، وانطبعت على وجهه ابتسامة مَن يشعر بأنّه حقّق انتصاراً. إلّا أنّه وجد عند بوّابة مركز الشرطة سيّارة تابعة للشرطة، دفعه الرقيب أوّل داخلها، وأجلسه في المقعد الخلفي إلى جوار الشرطيّ الذي كان جالساً داخل السيّارة من قبل، ودخل شرطي آخر إلى المقعد الخلفي لسيّارة الفيات 600 بعد دخول ماركيكا. اعترض الموقوف على الزحام في المقاعد الخلفية في السيّارة، وذكّر بقوانين المرور(56)، ولأن الرقيب الأوّل، الذي كان قد ركب السيّارة من جانب القيادة، قد اندهش من مطالبة ماركيكا تلك، فقد اضطُرّ إلى الرّدّ عليه بلطف غير معهود قائلاً - لا ضير، فأنتم الثلاثة على قَدر جيّد من الرشاقة -.

في بلدة "C"، كانت زنازين التوقيف قد انغلقت على پيتسوكو وآرينا. وكان النقيب قد فكّر بإبقائهما لنهار كامل، يترقّبان مصيرَيهما كما لو أنهما يُطبَخان على نار هادئة، لأنّ ذلك سيُتيح له الحصول على نتائج أفضل في التحقيق، فقد كان يوم وليلة من الانزعاج والشكوك التي تدور في خلدَيهما، فترة كافية لتترك على الرجلَين تأثيراتها.

بدأ التحقيق مع ماركيكا.

كان مبنى قيادة الشرطة يقوم داخل دَير قديم، شُيّد على أساساتِ بناء مستطيل، بصفَّين من الغرف على جوانب كلّ ضلع من أضلاع المبنى، وكانت شبابيك الغرف الداخليّة للمبنى تُطلّ على الباحة، فيما أطلّت شبابيك الغرف الخارجية على الشوارع المحيطة بالمبنى، وفي وقت لاحق، أُضيف إلى هذا المبنى، متناسق البناء والتصميم، جناحٌ جديد، شُيّد استجابة لاحتياجات رئيس الوزراء الصقلّي فرانتشيسكو كرسيبي(57). وقد كان شكلُ الجناح الجديد سمجاً وقلق التصميم وبعيداً كلّ البُعد عن الشكل المتناسق للمبنى القديم، وبدا المبنى الجديد كرسم طفلٍ أراد تقليد تصميم معماري كبير، فبدلاً من الباحة الواسعة وفضائها المفتوح، كان هناك فضاءٌ ضيّق، يُتيح بالكاد وصول الضوء إلى أجزاء المبنى السُفليّة، وكان هناك سُلّم حجري يربط ما بين المَبنَيين. إلّا أنّه كانت لهذا المبنى فضيلة واحدة، وهي توفير غرفٍ أوسع مساحةً من غرف المبنى القديم، وفيما كانت غُرف الطابق الأوّل مستخدمة لمكاتب الإدارة، فقد خُصّص الطابق الثاني بكامله لسُكنى قائد الفرقة.

كان مكتب القائد مُجهّزاً بنافذة واسعة تُطلّ على باحة المبنى الجديد، وفي مقابل ذلك المكتب مباشرة كان مكتب الملازم، وكانت الغرفتان منفصلَتَين بمسافة تُتيح للمتواجدين فيهما تسليم واستلام الأوراق من هذا المكتب إلى ذاك.

وبسبب الموقع الذي وُضِعت فيه طاولة القائد داخل المكتب، فقد وجد ماركيكا نفسه جالساً بمواجهة النافذة، فيما كان باب الغرفة على

يمينه.

- أنتَ وُلدت في بلدة "B"؟ - توجّه النقيب بالسؤال إلى ماركيكا.

- نعم، يا سيّدي - أجاب ماركيكا بنبرة شخصٍ منزعج، يتحمّل حيفاً، يُقترف تجاهه.

- وعشتَ في بلدة "B" على الدوام؟

- ليس على الدوام، لقد أدّيتُ الخدمة العسكريّة، وأودِعْتُ السجن لبضع سنين.

- بإمكاني أنْ أتخيّل بأنّكَ تعرف الكثيرين من سكّان بلدة "B".

- إنّها بلدتي، لكنْ، في بعض الأحيان، يحدثُ، كما يمكنكَ أن تتصوّر، أنْ تغيب عن البلدة لبضع سنين، ومن ثمّ تعود لتجد مَنْ كان طفلاً قد أمسى شابّاً، وتجد الطاعنين في السنّ أكثر شيخوخة. ناهيكَ عن النساء، تتركهنّ وهنّ يلعبنَ في الشارع بالخرزات، وحين تعود بعد تلك السنين تجدهنّ برفقة أطفال، تعلّقوا بأرديتهنّ، أو ربّما ترى أجسادهنّ قد تحوّرت.

- لكنْ، مَنْ كانوا في أعمارنا نفسها ومَنْ تشاركنا معهم في اللعب صغاراً، أولئك، لا يصعب التعرّف إليهم رغم سني الغياب عن البلدة، أليس كذلك؟

- بالتأكيد - ردّ ماركيكا فيما كان قد بدأ شعور بالقلق يساوره بسبب الهدوء الذي كان النقيب يطرح فيه أسئلة الاستجواب، أكثر من شعوره

بالقلق ذاته حول فحوى الاستجواب.

صمت النقيب لبُرهة، كما لو أنّه انشغل، على حين غِرّة، ببعض الأفكار التي تجول في خاطره. كان ماركيكا ينظر إلى المكتب الآخر عبر النافذة قبالته، كانت الغرفة فارغة ومُضاءة، وكان النقيب قد اعتنى بأن يُضاءَ في غرفته مصباحٌ واحدٌ فحسب، وكان ذلك هو آباجور الطاولة، الذي أداره بشكل يتمكّن فيه الشرطيّ كاتب المحضر من مشاهدة ما يكتب؛ ولذا فقد كان مَرآى الغرفة المقابلة واضحاً بجلاء لعيني ماركيكا.

- وأنتَ، بالتأكيد كنتَ تعرف پاولو نيكولوزي بشكل جيّد.؟!

- كلّا - أجاب ماركيكا على عجل.

- مستحيل أنّكَ لا تعرفه - قال النقيب - ربّما يصعب الآن عليكَ تذكّره، وذلك لأنّ نيكولوزي كان قد انتقل من بلدة "B" منذ بضع سنين؛ لكنّي سأحاول إنعاش ذاكرتكَ. كان نيكولوزي يسكن في شارع جوستي الذي يتقاطع مع شارع مونتي، حيث أقمتَ أنتَ على الدوام، إنْ لم أخطئ. كان والده مالكاً لقطعة صغيرة من الأرض، إلّا أنّه مارس، بالأساس، عمل مُشذِّبٍ ومُقلِّم للأشجار، وهو العمل الذي ورثه عنه ابنه، الذي يُقيم الآن في بلدة "S"، حيث تزوّج هناك.

- يبدو لي الآن، وأنتَ تذكر هذه المعلومات كلّها، بأنّني أتذكّره بشكلٍ ما.

- آه، أنا سعيدٌ بذلك. ثمّ إنّه ليس من العسير تذكّر بعض الأمور، وبعض الناس، بالذات عندما يكون ذلك مرتبطاً بأسعد الأوقات في

حياتنا، أي الطفولة.

- كنّا نلعب معاً، أتذكّر الآن، لكنّه كان يصغرني قليلاً؛ وعندما دخلت السجن للمرّة الأولى في حياتي، وكنتُ مظلوماً بحقّ الربّ والمقدّسات، كان هو ما يزال صبياً صغيراً؛ ولم أرهُ بعد ذلك أبداً.

- وكيف هو؟ أعني في قسمات وجهه وفي بنيانه؟

- إنّ له بُنيان جسدي نفسه، أشقر الشّعر، وعيناه زرقاوان.

وله شاربان - قال النقيب بثقة كاملة.

كان له شاربان - قال ماركيكا - قبل.

قبل ماذا؟

قبل أن يحلقهما.

وإذاً، فقد رأيتَهُ وهو ما يزال بشاربَيه، ورأيتَهُ من جديد عندما حلق شاربَيه.؟!

ربّما اختلط الأمر عليَ. فإذا أمعنتُ التفكير جيّداً، فأنا أتخبّط في فوضى الذكريات.

كلّا - طمأنه النقيب - أنت تتذكّر الأمور بشكلٍ جيّد، فقد كان لنيكولوزي شاربان قبل الزواج، ومن ثمّ أزالهما، ربّما لأنّ زوجته لم تكن مُعجبة بالشاربَين. ولذا لا بدّ أنّكَ التقيتَهُ في بلدة "B"؛ لا أدري إنْ كان ذلك قد حدث في الفترة الأخيرة، أي منذ أن أُطلق سراحكَ من السجن

بسبب العفو العامّ، أم لأنّ نيكولوزي نفسه جاء إلى بلدة "B"؟ ربّما. أم ربّما التقيتَه في بلدة "S"؟

أنا لم أذهب إلى بلدة "S" منذ سنين.

غريب - قال النقيب كما لو أنّ قلقاً مفاجِئاً قد اعتراه - غريبٌ حقّاً، فنيكولوزي نفسه هو مَنْ أكّد بأنّه التقاكَ في بلدة "S". ولا أفهم السبب الذي يدعوه إلى الكذب بشأن هذا الأمر!

لم يعد ماركيكا قادراً على فَهم أيّ شيء، وكان النقيب يحدّق فيه ليكتشف مقدار المخَاض الذي يعتلج داخل رأسه، فقد كان عقله يصعد ويهبط متحرّكاً مثل كلب تُرِك تحت لافح شمس الصيف، وتتقاطع في ذهنه في تلك اللحظة جمهرةٌ من الاحتمالات والشكوك والريب المنفتحة على احتمالات يحاول التوقّف عندها قبل الانحدار إلى القاع.

وفُتِحَ باب مكتب النقيب، فاستدار ماركيكا بشكل غريزي، ليُحدّق بالقادم، توقّف رئيس عرفاء الدَّرَك في بلدة "S" عند الباب، أدّى التحيّة للنقيب، وقال - وأخيراً قرّر - وكان پيتسوكو يقف خلف ظهره، مُشعث الشَّعْر، وبقميص مفتوح الأزرار. وبإشارة من النقيب انسحب الرقيب أوّل مُغلِقاً باب المكتب وراءه بسرعة. حينها شعر ماركيكا بنفسه يغرق في لُجّة بحر من الفزع، فقد اعتقد بأنّ پيتسوكو لم يتحمّل الجَلْدَ، وبأنّه أبدى استعداده للتغريد(58). (في حين كان پيتسوكو قد أوقظ من نومه في تلك اللحظة بالذات، كان ذهنه ممزّقاً بأحلام مُقلقة، ولم يكن جسده مُشبَعاً بجَلْداتِ سياط). وشاهد ماركيكا في ضياء الغرفة

المقابلة المُنار دخول پيتسوكو، والرقيب أوّل وضابطاً برتبة ملازم، ولمجرّد جلوس الجميع، توجّه الملازم إلى پيتسوكو بسؤال قصير، فبدأ پيتسوكو بالكلام المتواصل دونما توقّف، ولم يكن الرقيب أوّل يتوقّف عن الكتابة في المحضر. كان الملازم قد سأل پيتسوكو عن نوعية حياته، وعن مصادر دَخْله، فأدلق پيتسوكو على الطاولة مجمل حياته الشريفة الخالية من أيّة شوائب، ما تسبّب بعملٍ مُضنٍ وشاق للرقيب أوّل فيرليزي لتدوين ذلك كلّه في المحضر. إلّا أنّ ماركيكا شعر بأنّه يستمع في داخله إلى صوت پيتسوكو وهو يروي حكاية سبعاً وعشرين سنة قادمَة من السجن، في أفضل الأحوال. سبعة وعشرون عاماً طوال في سجن أوتشاردوني(59) ، حتّى الربّ نفسه كان سيعجز عن إزالتها عن كاهلَي دييغو ماركيكا.

- لكن، ما الداعي - تساءل النقيب - ما الداعي إلى الكذب بشأن هذا الأمر؟ لا أعني بأنّكَ أنتَ مَنْ يكذب، بل أعني نيكولوزي، أي سبب يدعوه إلى تأكيد أمر غير جوهري، مثل هذا، مثل هذا الأمر البليد؟

- ليس بإمكانه تأكيد ذلك - قال ماركيكا باقتضاب.

- ولِمَ لا؟

- لأنّه. ليس بإمكانه تأكيد ذلك.

- ربّما لأنّكَ تعتقد، بفضل ما لديكَ من معلومات، بأنّ نيكولوزي قد مات.

- سيّان عندي، سواء مات أم ما زال حياً.

- لكن، لا، أنتَ على حق. فنيكولوزي مات فعلاً.

وظهر واضحاً بأنّ ماركيكا شعر بقَدر من الارتياح عند سماعه هذا النبأ من الضابط، وكان هذا مؤشّراً على أنّه كان ما يزال يحتفظ بهامش من الشكوك حول موت نيكولوزي، وقد أزال النقيب هذا الهامش الآن. وتوضّح في الحال أيضاً بأنّ ماركيكا لم يكن الشخص الذي أقدم على اغتيال نيكولوزي. (في الجانب الآخر من المبنى كان ﭙيتسوكو يواصل التغريد، "أيّها القوّاد، يا شبه رجلٍ لا يساوي أربعة قروش، يا ابن القحبة، جعلوكَ تُغرّد بعد أربع جَلْدَات من السياط، وبدأت بتقيُّؤ كلّ شيء على الطاولة؛ ستدفع ثمن ذلك، وسواء أحدث ذلك بيَدَي أو بأيدي آخرين، فإنّكَ ستدفع الثمن.").

- نعم - قال النقيب - لقد مات نيكولوزي، لكن، كما تعلم، فإنّ الموتى يكونون، في بعض الأحوال، أكثر فصاحة من الأحياء.

- الموتى يُفصِحُون لمَن يجلسون حول الطاولة ذات السيقان الثلاثة - قال دييغو ماركيكا باستهجان(60).

- كلّا، الموتى يتكلّمون ويُفصِحون ببساطة، لكونهم يُسطّرون قبل الموت بعض الأسماء. ونيكولوزي امتلك الفراسة الكاملة في أن يُسطّر على ورقة اسمكَ وكُنيتكَ دييغو ماركيكا المعروف بـ زِكّينيتا من بلدة "S"، كان في الساعة تلك، وفي ذلك المكان. رسالة صغيرة، بتحصيل الحاصل، وإذا أخذنا في الاعتبار بأن نيكولوزي قد مات، فإن القضاة

سيعدّون هذه الورقة أهمّ بكثير من الشهادة التي كان سيدلي بها في المحكمة، لو أنّه كان ما يزال على قيد الحياة. يا له من خطإٍ فادح ذلك الذي اقترفْتَهُ. لقد ترك نيكولوزي هذه الرسالة القصيرة لدى زوجته، وطلب منها أن تُسلّمها إلينا في حال تعرّضه إلى أيّ مكروه. أنا واثقٌ من أنّه لم يكن ليَجرؤ على الإدلاء بشهادة حول ما حدث أمام ناظرَيه، لو أنّكَ تركتَهُ على قيد الحياة. لقد كانت عملية قَتْله خطأً فادحاً.

في المكتب المواجه، كان پيتسوكو قد انتهى من الإدلاء بإفاداته، رتّب الرقيب أوّل أوراق المحضر، واقترب منه، ليجعله يُذيّل الأوراق، واحدة بعد الأخرى، بتوقيعه، على إفادة العار تلك. ثمّ خرج الرقيب أوّل من الغرفة، وما هي إلّا لحظات حتّى دخل إلى مكتب النقيب حاملاً إليه الأوراق. كان العَرَق يسيل من ماركيكا في تلك اللحظة، كما لو كان دماً نازفاً يقوده إلى الموت.

- لا أدري - قال النقيب - ما هو رأيكَ، بروزاريو پيتسوكو.؟

- إنّه عبارة عن إسفنجة ملأى بالخزي - أجاب دييغو ماركيكا.

- لم أكن لأصدّقَ ذلك على الإطلاق، فكلانا مُتّفقان على هذا الرأي. لأنّني، أعتقد، بأنّ الخائن، بالنسبة إليكم أنتم الصقلّيون، هو ذلك الذي يقترف أمراً مُخزياً، وذلك بالإفشاء ببعض الأمور التي من العدل معاقبتها بالقانون، لكنّ، ما كان عليه أن يُفصح عنها. نحن مُتّفقان، لقد اقترف پيتسوكو فعلاً مُخزياً حقّاً. هل ترغب في الاستماع إلى ما أدلى به؟ اقرأ - قال للشرطي كاتب المحضر وهو يُسلّمه الأوراق التي

أحضرها إليه الرقيب الأوّل. أشعل سيجارة، وبقي واقفاً في مكانه يُراقب بحدَقَتين ثابتَتين دييغو ماركيكا الذي كان يتصبّب عَرَقاً، ويتنهّد غاضباً بصمت.

كان المحضر مُزيّفاً وقد أعدّ سلفاً بعناية فائقة، وكان يُفيد بأنّ روزاريو پيتسوكو قد حضر إلى مركز الشرطة طوعاً ("بعد جَلْدِه بالسياط" كان يُفكّر دييغو ماركيكا)، وأدلى باعترافاته مؤكّداً بأنّه التقى دييغو ماركيكا قبل وقت قصير، وأعلمهُ بإساءات تلقّاها من كولاسبيرنا، وعرض ماركيكا خدماته للانتقام؛ لكنْ، وبما أنّه رجلٌ ذو قِيمٍ أخلاقيّة رفيعة، ورافض للعنف وبعيد كل البُعد عن نزعة الانتقام، فقد رفض روزاريو پيتسوكو ذلك العرض. وأصرّ المَدعوّ ماركيكا على عرضه مُوبِّخاً إيّاه عن الموقف المُعيب الذي يتّخذه إزاء كولاسبيرنا هذا، وأضاف بأنّه كان يعرف بشكلٍ مؤكّد بأنّ لدى دييغو ماركيكا مشاعر غضب وحقد إزاء كولاسبيرنا، بسبب رفض الأخير دَفْع أموال له أو بسبب عملٍ مرفوض. ورغم عدم تأكّده من الأسباب، فإنّ پيتسوكو كان على ثقةٍ من أنّ ماركيكا سيعمد، في يومٍ من الأيّام، إلى "إطفاء" شمعة المَدعوّ كولاسبيرنا، وهو ما يعني أنّه كان سيُطفِئ حياته، بالضبط كما تُطفأ شمعة. وقد أقدم على ذلك دونما أدنى شكّ. وكان پيتسوكو التقى بالصدفة بماركيكا في بلدة "B" بعد أيّام من اغتيال كولاسبيرنا، حيث أسرّ إليه دييغو ماركيكا، دون أن يُطلب منه ذلك بشكل مباشر، باعترافه الخطير، بكلماته - "لقد رحلتُ لأطفئ واحداً، فاضطُررتُ لإطفاء اثنَين" -، وهو ما كان يعني، بلغة ماركيكا الإجراميّة، بأنه أقدم

على اقتراف الجريمَتين، إحداها ضدّ شخص كولاسبيونا، أمّا الأخرى، والذي تدور الشكوك حولها، ضدّ شخص نيكولوزي، الذي كان متوارياً عن الأنظار منذُ أيّام. ويقول پيتسوكو بأنّه شعر برعبٍ كبير إزاء هذا الاعتراف الخطير، وعاد إلى منزله شاعراً باضطراب شديد. وبطبيعة الحال، لم يتحدّث في الأمر مع أيّ كائن، لأنّه وضع في اعتباره الطبيعة العنيفة لماركيكا، وقد كان يشعر بالخوف على حياته. ولدى سؤاله عن السبب الذي دفع ماركيكا إلى الإفصاح له عن هذا السّرّ الخطير، أجاب پيتسوكو بأنّ ماركيكا، الذي غاب عن المنطقة منذ وقت طويل، اعتَقَدَ أنّ بإمكانه الوثوق به بسبب بعض شطحات الشباب، والتي اعتقد بأنّها كانت شبيهة بشطحاته، ففي الفترة المضطربة التي سادت فيها توجّهات الحركة الانفصاليّة الصقليّة، ساهم الاثنان معاً في عضوية تنظيم "ESIV"، وفيما كان پيتسوكو مدفوعاً إلى الانتساب إلى تلك الحركة لأسباب مبدئية، فإن انتساب دييغو ماركيكا كانت لأسباب إجرامية. وردّاً أيضاً على سؤالٍ حول ما إذا كان بالإمكان تشخيص مسؤوليات أُناسٍ آخرين يمكن أن يحظى ماركيكا بدعمهم، أو يمكن عَدّهم مُحرّضين ومُكلّفين لتنفيذ الجريمَتين، أجاب المَدعوّ پيتسوكو بأنّ لا علم لديه في هذا الإطار، وهو على قناعة مُطلقة، في رأيه الشخصي، بعدم وجود مَنْ يقف وراءه، وبأنّه يُلخّص أسباب الجريمة في الشخصيّة العنفية التي تَسِم ماركيكا، وفي ميله الطاغي لارتكاب الجرائم بحق حياة الأشخاص وممتلكاتهم، ولم يبخل ماركيكا أبداً في توفير الأدلّة القاطعة على ذلك الميل على الدوام.

كان ذلك المحضر تلفيقاً حقيقياً نُفِّذ ببراعة مُطلقة، وما ورد فيه كان مُطابقاً بشكل كبير لما يُمكن أن يُدلي به شخص مثل پيتسوكو، وقد وُلِدَتْ الوثيقة من تعاون وطيد ما بين ثلاثة من رؤساء العرفاء، وكانت الضربة المُحكمة الأخيرة التي احتواها التقرير المُلفَّق تكمن في نفي پيتسوكو القاطع في أن يكون وراء الجريمة أشخاص حرّضوا باتّجاه تنفيذ عمليّتي الاغتيال. لأنّ ورود اسم ماريانو آرينا في ذلك المحضر المُلفّق كان سيكشف زيفه في الحال، وكان ورود أيّةُ نغمة نشاز أو أيّ تفصيل لامعقول سينسف في داخل ماركيكا الاقتناع بصحّة ما كان يستمع إليه مقروءاً، فقد قلب پيتسوكو الصورة رأساً على عقب بإلقاء جميع الذنوب والخطايا على كاهل ماركيكا لوحده، ورفض بشكل مطلق فكرة وجود مَنْ حرّض على تنفيذ الجريمة، ما تسبّب في غرق ماركيكا في حزن وقلق كبيرَين، لأنّه اقتنع بأنّ ما كان يُقرأ عليه في تلك اللحظة عبارةٌ عن اعترافات فعلية، أدلى بها پيتسوكو إلى الملازم والرقيب الأوّل، أو بالأحرى، لم يخامره أيّ شكٍّ، حتّى ولو للحظة واحدة، بأنّ ما استمع إليه من صوت نائب العريف، كاتب المحضر، كان بمثابة المؤثّر الصوتي للصور التي مرّت أمامه في الغرفة المقابلة، وكان هو شاهدَ عيان عليها.

كان دييغو ماركيكا مُضطرباً وقد أعشى الغضب والحقد ناظرَيه، ولو أنّه تمكّن في تلك اللحظة من وَضع يده على رجل مثل پيتسوكو لم يكن لذلك الرجل أن يخرج حَيّاً من براثنه، إذ كان سيُطفِئ حياته بالتأكيد.

بعد لحظات طويلة من الصمت، وبما أنّ الأمور سارت على هذه الشاكلة، لم يبقَ أمام ماركيكا إلّا الخيار الذي اصطفاه "شمشون" حين هدّم المعبد على رؤوس مَنْ فيه، قائلاً - إنْ كان على "شمشون" أن يموت، فليمت كلُّ مَنْ في المعبد من أصدقائه(61)، وأعاد ترتيب الأحداث كما وقعت بالفعل، وليس كما رواها ذلك الكلب الأبلق.

وقد كان هناك لقاءٌ بالفعل، حدث اللقاء الأوّل مع پيتسوكو في بلدة "B" بعد سنين طويلة، وكان ذلك أوائل شهر ديسمبر من العام الماضي، إذْ عرض عليه پيتسوكو فكرة اغتيال كولاسبيرنا الذي، كما أبلغه پيتسوكو، وجّه إليه إهانة شديدة. وكان پيتسوكو سيدفع مقابل تلك الجريمة مكافأةً بمبلغ ثلاثمائة ألف ليرة، إلّا أنّ ماركيكا، الذي كان قد غادر السجن منذ وقت قصير، وكان راغباً في قضاء بضعة شهورٍ، يتنعّم خلالها بعبق الحريّة، رفض ذلك العرض، مؤكّداً بأنّه لا يمتلك القدرة على الإقدام على تلك الجريمة. وبما أنّه كان بحاجة إلى المال، فقد استغلّ پيتسوكو ذلك، وألحّ عليه لقبول المقترح، مُلمّحاً له بإمكان الحصول على نصف المبلغ الذي كان خصّصه لتلك الجريمة كعربون مُقدّم، على أن يدفع له النصف الآخر على الفور بعد تنفيذ العملية، وضامناً له العمل كحارس لأرضه الزّراعيّة، فما كان من ماركيكا إلّا وانصاع لفكرة تنفيذ المهمّة، لأنّه، ومن الضّروريّ التأكيد على ذلك، كان محتاجاً إلى ذلك المال، وكانت حاجته إلى المال فظيعة للغاية. لذا فقد تمّ الاتّفاق مع پيتسوكو على الطريقة التي سيتمّ فيها تنفيذ عملية الاغتيال، والذي أعرب، أي پيتسوكو، عن استعداده للإسهام في

الإعداد للعملية، وذلك بتوفير السلاح له في منزله الريفيّ، وهو المنزل الذي كان يُفترَض أن يمكث فيه ماركيكا خلال الليلة التي سبقت تنفيذ العمليّة. وكان على ماركيكا أن يسير من ذلك المنزل الريفيّ إلى البلدة التي لم تكن تبعد كثيراً. وكان على ماركيكا الالتزام بمخطّط كامل، وأن يكمن في زاوية شارع كاڤور في الساعة التي تستعدّ فيها حافلة نقل الركّاب، للانطلاق إلى پاليرمو. وبعد تنفيذ العملية كان ينبغي على ماركيكا أن يغادر المكان فارّاً عبر شارع كاڤور، ليعود إلى المنزل الريفيّ، وأن ينتظر وصول پيتسوكو بسيّارته، ليرافقه في الحال إلى بلدة "B".

وقد ذهب المَدعوّ ماركيكا إلى بلدة "S" في اليوم السابق للجريمة ليتعرّف على المكان الذي سيُنفّذ فيه فعلته، وليكون قادراً على التعرّف على ملامح كولاسبيرنا بشكل لا يترك مجالاً للشكوك. وقد حدّد المَدعوّ پيتسوكو بنفسه موعد تنفيذ الجريمة.

ففي الساعة السادسة والنصف من صباح السادس عشر من يناير أقدم المَدعوّ ماركيكا على اغتيال سلفاتوري كولاسبيرنا، وقد نفّذ الخطّة التي أعدّها له المَدعوّ پيتسوكو بحذافيرها، لكنْ، وقعَ ما لم يكن في الحسبان، فخلال فراره التقى ماركيكا في منتصف شارع كاڤور بمواطنه السابق باولو نيكولوزي، والذي لم يكتفِ بالتعرّف عليه، بل أقدم أيضاً على مناداته باسمه، ما أدّى إلى إقلاقه كثيراً، وقد أبلغ پيتسوكو عن قلقه هذا، عندما التقاه بعد الحادث مباشرة في المنزل الريفيّ. غضب پيتسوكو، وتوتّر كثيراً، وبدأ يلحدُ؛ ثمّ هدأت ثائرته،

وقال - لا تشغل بالك بذلك، سنتولّى الأمر بأنفسنا - ثمّ رافقه على متن سيّارة حملٍ صغيرة من ملكيّته حتى ضاحية "غرانتشي"، الواقعة على بُعد مسافة تقلّ عن كيلومتر واحد من بلدة "B"، وقبل أن يفترقا، سلّم إليه المتبقّي من مبلغ ثلاثمائة ألف ليرة المُتّفق عليه.

وعندما جاء المَدعوّ پيتسوكو إلى "B" في اليوم التالي، أعلم ماركيكا بأنّ ليس عليه أن يقلق بشأن نيكولوزي، الذي صار في عداد تلك الأرواح الطّيّبة القادرة على تحريك دُمى الأطفال المجبولة بالسّكّر، ملمّحاً إلى تقليدٍ شعبي في المكان، حيث يتناول الأطفال هذه الحلوى الشبيهة بصورة "لا بيفانا"(62) التي تزور الأطفال في يوم الموتى. حاملة إليهم الدُّمى المصنوعة من السكّر. وعلى إثر هذا التعبير المُستخدَم من قبَل بيتسوكو أدرك ماركيكا بأنّه قد تمّت تصفية نيكولوزي.

وردّاً على سؤال حول ما إذا كان پيتسوكو عمل بناءً على تكليف من آخرين للإقدام على ترتيب اغتيال كولاسبيرنا أكّد المَدعوّ ماركيكا بأنّه يجهل ذلك، إلّا أنّه عبّر عن قناعته بإمكان استبعاد ذلك، وردّاً على السؤال حول ما إذا كانت الجملة التي قال فيها پيتسوكو - لا تشغل بالكَ بذلك، سنتولّى الأمر بأنفسنا - تعني اشتراك أو إسهام آخرين، يجهل ماركيكا هويّتهم، ساهموا في العملية، وهم أعوان للمَدعوّ پيتسوكو، أجاب المَدعوّ ماركيكا بأنّه يستبعد وجود آخرين، أو بالأحرى يؤكّد بأنّ ضميره لا يسمح بأن يكون متأكّداً ما إذا قال پيتسوكو "سنتولّى الأمر بأنفسنا" أو "سأتولّى الأمر بنفسي"، وردّاً على

سؤالٍ حول ما إذا كانت لديه أيّة معلومات حول الطريقة التي تمّ فيها القضاء على نيكولوزي أو المكان الذي تمّ فيه ذلك، أجاب المَدعوّ بأنّه يجهل ذلك.

وكانت ثائرة "دييغو ماركيكا" تواصل الهدوء كلّما زاد في الكلام. أومأ برأسه موافقاً، عندما انتهى النقيب من قراءة المحضر الذي كُتب بناءً على الإفادة التي أدلى بها، ووضع توقيعه على الأوراق بارتياحٍ كبير. لأنّه كان مُقتنعاً بأنّه رتّب الأمور بتوريط تلك الجيفة التي تحمل اسم پيتسوكو، وبأنّه برّأ ساحة آخرين لا ينتمون إلى صنف الجِيَف، فقد كان يشعر بسلام مع ضميره، وقد استسلم إلى مصيره. فلربّما سيكون عليه أن يقضي ما تبقّى من عمره داخل زنزانة سجنٍ ما، وإذا ما استثنينا الاعتياد على السجن، فقد صارت زنازين السجن بالنسبة إلى ماركيكا كالبيت الذي يعود إليه بعد رحلة مُضنية، أوَلَيسَتْ الحياة نفسها سجناً؟ أجل، الحياة عبارة عن محنة متواصلة، فالمال قليل، وأوراق لعب القمار تستحثّكَ، وعينا الرقيب أوّل تراقبان تحرّكاتكَ، ناهيكَ عن النصائح التي يسمح الآخرون بإسدائها إليكَ؛ ثمّ العمل الشاقّ خلال ساعات النهار، وهو ما يجعلكَ أكثر شبهاً بالحمار منه إلى الإنسان. كفى!، من الأفضل أن تنام الآن مستكين الفؤاد. وبالفعل كان الوسن يزحف عليه، غامض المُحيّا، ويهيمن على كلّ جزيئة من تفكيره.

وقد بعثه النقيب ليستكين إلى النوم على مصطبة خشبية قاسية في سجن سان فرانتشيسكو، وطالب بإيداعه في زنزانة انفرادية مُرجئاً بذلك الاحتفال الذي كان السجناء الآخرون سيقيمونه له بمناسبة انتهاء

التحقيق معه، وعودته إلى السجن.

وبعد ذلك جاء الدور على بيتسوكو، وكان الليل قد تجاوز منتصفه.

ولو أن أحداً ما قد التقى بپيتسوكو في أماكن أو ظروف أخرى، فإنّه كان سيرى فيه شخصاً يستحقّ الشفقة، كان قد تجمّد من البرد، وسال من أنفه مُخاطٌ متواصل، بسبب الزكام الذي أصابه فجأة، وبشكل عاجل. ولأنّه كان مُشتت التركيز بسبب ما يحدث له، فقد كان يُدير حدَقَتي عينَيه كالأصمّ، ويفتح فمه ويُغلقه، كما لو أنّه عاجز عن العثور على إطلاق الصوت للنّطق.

أمر النقيبُ نائب العريف بأن تُقرَأ عليه الاعترافات التي أدلى بها ماركيكا، فما كان من پيتسوكو إلّا وبدأ بإطلاق سلسلة من الأيمان وصيغ القَسَم بكلّ القداسات الكاثوليكية وبالمسيح المصلوب، ومُقدِّماً أُمّه وزوجته وابنه جوزيپي قُرباناً للدلالة على صدق ما يقول، مؤكّداً بأنّ ما يستمع إليه من إفادات ليس إلّا تلفيقاً وكذباً، وتضرّع كي يُنزِل الربّ صواعقه على سلالة ماركيكا حتّى الجيل السابع، لأنّ ذلك سيكون بمثابة القصاص العادل من السماء، تلك السماء التي تستضيف أموات عائلته، ومن بينهم عمّه الراهب الراحل والمُقبِل على اعتماده قدّيساً من قدّيسي الكنيسة. ورغم الزكام الذي كان يُعاني منه والإحساس بالكرب الذي انتابه، فقد كانت سليقته في أعلى سلاستها، وكان حديثه مُكتظّاً بالمشاهد والرموز الدِّينية وبالإغراق في الغلوّ؛ كان يفعل ذلك كلّه بلهجة صقليّة مُغلَقة وبإيطالية عَصيّة على الفَهم، إلّا أنّ النقيب قرّر إفساح المجال أمامه، وتركه يُنفّس عمّا في داخله.

- وإذاً - سأله فيما بعد بهدوء كبير - فأنتَ تجهل حتى مَنْ يكون ماركيكا هذا - وهو ما كان پيتسوكو يسعى إلى إيصاله إلى مستمعيه عبر خطابه الطويل.

- إنْ كنتَ تعني معرفته بشكلٍ عامّ، أقول نعم، أنا أعرفه، ويا ليتَني قُتلتُ قبل أن أتعرّف عليه. نعم، أعرفه، وأعرف كم مرّة.، لكنْ، معاذ الله أن تكون علاقتي به قويّة إلى درجة اتّهامي بالقضاء على حياة إنسان بسيط، أو أيّ إنسان، تلك الحياة التي أراها مُقدّسة كقُدسيّة محراب الكنيسة المركزيّ، الحياة مُقدّسة، سيّدي النقيب .. مُقدّسة.

- يمكننا القول، إذاً، بأنّكَ تعرف المَدعوّ ماركيكا.

أعرفه. وهل بإمكاني أن أنفي ذلك؟ أعرفه، لكنْ، كما لو أنّني أجهل مَنْ يكون، أعرف من أيّة طينة قد جُبِلَ، وقد تحاشيتُهُ على الدوام.

- وكيف تُفسّر لي اعترافاته التي أدلى بها، واستمعتَ إليها أنتَ بنفسكَ؟

- ومَنْ يتمكّن من إيجاد تفسير لذلك؟ ربّما يكون قد جُنّ وفَقَدَ عقله، أو ربّما قرّر أن يُدمّر حياتي. مَنْ بمقدوره أن يستقرئ ما يدور في خاطر شخصٍ مثله؟. هو الذي يُشبه رأسه حبّة رمّانٍ حامض، وكلّ فكرة تدور في رأسه إنّما هي عبارة عن حبّة من الشرّ، ويشعر أيّ إنسان مثلي بالفزع إزاء ذلك الكمّ من الشرّ. شخصٌ مثله قادرٌ على الإقدام على قَتل إنسانٍ آخر، ربّما فقط لأنّ الآخر لم يردّ على تحيّته أو لأنّه لا يُحبّ الطريقة التي يضحك فيها ذلك الشخص. لقد وُلِد مجرماً.

- أنتَ تعرف طبيعة شخصيته بشكلٍ دقيق.

- وكيف لا؟! كيف لا وقد كان دائم الدوران حولي.؟!

- وهل شاهدتَهُ في الآونة الأخيرة يدور في بعض المرّات حواليكَ؟ حاوِل أن تتذكّر.

- حسنٌ. أعتقد أنّني التقيتُهُ بعد مغادرته السجن مباشرة، وكانت تلك هي المرّة الأولى، ومن ثمّ التقيتُهُ في بلدته "B"، وكانت تلك هي المرّة الثانية، ثمّ جاء مرّة إلى بلدة "S"، وكانت تلك هي المرّة الثالثة. ثلاث مرّات، سيّدي النقيب، ثلاث مرّات.

- وما هي الموضوعات التي تحدّثتم فيها؟

- لم نتحدّث في شيء ما، سيّدي النقيب، في لا شيء، تحدّثنا في أشياء غير ذات قيمة إلى الدرجة التي نسيتُها تماماً، كان كلاماً يُشبه الكتابة على سطح ماء البئر. تهاني بمناسبة التحرّر من ربقة السجن، فيما كان التفكير في رأسي يجول حول الخسارات الناجمة عن صدور قرار العفو عن السجناء؛ وتمنيّات بالتمتّع بالحرّيّة، فيما الذهن والخاطر يتوقّعان احتمال عودته السريعة إلى ما وراء القضبان؛ وربّما دار الحديث أيضاً عن محصول الموسم، عن الطقس والأنواء الجوّيّة، وكيف هي أحوال الأصدقاء والمعارف. كانت كلّها أحاديث في أمورٍ اعتيادية غير ذات معنى.

- وإذاً، برأيكَ، فأنتَ ترى بأنّ كلّ ما اتّهمكَ به المَدعوّ ماركيكا هو عارٍ

عن الصحة. لكن، لنترك ماركيكا وشأنه لحينٍ من الوقت، فإنّ ما هو مُثبث لدينا، بأنّكَ التقيتَ سلفاتوري كولاسبيرنا، ودار بينكما حديث، وإنْ أردتَ، فبإمكاني أن أورد لكَ التاريخ بالدقّة المطلقة. دار الحديث بينكما حول مقترحات منكَ، وقد رفضها كولاسبيرنا. وكانت مقترحات حول ...

- كانت عبارة عن نصائح، سيّدي النقيب، نصائح، لم أسعَ إلى أن أحقّق من ورائها نفعاً، بل كانت نصائح صداقيّة.

- إذا كان بإمكانكَ أن تُسديَ إلى الآخرين بأيّة نصائح، فإنّ ذلك يعني بأنّ لديكَ معلومات مؤكّدة.

- معلومات مؤكّدة؟ كلّا، كانت معلوماتٍ سمعتُها هنا وهناك، فالعمل الذي أمارسه يُتيح لي التحرّك والتنقّل في أماكن عديدة؛ فقد أستمع اليوم هنا إلى شيءٍ ما، وغداً أستمع إلى خبرٍ آخر هناك.

- وما الذي كنتَ قد استمعتَ إليه، وأشعركَ بضرورة الذهاب لحمل نصيحتكَ إلى كولاسبيرنا؟

- عرفتُ بأنّ أموره لم تكن تسير على ما يُرام، وقد نصحتُهُ بالبحث عن الحماية، عن المساعدة.

- وبمَنْ كان عليه أن يستنجد؟

- لا أعرف. أعتقد بأنّه كان عليه أن يستغيث بالأصدقاء، وبالبنوك؛ أو أن يحاول التغلغل في عالم السياسة عبر القناة الصحيحة.

- وما هي هذه القناة الصحيحة في عالم السياسة، برأيك؟

- أعتقد أنّها قناة الحكومة، عبر مَنْ يتولّون مقاليد الحكم، ويُمسكون بالقانون، ومَنْ يسعى إلى الاستفادة من القانون، فعليه أن يقف إلى جانب مَنْ يتولّون قياد الأمور.

- وإذاً، لم تكن لديكَ نصائح مُحدّدة تُسديها إلى كولاسبيرنا.

- كلّا، يا سيّدي النقيب.

- وإذاً، كنتَ تُسدي إليه مُجرّد نصائح عامّة؛ بهدفِ صداقي فحسب.

- بالضبط.

- لكنّكَ لم تكن صديقاً مُقرَّباً إلى كولاسبيرنا.

- كنّا نعرف بعضنا.

- وأنتَ معتاد على تكليف نفسكَ عناء الذهاب إلى كل مَنْ تعرفهم، لتُسديَ إليهم النصائح؟

- نعم، أنا هكذا .. جُبلتُ على هذا الشكل، فإذا ما شاهدتُ بأنّ هناك مَنْ هو آيلٌ إلى انزلاق، فأنا حاضرٌ لأنْ أقدّم له المساعدة المطلوبة.

- وهل قدّمتَ يد المساعدة إلى باولو نيكولوزي أيضاً؟

- وما رابط هذا مع ما نتكلّم عنه؟

- لأنّكَ، بعد أن قدّمتَ المساعدة إلى كولاسبيرنا، كان من البديهي أن

تُساعد نيكولوزي أيضاً.

رنّ الهاتف على الطاولة. استمع النقيب إلى مُهاتِفه على الطرف الآخر من الخطّ، فيما كان يواصل التحديق بـ پيتسوكو الذي بدا الآن أكثر هدوءاً، وأكثر اطمئناناً، ولم يكن مُخاط الزكام يقطر من أنفه، كما كان الوضع عند وصوله.

وضع النقيب سمّاعة الهاتف في موقعها، وقال - حسنٌ، الآن بإمكاننا أن نبدأ.

- أن نبدأ؟ تساءل پيتسوكو.

- نعم، لأن هذه المكالمة الهاتفيَة التي وصلت من "S" أعلمتني بأنّه تمّ العثور على السلاح الذي استُخدم في عمليّة اغتيال كولاسبيرنا. هل ترغب في أن تعرف أين عثرنا على السلاح؟. كلّا، أرجو ألّا تُفكّر شرّاً بنسيبكَ، لقد كان يُنفّذ أمراً أصدرتَه أنتَ إليه، في اللحظة التي وصل فيها رجال الدَّرَك لتوقيفكَ، لقد توجّه إلى المزرعة في ساعة متأخّرة من الليل؛ أخذ بندقيّة الصيد، وكان يهمّ بالخروج من الدار للتخلّص من السلاح عند وصول رجال الدَّرَك. كانت مُصادفة تعيسة الحظّ. لقد شعر نسيبكَ، وأنتَ تعرفه بشكلٍ جيّد، شعر بالضياع، وأبلغ رجالي بأنّكَ أنتَ مَنْ أمره بذلك، وبأنّ البندقية يجب أن تُرمَى في هُوّة كياروكيارو في ضاحية غرامولي، على أساس أوامر منكَ. - واستدار إلى نائب العريف، وسأله - وما هو هذا الـ كياروكيارو؟

- إنها منطقة صخرية عسيرة - أجاب نائب العريف - وفيها العديد من

الكهوف والحُفَر والوديان الضّيّقة والسحيقة.

- خمّنتُ ذلك - قال النقيب - وتساورني الآن فكرة قد تكون مفيدة. أو، قد يكون جهداً ضائعاً، لكنْ، لا ضير من المحاولة. تُرى هل بالإمكان العثور على جثة نيكولوزي أيضاً هناك، في إحدى دهاليز الـ كياروكيارو؟ ما رأيكَ بهذه الفكرة؟ - قالها ببرود وقد استدار صوب پيتسوكو.

- ربّما كانت فكرة جيّدة - قال پيتسوكو دون أن يرفّ له رمش على عينه.

- إذا كنتَ أنتَ تتّفق مع الفكرة، فأنا أشعر الآن بالاطمئنان - قال النقيب، وحمل سمّاعة الهاتف، واتّصل بمركز "S"، ليُوجّه الأوامر إلى أفراده للبدء بعملية البحث في دهاليز كياروكيارو في ضاحية "غرامولي".

وفي غضون الدقائق التي استغرقتْها مكالمة النقيب الهاتفية، أعاد پيتسوكو في ذهنه ترتيب الخطّة التي تتناسب ووضعه الحالي. وعندما قال النقيب - أمامكَ الآن خياران، فإمّا أنْ تتوافق مع اعترافات ماركيكا في أنّكَ مَنْ كلّفه باغتيال كولاسبيرنا، وبأنّكَ أقدمتَ على اغتيال نيكولوزي، أو أن تقوم بتبرئة ساحة ماركيكا والاعتراف بأنّكَ أقدمتَ على اغتيال الرجلَين معاً -

إلّا أنّ پيتسوكو كان قد اصطفى خياراً ثالثاً، وكان خياراً يتوافق، بشكلٍ مثير للغرابة، مع المحضر المُلفّق، الذي كان قد أقنع ماركيكا،

ودفعه إلى الإدلاء باعترافاته، وتباين خيار پيتسوكو مع ذلك المحضر في نقطة واحدة فحسب.

كان رؤساء العرفاء الثلاثة الذين صاغوا المحضر المُلفّق بارعين للغاية، وكانوا على دراية بنَفسيّة رجل مثل پيتسوكو المعروف بدقّته التي تكاد تكون دقّةً علمية، وصاغ العسكريون الثلاثة المحضر بطريقة جعلت من السهل أن يُصدّق دييغو ماركيكا بمحتواه، وأن يسقط في قِذر الماء المغلي كديك مَخصي.

وأفاد پيتسوكو بأنّه التقى كولاسبيرنا بالفعل قبل ثلاثة شهور، ولإحساسه بالصداقة تجاهه، رغم أنّهما لم يكونا صديقَين بالفعل، فقد شعر بضرورة أن يُسدي إليه ببعض النصائح بصدد الأسلوب الذي عليه اتّباعه في إدارة مصالحه كمقاول، لكن، وبدلاً من الإعراب عن الامتنان لذلك، كما كان پيتسوكو يترقّب منه، فقد ردّه كولاسبيرنا بكلمات نابية غير قابلة للتكرار في هذا المقام، مطالباً إيّاه بعدم التدخّل في ما لا يعنيه، وبأنّ عليه أن يشكر الربّ لأنّه، وهذه هي كلمات كولاسبيرنا بالتحديد، لم يجعله يلتقط أسنانه من التراب، بعد أن يشبعه لكماً، يُسقط أسنانه جميعاً. وجعلت ردّة الفعل هذه پيتسوكو، الرجل المعروف بهدوئه حتّى إزاء الإساءات التي تُوجّه إليه، أن يشعر بإهانة كبيرة؛ وعندما التقى ماركيكا بالصدفة المحضة، وأسرّ إليه بما حدث، عرض عليه ماركيكا خدماته للانتقام، حتّى دون أيّ مقابل من قبَل پيتسوكو، كانت لديه مُسبّبات حقد شخصي تجاه كولاسبيرنا. وقد شعر المَدعوّ پيتسوكو بالرعب من هذا العرض، ورفضه بشكلٍ

قاطع. لكن ماركيكا عاد إلى "S" بعد بضعة أيّام، وطلب منه الضيافة في المنزل الريفيّ الذي تعود ملكيته إلى زوجته، والقائم في ضاحية "پوجو"، القريبة من "S"، وكان الطلب بالضيافة لليلةٍ واحدة، لأنّ أشغالاً استدعت بقاءه في البلدة، الخالية من الفنادق، كما هو معروف. وطلب منه ماركيكا أن يُعيره بندقيّة الصيد، إذ كان ينوي الخروج في ساعات الصباح الأولى للصيد في الضاحية، التي أخبروه عنها بأنّها غنيّة بالأرانب البرّيّة. وعندما سلّم پيتسوكو مفتاح المنزل إلى ماركيكا، أخبره بأنّه سيجد في المكان بندقيّة صيد قديمة، قديمة للغاية، قد لا تصلح للصيد، وبمقدوره أن يستخدمها إنْ رغب في ذلك. لم يخطر بباله أبداً أيّةُ خطّة إجرامية كان ماركيكا قد أعدّ لها، فعل ذلك لثقته بالآخرين، ولاستعداده الدائم لمساعدة أيٍّ كان. ولم يخامره أيُّ شكٍ حتّى عندما سمع بنبأ اغتيال كولاسبيرنا، وتأكّدت شكوكه فقط عندما ذهب رجال شرطة "الدَّرَك" إلى منزله لتوقيفه؛ حينها فقط أدرك الخديعة الكبرى التي ورّطه فيها ماركيكا، مُستغلاً طيبته وحسن نواياه؛ ولهذا السبب أصدر أوامره إلى نسيبه لإخفاء السلاح الذي استخدمه ماركيكا لتنفيذ جريمته، كما وضح لديه الأمر في تلك اللحظة. وقد كان هذا، برأيه، الموقف الأسلم الذي عليه اتّخاذه، ولمعرفته بالطبيعة العنيفة التي تميّز المَدعوّ ماركيكا، شعر پيتسوكو بالعجز عن التوجّه طواعيّة إلى السلطات الأمنية، ليكشف لها عن سرّ الخديعة التي تعرّض إليها.

- أوه، يا صاحب السعادة. - قال سعادَتُه وهو ينسلُّ من الفراش،

وينزل من السرير بقفزة سريعة لا تناسب عمره، ولا المقام الذي يشغله.

فبينما كان غارقاً في النوم، بلغت رنّات الهاتف درجة عذّبت ذهنه، كما لو أنّها صعقات من العنف؛ كان قد مَدّ يده بحركة واسعة، ليستلّ سمّاعة الهاتف البعيد عنه للغاية في تلك اللحظة؛ وبينما كان صوت المُهاتِف على الطرف الآخر من الخطّ يرعدُ ويُزبد صائحاً، أضاء مصباح الغرفة، ما جعل السيّدة تفيق من نومها الذي لن تتمكّن، بالتأكيد من القبض على تلابيبه، لتغرق في لُجّته من جديد خلال تلك الليلة، فقد كان النوم بخيلاً معها، وهو ما كان يجعلها دائماً عُرضةً إلى الاضطرابات.

وذابت أصوات الضوضاء القادمة من الهاتف فجأة، لتتوضّح في نبرة صوت واضحة قادمة من بعيد، صوت واضح الانزعاج والحزم، ووجد سعادتُهُ نفسَه واقفاً وسط الغرفة، يؤدّي انحناءات الاحترام والوجل بيجامته وقَدَمَيه العاريَتَين، كان يتبسم ويؤدّي الانحناءات كما لو أنّ بمقدور تلك الانحناءات والابتسامات أن تنساب إلى مُهاتِفه عبر جهاز الاتّصال.

رمقتهُ السيّدة بنظرة ازدراء، وقُبل أن تستدير إلى جنبها الآخر، قالت له مُدمدمة - إنّه لا يراكَ الآن، بإمكانكَ أن تُقلع عن تحريك ذَنَبِكَ كما الكلب - وبالفعل لم يكن سعادَتُهُ يفتقد في تلك اللحظة إلّا إلى ذَنَبِ كلب، للتعبير عن الولاء المُطلق لمُحادِثِه.

كرّر جملته الأولى - أوه، يا صاحب السعادة - وأضاف - لكن، يا

صاحب السعادة. لا، يا صاحب السعادة. نعم، يا صاحب السعادة. بالتأكيد، يا صاحب السعادة. - وبعد أن كرّر "يا صاحب السعادة" مائة مرّة، انطفأ الصوت المتأزّم الذي رنّ في أذُنه، فبقي ساهماً في وسط الغرفة وسمّاعة الهاتف في قبضته، مُدمدِماً بكلّ ما خطر في باله في تلك اللحظة من توصيفات لوالدة صاحب السعادة الذي أفاقه من روما في الثانية فجراً، زارعاً الفوضى في وجوده المضطرب أصلاً بما يكفي. نظر إلى زوجته التي كانت قد أدارت ظهرها عليه. أعاد تعليق سمّاعة الهاتف في حمّالة الهاتف المُثبّتة على الجدار، ثمّ رفعها من جديد، وأدار رَقْماً.

استدارت السيّدة صوبه كما لو كانت قطّة غاضبة - ابتداءً من الغد - قالت - سأنام في غرفة الضيوف.

- عُذراً، يا صديقي العزيز، لكنّهم أجبروني على الاستيقاظ من نومي في هذه الساعة بالذات - قال بصوت متوتّر وحاسم كالذي نخر أُذُنَيه قبل قليل - وإذاً، فلنبدأ بسلسلة "سانت آنتونيو"(63)، أفقتُ أنا، فتفيقُ أنتَ بدوركَ، وستُسدي إليّ بفضلكَ الرائع بإيقاظ من عليهم الاستيقاظ في هذه الساعة. لقد وصلتني المكالمة من روما، ولا أقول لكَ مَن الذي هاتفَني، لأنّ بإمكانكَ التكهّن. نعم، لقد توقّعتُ أن تصل الأمور إلى هذا الحدّ، هل تذكُر؟ فلقد فجّر بيلّودي ذاك فضيحة قوميّة. نعم، كما أقول لكم، فضيحة قوميّة، واحدة من تلك الفضائح التي، سيجد فيها أشخاص مثلي أو مثلكَ، أنفسهم متورّطين فيها لا محالة. إنّها مصيبة سوداء، يا عزيزي. قاتمة السواد. هل تعرف ما الذي نشرتْهُ

جريدة المساء في العاصمة اليوم؟ لم تعلم ما الذي نُشر. طوبى لكَ وهنيئاً، لقد وجب عليَ أن أعرف ذلك من الشخص المَعنيّ مباشرة، وأؤكّد لكَ بأنّه غاضب للغاية، وإلى درجة تُثير الخوف. لقد نشرت الجريدة على مساحة نصف صفحة، صورة له إلى جانب. نعم، صورته وإلى جواره دون ماريانو آرينا. يا للمصيبة.! صورة مُفبركة بالطباعة؟ عن أيّة فبركة طباعيّة تتكلّم؟ إنّها صورة حقيقيّة، وبإشارة واضحة إلى مصدرها. آه، حسنٌ إذاً. أنتَ لست مَعنيّاً بذلك بالمطلق؟ أنتَ تُثير دهشتي حقّاً. أعرف جيّداً بأنّه ليس ذنبنا إذا ما ارتكب صاحب السعادة هذه السذاجة، ووافق على أنْ يُصوّر وإلى جواره شخصٌ مثل دون ماريانو. نعم، أستمع إليكَ.

- حسنٌ، إذاً - واصل سعادتُه، بعد أن أصغى السمع لما يربو على دقيقتَين - ليكن لكَ ما تقول، فإمّا أن تورد لي أدلّة قاطعة، تدين دون ماريانو آرينا، بشكل لا لبس فيه، ودون أن يكون يتمكّن حتى الربّ نفسه من تبرئته، أو أن تُطلق سراحه الليلة بالذات، ويتمّ إعلام الصحفيّين بأن وكيل النيابة أراد الاستعلام منه حول بعض الأمور. ماذا؟ وكيل النيابة الذي يتابع الملفّ مُتّفق مع النقيب بيلّودي؟ آه. يا ويلي إذاً، يا لها من مصيبة لا نهاية لها. عليكَ أن تفعل شيئاً ما. نعم، أدركُ ما تقول تماماً. لكنْ، هل تعلم ما الذي قاله لي قبل دقائق؟ قال لي بأنّ دون آرينا إنسان شريف، وبأن واحداً منّا، مثلي أو مثلكَ، يمارس لعبة الشيوعيّين. تُرى من أيّة سماءٍ هوى علينا بيلّودي هذا؟ كيف سمحوا لأنفسهم أن يُرسلوا شخصاً مثله إلى هنا؟ فنحن، يا صاحبي،

نحتاج إلى الرزانة والاعتدال في التعامل مع الأمور، نحتاج إلى الحصافة والهدوء والذهن البارد، هذا ما نحتاج إليه هنا، لا أن يبعثوا لي أشدَ أبالسة الجحيم عراكاً وتوتّراً(64). لكنّي لن أشكّك في ذلك على الإطلاق. أنا من أشدّ الناس احتراماً وتبجيلاً لقوّة الدّرَك. أحترمها وأقدّس تاريخها. حسنٌ، فلتفعل ما تشاء ويحلو لكَ - وأعاد تعليق سمّاعة الهاتف في الشوكة المعدنية بعنف كبير.

صار عليه الآن أن يواجه مهمّة تهدئة السيّدة، وكانت تلك أعسرَ من مهمّات مكتبه العسيرة في الأصل(65).

ضياءُ الفجر يتسلّل إلى ذلك المشهد الريفي، ويبدو وكأنّه يبزغ من العشب الفَتيّ الذي نبت في الأرض المبذورة قبل حين، وبدت أشعة الشمس الأولى، وكأنّها تبزغ من الحجارة ومن الشجر المنقوع بالندى، يرتفع وهج الشمس بحركة وئيدة وغير محسوسة صوب السماء التي ما تزال مغشّاة بسواد الليل الذي بدأ ينجلي. تلّة الـ كياركيارو الصخريّة تبدو كما الغريب واللامعقول في مشهد ذلك السهل الأخضر، وككومة كبيرة من الإسفنج المُتسوّد بثقوب مظلمة، والتي بدأت تُنار بضوء الشمس المتنامية على المزارع. كان النقيب بيلّودي قد بلغ من الإنهاك والنعاس درجةً، يُصبحان فيها صنوَين لحمّى عالية دون فقدان الوعي لمَنْ أُصيب بها، وبدا الإنهاك والنعاس وكأنّهما يذوبان ليتحوّلا إلى مرآة لصورة ملتهبة، (بالضبط كما هو الجوع، الذي يَضْعُفُ في لحظةٍ أو في درجةٍ ما، ليتحوّل إلى نحولٍ كامل، يوصل إلى مرحلة رفض الطعام). حين رأى النقيب ذلك المشهد، فكّر مع نفسه - لقد استسلم الربّ هنا،

ورمى المنشفة البيضاء(66) - مُقارِباً ما بين قساوة المشهد والنزال وهزيمة الربّ في قلوب البشر.

ولكونه قد صار يعرف فضول النقيب نحو بعض التعابير الشّعبيّة، فقد حاول نائب العريف توصيف المكان مازِحاً بقراءة بيتَين من الشّعر الشّعبيّ الصقلّي،

- E lu cucci ci dissi a licuccuotti

- a lu chiarchiaru nei videmmu tutti

وقد أثار بالفعل فضول النقيب بيلّودي، فتساءل في الحال عن المعنى، وطالبه بالترجمة، فبادر العريف قائلاً - وقالت البومة لأولادها، سنلتقي جميعنا يوماً في الـ كياركيارو - وأضاف بأنّ ذلك قد يعني بأنّنا سنلتقي جميعاً في حضرة الموت، ولا أحد يعلم لماذا كان منظر الـ كياركيارو يوحي بفكرة الموت. إلّا أنّ النقيب أدرك ذلك الرابط بشكلٍ واضح، وبسبب إحساسه بالحمّى، فقد تراءى له اجتماع ليلي حاشد لطيورٍ ليليّة في الـ كياركيارو. آلافٌ من الأجنحة السوداء التي تُصفّق في عتمة الليل المُضاءة بضياءِ الفجر الخافت؛ وشعر بأن لا وجود لمشهد مخيف قادرٍ عن التعبير عن الموت، كما المشهد الذي كان يقوم أمام ناظرَيه في تلك اللحظة.

كان النقيب ونائب العريف قد تركا السيّارة في الشارع، وسارا صوب الـ كياركيارو عبر طريق موحلٍ وضيّق، بينما كان عدد من رجال الدَّرَك يتجوّلون فوق التلّة، وربّما كان هناك عدد من الفلاحين الذين يقدّمون

مساعداتهم.

وبعد مسافة قصيرة، انتهى الطريق إلى منزل ريفي، ورأى النقيب الرقيب أوّل من بلدة "S". كان يراه الآن بوضوح وهو يحرّك رجاله بإشارات ويُدير عمليات البحث.

وعندما صارا على مسافة قصيرة، ناداه الرقيب أوّل - سيّدي النقيب، إنّه هنا، ربّما سيكون صعباً الوصول إليه وسحبه، لكنّه موجود. - هتف بحماس مُبالغ فيه للإبلاغ عن العثور على جثّة، لكنّ هذه من مواصفات المهنة، فقد كان العثور على جثّة القتيل يُثير، في تلك الحالة، قدراً من الرضا والإحساس بالانتصار.

وكانت الجثّة تقبع هناك، في الشقّ الصّخريّ على عمق تسعة أمتار، قاسَ رجال الشرطة العمق بحبل، ربطوا في نهايته حجرة، أنزلت إلى العمق عامودياً. كانت الأغصان النابتة في الصخر تمنع تغلغل أنوار المصابيح اليدوية التي كان حاول الرجال استخدامها لإضاءة شقوق الصخر، لكنّ رائحة عفن الجُثّة كانت تتصاعد من عمق الشّقّ بوضوح. توقّع رجال الدَرَك بأنّه سيتوجّب على أحدهم مواجهة مخاطر وإزعاجات النزول إلى الأسفل لاستعادة الجُثّة، لكنّهم شعروا بارتياح كبير حين عرض أحد الفلاحين خدماته بالنزول إلى عمق الشّقّ مربوطاً بحبل، وكان سيربط الجثّة بعدد من الحبال، لتسهيل مهمّة السحب إلى أعلى. وقد برزت الحاجة إلى حبال أخرى، فأرسلَ أحد الرجال إلى البلدة لإحضارها.

عاد النقيبُ صوب المنزل الريفيّ عبر ممرّ الحقول المبذورة. كان المنزل يبدو مهجوراً. لكنّه، عندما دار حول المبنى وبلغ الجانب المعاكس لـ كياركيارو، فوجئ بنُباح كلبٍ هائج، هجم صوبه، وكادَ أن يبلغه، لولا أنّ الحبل أمسك به، وخنقه الطّوْق الملفوف حول عنقه.

وفيما واصل الكلبُ النُباحَ مهتاجاً، أبقاه الطّوْق والحبل المشدود مرتفعاً على قائمَتيه السفليّتَين كما لو أنّه تعلّق في الهواء. كان كلباً مهجّناً، بُنّيّ الشّعر، وبأقواسٍ هلاليّة أرجوانيّة فوق عينَيه الصّفراوَين. دفع نُباح الكلب المهتاج رجلاً طاعناً في السنّ إلى الخروج من الإصطبل القريب، ليصرخ به لتهدئته - هييهه، بارّوجّييدّو(67)، اخرس، اهدأ، اهدأ - ثمّ استدار إلى النقيب - نُقبّل الأيادي(68) -.

حاول النقيبُ الاقترابَ من الكلب، ليُمسّد على جِلْده.

- كلّا - قال العجوز متوجّساً ومُحذِّراً - إنّه كلب شرّير، فهو قد يتظاهر بالخنوع للشخص الغريب، وقد يتركه ليُمسّد على جِلْده، ليُطمئنه، ومن ثمّ ينقضّ على تلك اليد بمخالبه. إنّه شرّير كأيّ شيطان.

- وما اسمه؟ - سأل النقيب وقد استُثير فضوله من الاسم الغريب الذي هتف به العجوز على الكلب لتهدئته.

- اسمه بارّوجّييدّو - قال العجوز.

- وما الذي يعنيه ذاك؟

- يعني أنّه شرّيرٌ للغاية - ردّ العجوز.

- لم أسمع بهذا أبداً - قال نائب العريف. وطلب من العجوز بلهجته المحلّيّة شرحاً للاسم. فردّ العجوز بأنّه يُحتملُ أن يكون الاسم الأصلي "بارّتشيبيدّو" أو "بارجيبيدّو"، وعلى أيّة حال، فقد كان ذلك الاسم يحمل معنى شرّيراً وظالماً، ظلم مَنْ يُمسك بقياد الأمور، في زمان كان هؤلاء الأشرار والظالمون يحكمون البلدات، ويحيلون الناس إلى حبال المشنقة، إشباعاً لرغباتهم الظالمة.

- فهمت - قال النقيب - تعني الكلمة "بارجيلّو"، أي رئيس الشرطة(69).

شعر العجوز بقذر من الخجل والارتباك، ولم يَفُهْ لا بالتأكيد ولا بالنفي.

كان النقيب في حاجة إلى الاستفسار من العجوز ما إذا كان قد شاهد شخصاً يجول في هذه المنطقة قبل بضعة أيّام، وتوجّه صوب كياركيارو؛ أو أنّه شاهد أيّ شيء أثار شكوكه وريبَه في المنطقة. إلّا أنّه أدرك بأنّه لم يكن ليحصل على أيّة معلومةٍ من شخص يعدّ رئيس الشرطة شرّيراً مثل كلبه الهائج. وفكّر النقيب بأن العجوز ربّما كان على حقّ في ريبته تلك، فلقرونٍ طويلة، كان رؤساء الشرطة يُطبقون بأنيابهم على أناسٍ مثله، ربّما كانوا يُطمئنونهم في البدء، كما قال العجوز. ليُطبقوا الأنياب عليهم فيما بعد. أوَلَم يكن رؤساء الشرطة أدواتٍ للسلطة في انتهاك الحريّات والتجاوز والقَمع؟

ألقى التحيّة على الرجل العجوز، وعاد أدراجه صوب الشارع العامّ.

ونبح الكلب بآخر تهديداته صوب الغريب ساحباً الحبل والطّوق إلى آخر مَدَاهما. "بارجيلّوا" - فكّر النقيب - "بارجيلّو مثلي أنا بالضبط، أنا أيضاً لي حبل قصير مربوط بالطّوق حول عنقي، وفي داخلي غضبٌ عنيف"، وكان يشعر بنفسه أقرب إلى ذلك الكلب المُسمّى "بارّوجْييدو" أكثر منه إلى الـ "بارجيلو" في معناه القديم. وأعاد التفكير في ذاته كما لو كان "كلب القانون"؛ ثمّ فكّر باسم "كلاب الربّ"، الذي أُطلق على "الرهبان الدومينكان"، وفكّر بـ "محاكم التفتيش"، وهي الكلمة التي نزلت به إلى مجاهل قبو فارغٍ ودامس الظلمة(70) مُوقِظة فيه تردّدات خيالات من التاريخ. وبقَدرٍ من الأسى تساءل مع نفسه ما إذا لم يكن قد انتهك، ككلبٍ في خدمة القانون، حدود حافّة القبو. أفكارٌ وأفكار تتالت في ذهنه، كانت تبزغ وتتلاشى في حمّى النعاس والإنهاك اللّذَين كانا ينهشان جسده وذهنه.

عاد إلى بلدة "C"، وقُبيل أن يتوجّه إلى مكان إقامته ليُريح جسده المنهك ببضع ساعات من النوم، ذهب إلى مكتب وكيل النيابة لإعلامه بنتائج التحريّات والتحقيقات، وليحصل على تمديد للتوقيف بحقّ آرينا، الذي سيُخضِعه إلى الاستجواب في فترة ما بعد الظهر، بعد أن يكون قد استجمع كلّ ما توفّر لديه من معطيات.

تجمهر الصحفيّون على درجات سُلّم دار القضاء وفي ممرّاته. وتهافت الجميع صوبه، وأمطروه بعددٍ من الأسئلة، وأطلق المصوّرون شُعاعات أضوائهم في عينَيه المغرقَتَين بالوسن والإنهاك.

أين وصلت التحقيقات؟ هل يقف دُون ماريانو آرينا وراء عملية

الاغتيال أم أنّ هناك شخصاً آخر من النافذين يقف وراء دون ماريانو؟. هل اعترف ماركيكا وپيتسوكو بذنوبهما؟. هل سيتمّ تمديد فترة الحَجْر على الموقوفين؟. هل أنتَ على علم بطبيعة العلاقة ما بين دون ماريانو والوزير مانكوزو؟.هل صحيح ما أُشيع عن زيارة البرلماني ليفيتّي لمكتبكَ بالأمس؟.

- لا، ليس ذلك صحيحاً - أجاب النقيب على السؤال الأخير.

- لكنْ، هل هناك تدخّلات من قبَل سياسيّين لصالح دون ماريانو؟ هل صحيح بأنّ الوزير مانكوزو اتّصل هاتفياً من روما؟

- في حدود معرفتي بالأمور - قال بصوت مرتفع ومسموع - لا وجود لأيّ تدخّل سياسي، ولا أعتقد بأنّه سيكون هناك شيءٌ من هذا القبيل. وبقَدر ما يتعلّق الأمر بالعلاقات ما بين أحد الموقوفين ورجال سياسة، فأنا أعرف فقط ما تكتبونه أنتم في صحفكم. لكنْ، وبافتراض أنّ هذه العلاقات موجودة بالفعل، وبتأكيدي على أنّني لا أنوي التشكيك في صدقكُم المهنيّ، فإن تلك العلاقات لا تدخل لائحة ما أفكّر الآن بإدراجه ضمن التحقيقات أو أخذها في الاعتبار. وإذا ما بدت تلك العلاقات، في لحظة ما من مسار التحقيقات، مُستحِقّةً لتركيز الاهتمام القانوني حولها، فأنا واثق بأنّنا، وكيل النيابة وأنا شخصياً، لن نتوانى عن أداء واجبنا.

وأوردت جريدة المساء على ستّة أعمدة مغزى ذلك التصريح بعنوان كبير بالخطّ العريض بهذه الصيغة - احتمال بلوغ آثار تحقيقات النقيب

بيلّودي إلى الوزير مانكوزو أيضاً.

وكما هو معلوم، فإن صحف المساء تصدر في الأكشاك في منتصف النهار، وهي الساعة التي يجتمع فيها ناس الجنوب حول موائد الغداء، فقد أشعل الخبر المنشور خطوط الاتّصالات الهاتفية، كما لو أنّها صرخات تصدُر مِمّنْ صُمّتْ آذانُهم بفعل انفجارٍ عنيف، واشتعلَ الخبر بالذات في داخل عدد من الأشخاص الذين كانوا يحاولون في تلك اللحظة إطفاء نيران ما اعتراهم من غيظٍ وغضب، بجرعاتٍ من نبيذ سالا پاروتا وڤيتوريا(71).

- المشكلة تكمن هنا، إنّ لدى الدَّرَك ثلاث حلقات لسلسلة واحدة. وأولى هذه الحلقات الثلاث تتمثّل في ماركيكا، وقد تمكّنوا من الإمساك به، كما لو كان واحدة من الحلقات المعدنيّة المغروزة في جدران المنازل الريفية لربط البغال.

- ليس دييغو(72) ممّنْ يُثرثرون، فبطنه مُغطّى بطبقة من الشَّعر بسمك أربعة أصابع.

- اتركنا الآن من الشَّعر النابت فوق المعدة. فالخطأ الذي ترتكبونه يكمن في عجزكم عن إدراك أنّ مَنْ كان قادراً على قتل عشرة أشخاص، أو ألفٍ أو مائة ألف، هو قادر في ذات الوقت أن يكون جباناً. دعني أسدي إليك خدمة. فقد بدأ صاحبكم دييغو بالإفصاح والكلام، وترتبط بحلقته الآن حلقة پيتسوكو. هناك واحدٌ من احتمالَين، فإمّا أن يبدأ پيتسوكو أيضاً بالإفصاح والاعتراف، وسيعني هذا التحام الحلقَتَين

السابقَتَين بالحلقة الثالثة، أي ماريانو؛ أو أن يصمت پيتسوكو، ويرفض الاعتراف، فتظلّ حلقته بذلك، مرتبطة بحلقة ماركيكا فحسب، وذلك رابطٌ واهن، وبإمكان أيّ محامٍ عزل الحلقتَين. وينتهي الأمر، ويجد ماريانو نفسه خارج زنزانة التوقيف حرّاً طليقاً.

- پيتسوكو لن يتكلّم.

- لا أعلم، يا عزيزي، لا أعلم، أنا أجري حساباتي دائماً وفق الاحتمال الأسوأ. فلو افترضنا بأن پيتسوكو سيُغرّد، فستكون الحفلة لماريانو آرينا قد انتظمت وقُضي الأمر(73). وإذا قُيّض لي التكهّن، فأنني أرى بأن رجال الدَّرَك يسعَوْنَ في هذه اللحظات إلى تحقيق الالتحام ما بين حلقة پيتسوكو وحلقة ماريانو؛ وإذا ما تمّ لهم ما يسعون إليه، فإنّ هناك احتمالَين، فإمّا أن تنتهي السلسلة عند ماريانو، أو أنّ ماريانو، العجوز والمصاب بالأمراض، يبدأ بالتغريد وبفرط حبّات مسبحته. وفي هذه الحالة، يا عزيزي، ستطول السلسلة وتطول، وسنجدها تشملنا جميعاً، أنتَ وأنا والوزير، وحتّى الربّ نفسه. إنّها كارثة، يا عزيزي، كارثةٌ حقيقيّة.

- أنتَ ترغب في جعل قلبي أسودَ كما القطران. فليتمجّد اسم العذراء. أوَلا تعلم أيّ نوعٍ من الرجال هو دون ماريانو؟ إنّه صموتٌ كما القبر(74).

- كان في شبابه صموتاً كقبرٍ، أمّا الآن، فقد شاخ كثيراً، ونزلت إحدى قَدَمَيه إلى القبر. الكائن البشري ضعيف القلب، كما قال غاريبالدي في

وصيّته(75)، كان غاريبالدي يخشى أن يُجبِره ضعفه النّهائيّ على الاعتراف للرهبان بخطاياه التي لا بدّ أنّها كانت شائكة كما الصبّار. وهكذا أقولُ لكَ، ربّما سيجتاح الضعفُ دون ماريانو، فيبدأ بالإفصاح عن خطاياه، ولنعترف بأنّ تلك الخطايا ليست، على الإطلاق، نادرةً أو قليلة العدد. وقد أُتيحت لي في عام 1927(76) فرصة الإمساك بين يَدَيّ بملفّه الخاصّ الذي كان بضخامة هذا المُجلّد - وأشار بأصبعه إلى واحد ضخم على الطاولة - كان بالإمكان أن تُستخلَص من ذلك الملفّ إنسكلوبيديا إجرامية متكاملة، لم يكن ينقصه أيُّ شيءٍ ذا صلة بالإجرام من الألف إلى الياء. ولحسن الحظّ، فقد اختفت آثار ذلك الملفّ. لا تنظر إليّ بعينَيكَ الشّبيهَتَين بعينَيْ سمكة سردين ميتة، لم يكن، لي شخصياً، أيّ دَورٍ في فقدان ذلك الملفّ، فقد تكلّف بالمهمّة أصدقاءُ آخرون، أكثر أهمّيّة منّي، وبطريقة شبيهة بلعبة الورقات الثلاث(77)، اختفى الملفّ خلال مسارات انتقاله من مكتبٍ إلى آخر، وكان النائب العامّ المَلَكي رجلاً مثيراً للرعب، وقد وجد نفسه دون ذلك الملفّ الذي اختفى تحت ناظرَيه، وكان أولئك المساكين الذين حامت حولهم الشكوك، واتُّهموا بإضاعة الملفّ أكثر الناس براءةً من ذلك الذنب. وتبع ذلك نقل النائب العامّ المَلَكي إلى دائرة أخرى، فهدأت الأمور، واستقرّت. هذا هو الواقع، يا عزيزي، فرؤساء النيابة الملكية والجمهورية عابرون، كما القضاة والضبّاط العسكريون ورؤساء الشرطة والعرفاء ونوّابهم.

- يا لها من مقاربة غريبة ومثيرة للضحك، نوّاب العرفاء!

- ليس هناكَ ما يُثير الضحك، يا عزيزي، أنا أتمنّى لكَ ألّا تتقاطع صورتكَ مع ما يدور في ذهن حتّى نائب عريف في الشرطة. لكنْ، سيقَر نوّاب العرفاء أيضاً، ونحن ما نزال هنا. بقَدر كبير من القلق في القلب، لكنّنا ما نزال هنا.

- وماذا عن دون ماريانو؟

- لقد نال دون ماريانو قلقه الصغير وارتعاشةَ القلب.

- لكنه ما يزال في زنزانة التوقيف، ومَنْ يدري ما هو مقدار ما يعانيه من آلام؟!

- لا تخشَ شيئاً، فهو لا يُعاني من أيِّ شيء. فلا تحسبنّ أنّهم يربطونه داخل صندوقٍ أو يصعقونه بتيّارات كهربائية. هذه أمورٌ صارت تنتمي إلى الماضي، فلدينا الآن قوانين تنطبق على الدَّرَك أيضاً.

- تبّاً للقوانين، قبل ثلاثة شهور فحسب.

- دعكَ من ذلك، نحن الآن نتحدّث عن دون ماريانو. لا أحد سيجرؤ على المساس بدون ماريانو آرينا، ولو بأصبع، إنّه شخص يحظى بالاحترام وهو مدعومٌ ومَحميّ وقادر على دَفْع تكاليف كبار المحامين للدفاع عنه، وربّما اجتمع محامون كُثُر للدفاع عنه. بالتأكيد هو الآن يعاني، فزنزانة التوقيف ليس غرفة في غراند هوتيل. وخشب السرير الذي ينام عليه قاسٍ، وقد يشعر بالغثيان أمام علبة الصفيح التي يُجبر على قضاء حاجاته فيها؛ وقد يشعر بالحاجة إلى أكواب القهوة القويّة، التي يحتسي منها واحدة في كلّ نصف ساعة. إلّا أنّهم سيُطلقون

سراحه خلال أيّام معدودة، وسيكون بهياً وبريئاً من التُهم الموجّهة إليه، كما لو كان ملاكاً، وستعود حياته إلى مجاريها، وتتواصل أعماله بالازدهار والإثراء.

- قبل دقائق، جعلتني أشعر كَمَنْ أصيبث ساقاه بالطلقات، ووأدت في داخلي أيّ أمل، أمّا الآن.

- قبل قليل كنتُ أتحدّث عن وجه العملة الحامل للصليب، أمّا الآن، فأتحدّث عن الوجه الآخر للعملة، وهو الوجه الحامل للصورة(78)، أنا أقول أن لا بدّ للوجه الحامل للصورة أن يظهر، ولا بدّ أن تسير الأمور على ما يُرام؛ لكن ذلك لا يعني عدم احتمال ظهور الوجه الحامل للصليب في العملة.

- لنعمل من أجل أن تظهر الصورة، ولنترك الصليب ليسوع المسيح.

- وإذاً، فانتبه إلى ملاحظتي ونصيحتي، ينبغي خَلْع الحلقة الأولى من الجدار. ينبغي التمكّن من إخلاء سبيل دييغو.

- ينبغي أن نفعل ذلك بعد أن نتأكّد بأنّه لم يكن هو مَن ارتكب أكثر الأمور خزياً.

- ينبغي العمل على إخلاء سبيله حتى لو كان هو مَن ارتكب ذلك. اتركوا التحقيقات تواصل مساراتها، فلطالما هي ما بين يَدَيْ آكلَي عصيدة الذرة(79) لن يُوقِفها أحد؛ دعوا الأمور تسير كما هي حتى لحظة وصولها تحت يَدَي قاضي التحقيق، في الغضون، أعدّوا إثباتاً

لصالح دييغو من نوع تلك الإثباتات التي تُحطّم بالتفنيدات أسنان مَنْ يحاول عضّها.

- وما الذي يعني ذلك؟

- يعني أنّ دييغو كان يتواجد، في اليوم وفي الساعة الذي تمّ فيهما اغتيال كولاسبيرنا، بعيداً عن مكان الحادث لألف كيلومتر، وبرفقة أشخاص محترمين لا تحوم حولهم شكوك. أناس شرفاء، لم تتلوّث صفحتهم القانونية بأيّ جُرم، وليس بإمكان أيّ قاضٍ أن يُشكّك في ما يُدلون به من شهادات.

- وماذا لو كان ماركيكا قد أدلى باعترافات.

- إذا كان قد أدلى بأيّ اعتراف، فإنّه سينفي كلّ ما قد أدلى به تحت التعذيب الجسدي والمعنوي، لأنّ هناك أيضاً تعذيباً معنوياً، وهو ما أجبره على الإدلاء للكارابينييري بما يجافي الحقيقة؛ وللدلالة على أنّ تلك الإفادات للكارابينييري عاريةٌ عن الصحّة ومن صنع الخيال. نورد شهادات فُلانٍ وعلان، وهم أشخاص محترمون، موثوقٌ بكلامهم، يشهدون على استحالة أن يكون دييغو هو مَن اقترف جريمة قَتْل كولاسبيرنا. ليس بمقدور أحد من خارج قافلة القدّيسين أن يتواجد في الوقت ذاته في مكانَين مختلفَين وبعيدَين عن بعضهما، ولا أعتقد بأنّ القاضي سيأخذُ في اعتباره بأنّ لدى دييغو أيّاً من خصائص القداسة. ثمّ، ألقِ نظرة على هذه الجريدة، وهذا الخبر القصير المنشور فيها،

(الدَّرَك تتجاهل إحدى الاحتمالات الكامنة وراء جريمة بلدة "S").

كان النقيب بيلّودي يُطالع ما أوردتهُ الجريدة الصقلّيّة عن المسار الذي تجاهلهُ الدَّرَك في التحقيقات. كانت تلك الجريدة دائمة التأنّي والحذر في تحريك أيّ شكٍّ حول ما قد تتجاهله سلطات الأمن في التحقيقات. كان الخبر يتحدّث عن المسار العاطفي والخيانة الزّوجيّة، بطبيعة الحال، وإذا ما انساقَ أحدٌ وراء هذا الافتراض، وهو يجهل ما قد تمّ الوصول إليه من معطيات خلال التحقيق، فإنّه سيُحيل واحدة من تلك الجرائم الثلاث إلى المسار العاطفي والخيانة الزّوجيّة، تاركاً في ظلّ الغموض المطبَق الجريمَتين الأخريَين. ربّما ذهب الصحفيّ، خلال تواجده في بلدة "S"، إلى دكّان الحلاقة الذي يُديره دون تشيتشو، واستثيرت مُخيّلته بحكاية القصّة الغرامية ما بين زوجة نيكولوزي وجابي مؤسّسة الكهرباء پاسّاريلّو. ابحثوا عن المرأة، قال الصحفيّ، وبتحصيل الحاصل، كأيّ صقلّي نموذجي، أشار في مقالته القصيرة، بأنّه كان ينبغي على مُحققي الدَّرَك أن يمنحوا ذلك المسار الأهمّيّة التي يستحقّها. كان النقيب يفكّر في سرّه بأنّ العثور على المرأة في صقليّة، لمثل هذه الجريمة ليس أمراً عسيراً على الإطلاق، بل هو سهلٌ للغاية حتّى وإنْ قاد ذلك إلى الإضرارِ بالعدالة.

الجريمة العاطفيّة في صقليّة، كان النقيب بيلّودي يتأمّل، لا تُولَد من العشق الحقيقي أو من هوى القلب، بل تُولَد من شكل من أشكال الهَوَس الذّهنيّ، ومن سعي مهووس وراء الالتزام بشكليّات القانون، إن جاز التعبير، بمعنى أن التجريد المتواصل الذي تتشذّب خلاله مفعوليّة

القوانين في المحاكمات بدرجاتها المختلفة المقرورة في منظومتنا القضائية، وتبلغ درجة الصفاء الشكلي، وحيث يُهمل الاستحقاق وتُجرّد الأحداث من ثِقلها الإنساني؛ وعندما تُقصى عنه صورة الإنسان، يُصبح القانون مجرّد مرآة، يرى فيه ذلك القانون صورته بمفردها(80).

وخَلُص النقيب إلى القناعة بأن ذلك نابعٌ من كون "العائلة" بمثابةِ المؤسّسةِ الوحيدة القائمة والحَيّة في وعي الصقلّيّ، وهي حيّة بمقدار كونها تشابكاً دراماتيكياً كعُقدة قانونيّة، أكثر من كونها تلاقياً طبيعياً وعاطفياً. فالعائلة هي دولة الصقلّيّ. أما ما يُمثّل الكيان الذي نرى فيه نحن الدولةَ، فهو هناك، في الخارج، وتلك الدولة، بالنسبة إلى الصقلّيّ، كيانٌ تَشَكّل بفعل السطوة(81)؛ وهي كيانٌ يجبي الضرائب، ويفرض الخدمة العسكريّة، ويُطلق العنان للحروب، ويبعث برجال الدَّرَك لتنفيذ قرارات الاعتقال. في داخل تلك المؤسّسة، التي هي العائلة، يتجاوز الصقلّيّ حدود وحدته الموروثة والمأساوية، ويتوافق ليتمكّن من التعايش فيما بين مكوّنات الخليّة العائليّة، عبر منظومة دقيقة من العلاقات. قد يكون مُبالغاً فيه أن يُطالبَ الصقلّيّ بتجاوز الحدود الفاصلة ما بين العائلة والدولة. وقد يتحمّس أحياناً لفكرة الدولة وقد يرتقي ليصل إلى رأس الحكومة، لكنّ العائلة تبقى لديه الشكل الأدقّ والأكثر وضوحاً فيما يتعلّق بالحقوق والواجبات، فهي الوحيدة التي تُتيح المسار الأقصر صوب وحدته المنتصرة.

كان النقيب بيلّودي يستعين بقراءاته الأدبية لرفد خبرته القصيرة في صقليّة بمفاتيح، قد تكون صحيحة أحياناً، وخاطئة في أحيانٍ أخرى.

كان جالساً في مكتبه، بانتظار أن يُحضروا إليه دون ماريانو آرينا لاستجوابه. وحين أدخل نائب العريف دون ماريانو إلى مكتبه، كان النقيب غارقاً في التفكير في تقييم المافيا، وفي كيفية امتلاكها القدرة على التماهي مع المنظومة القائمة.

قبل وصوله إلى مكتب النقيب، كان دون ماريانو طالب بحقّه في حلاقة ذقنه، فمرّر أحد رجال الشرطة الموسى على ذقنه، وشعر الرجل بانتعاش حقيقي بعد حلاقة ذقنه، ومرّر كفَّيه على وجهه مستمتِعاً بعدم ملامستهما شَعرات اللحية النابتة التي أثارت انزعاجه في اليومَين الماضيَين بذات مقدار انزعاجه من الأفكار التي جالت في ذهنه.

- تفضّل بالجلوس - قال له النقيب، فجلس دون ماريانو وهو ينظر إلى النقيب عبر جفنَين بَدَيا مُنغلقَين بثِقَل، كانت نظرةً خاليةً من التعبير، انطفأت في الحال بحركات من رأسه، كما لو أن بُؤبُؤَي ناظرَيه غارا عميقاً إلى الأعلى، وذلك بفعل حركة ميكانيكيّة.

سأله النقيب، ما إذا كانت لديه أيّة علاقة مع كالوجيرو دِيبيلّا، المعروف باسم پارّينييدّو.

فردّ دُون ماريانو متسائلاً ما الذي يعنيه بكلمة علاقة، معرفة سطحية، صداقة أم مصالح مشتركة؟

- اختز منها ما يحلو لكَ - ردّ النقيب.

- الحقيقة هي واحدة فحسب، وليس هنالك ما أختاره، كانت

معرفتي له سطحية وبسيطة.

- وما هو الرأي الذي كنتَ تحمله عن ديبيلّا؟

- كان يبدو لي شخصاً عاقلاً. ارتكب أخطاءً بسيطة في سنّ الشباب، لكنّي أعتقد بأنّه كان سائراً على الطريق القويم في الآونة الأخيرة.

- هل كان لديه عملٌ يعتاش منه؟

- أنتَ، أدرى منّي بذلك.

- أودّ أن أسمعه منكَ أيضاً.

- إذا ما كنتَ تعني بالعمل بالمسحاة أو المجرفة، كما كان عملُ والده أيضاً، فإن ديبيلّا كان يعمل بمقدار ما تفعل أنتَ أو أفعل أنا. ربّما كان يعمل كثيراً بعقله.

- وما هو، برأيكَ، العمل الذي كان يُمارسه بعقله؟

- لا أعلم؛ ولستُ مَعنيّاً بأن أعلم ذلك.

- لماذا؟

- لأنّي لستُ مَعنيّاً به، فقد كان ديبيلّا سائراً في طريقه، وأنا أسير في طريقي.

- ولماذا تتحدّث عنه كما لو كان من الماضي؟

- لأنّهم قتلوه. علمتُ بذلك قبل ساعة واحدة من وصول رجالكَ إلى

منزلي.

- إنْ أردتَ الحقيقة، فقد كان ديبيلّا هو مَنْ أرسل رجال الدَّرَك إلى منزلكَ.

- أنتَ تسعى إلى خلط الأمور في رأسي.

- كلّا، وسأريكَ ما كتبه ديبيلّا قُبيل ساعات من مقتله - وعرض عليه صورة ورقة الرسالة التي كان ديبيلّا بعثها إلى النقيب.

سحب دون ماريانو الورقة، ونظر إليها مُبعِداً إيّاها من وجهه على مدى ذراعه، قائلاً بأنّه يرى بشكل أفضل عن بُعد.

- ما رأيكَ بهذا؟ - سأله النقيب.

- لا رأي لي فيه - ردّ دون ماريانو وهو يُعيد إليه الصورة.

- لا رأي لكَ؟

- هكذا بالضبط، لا شيء من لا شيء.

- ألا يبدو لكَ هذا الأمر اتّهاماً؟

- اتّهاماً؟ - قال دون ماريانو باندهاش - يبدو لي لا شيء، قُصاصة ورقة كُتب عليها اسمي.

- هناك اسمٌ آخر.

- نعم، روزاريو پيتسوكو.

- هل تعرفه؟

- أعرف البلد بأسره.

- وتعرف پيتسوكو بشكل خاص؟

- ليس بشكل عميق، أعرفه كما أعرف الآخرين.

- أليست لديكَ مع پيتسوكو مصالح عمل؟

- اسمح لي بسؤال، أيّ نوعٍ من الأعمال تعتقد أنه لديّ؟

- أعمالٌ كثيرة، ومتنوّعة.

- أنا لا أعمال لديّ، أعيش من وارد ممتلكاتي.

- أيّ نوعٍ من الواردات لديكَ؟

- لديّ أراضٍ.

- كم هكتاراً تملك؟

- لنقُل بأنّ لديّ تسعين هكتاراً.

- وهل تمنح هذه الأراضي محصولاً وفيراً؟

- ليس دائماً، فذلك يعتمد على طبيعة الموسم.

- ما هو متوسّط الوارد الذي يُحقّقه هكتار واحدٌ من أراضيكَ؟

- أنا في العادة أترك جزءاً من أراضيّ كمرعى للماشية. لذا ليس

بإمكاني تحديد ما يُمكن أن يُدرّه الهكتار المتروك لذلك الغرض، بإمكاني أن أخبركَ بما تُدرّ لي خرافي وماشيتي التي ترعى فيها. فهي تمنحني ما يربو على نصف مليون(82). أمّا المتبقّي، فيدرّ قمحاً وباقلاء ولوزاً وزيتاً، وذلك كلّه حسب طبيعة الموسم.

- وكم هو عدد هكتارات الأرض المزروعة لديكَ؟

- ما بين خمسين إلى ستّين هكتاراً.

- وإذاً، فإنّ بإمكاني أن أخبركَ أنا بمقدار ما يُدرّه الهكتار الواحد، وهو ليس أقلّ من مليون ليرة.

- هل تمزح حقّاً؟

- لا، أنا لا أمزح على الإطلاق. أنتَ بنفسكَ أكّدتَ لي بأن لا مورد لديكَ خارج إطار ما تُدرّه أراضيكَ؛ وبأنكَ لا تتشارك في أيّة مصالح تجاريّة أو صناعيّة. وأنا أثق في ما تقول، ولذا فإنّ بإمكاني اعتبار مبلغ أربعة وخمسين مليون ليرة التي أودعتَها في ثلاثة بنوك مختلفة في العام الماضي، ولم تسحبها من حسابات في بنوك أخرى، هي ما حصلت عليه من نتاج أراضيكَ فحسب، وهي بهذا تساوي مورد مليون واحد لكلّ هكتار من الأرض. وأعترف لكَ بأن خبيراً زراعياً، استعنتُ بمشورته، فَغَرَ فاهُ متعجِّباً من هذه النتيجة، ومُعجَباً بها، لأنه ليس هنالك، حسب رأيه، أيّ أرضٍ قادرة على مَنح مورد، يزيد عن مائة ألف ليرة للهكتار الواحد. هل تعتقد بأن ذلك الخبير قد أخطأ في المعلومة التي منحها إليّ؟

- كلّا، ليس خبيركَ مُخطئاً - قال دون ماريانو وقد اكتأبت سحنته.

- وإذاً فقد انطلقنا المسير بالقَدَم الخطأ. لنعُد إذاً إلى الوراء قليلاً، من أيّ مصدر جاءت أموالكَ هذه؟

- لن نعود إلى الوراء أيّة خطوة، أنا أحرِّك أموالي كما يحلو لي. بإمكاني فقط أن أقول لكَ بأنّني لا أودِعُ تلك الأموال في البنوك دائماً، ففي بعض الأحيان، أعطي بعض الأصدقاء قروضاً دون ضمانات، وعلى أساس الثقة. في العام الماضي، عادت إليّ بعض الأموال التي كانت ممنوحة قروضاً، ولذا أدخلتُ تلك الأموال في حساباتي في البنوك.

- هناك، حيث كانت موجودة أيضاً أموالٌ في حساباتٍ باسمكَ، وأخرى باسم ابنتكَ.

- من واجب الأب أن يُفكّر بمستقبل أبنائه.

- لا غبار على ذلك إطلاقاً، وقد ضمنتَ لابنتكَ مستقبلاً ثريّاً للغاية. لكنّي لستُ متأكّداً ما إذا كانت ابنتكَ ستتمكّن من تبرير ما ضَمَنْتَ لها من ثراء. أعرف أنّها موجودة الآن في مدرسة داخلية في مدينة لوزان، وهي مدرسة باهظة التكاليف. أعتقد بأنّكَ ستراها أمامكَ قد تغيّرت كثيراً، ستكون شغوفةً، متعاطفةً ورؤومة إزاء كلّ ما تحتقره أنتَ، وستكون شديدة الاحترام إزاء كلّ ما لا تحترمه أنتَ.

- اترك ابنتي وشأنها - قال دون ماريانو وقد انقبضت قسمات وجهه واكتست بتعبير قاسٍ، نتج عن ألمٍ مفاجئ بسبب الغضب الذي غلى في

داخله إثرَ الإشارة إلى تربية ابنته، استرخى بعد ذلك بقليل، وكما لو أنّه يحاول طمأنة نفسه، قال - ابنتي تُشبهني تماماً، هي مثلي.

- مثلُكَ؟. آمل أن تكونَ مُخطِئاً، حتّى أنتَ نفسكَ، في نهاية المطاف، تفعل كلّ ما بإمكانه أن يجعل ابنتكَ مختلفةً عنكَ. وعندما ستعجز عن التعرّف إليها، لأنّها ستكون قد تغيّرت كثيراً، فإنّكَ ستدفع حينها كفّارةَ ثراءٍ تراكم عبر الاحتيال واستخدام العنف.

- هل جئتَ بي إلى هنا، لتلقي على مسامعي مواعظَ؟

- أنتَ على حقّ. فأنتَ تذهب إلى الكنيسة للاستماع إلى المواعظ، أمّا هنا، فإنّكَ ترغب في مواجهة الشرطيّ، أنتَ على حقّ دون شكّ. لنتحدّث إذاً عن ابنتكَ وما تُكلّفكَ إيّاه من أموال، من الأموال التي تُكوّمها أنتَ باسمها. الكثير، الكثير جدّاً من الأموال؛ وهي أموال تأتي من مصادر، أو لنَقُل عنها، إنّها أموال مجهولة المصدر. انظر إلى هذه الأوراق، إنّها صور طبق الأصل لقسائم مصرفية عن حسابات باسمكَ وباسم ابنتكَ، عثرنا عليها في عدد من المصارف والبنوك، وكما ترى، فإنّنا لم نُقصِر بحثنا فقط على فروع البنوك الموجودة في بلدتكَ، بل ذهبنا أبعد من ذلك، ذهبنا حتّى إلى پاليرمو(83). وقد عثرنا على أموال كثيرة، هل بإمكانكَ أن توضّح لي مصادر تلك الأموال؟

- وهل بإمكانكَ أنتَ أن توضّح ذلك؟ تساءل دون ماريانو دون أن يرمش له جفن.

- سأحاول، لأنّ عليّ أن أدقّق في الأموال التي كوّمتها أنتَ بشكل غير

مشروع، وأتحرّى في المسبّبات القائمة وراء عمليات القتل التي أجري تحقيقاتي حولها الآن؛ وهذه هي الأسباب التي عليّ توضيحها بشكلٍ أو بآخر في الاتّهامات التي سأوجّهها إليكَ، بِعَدِّكَ الطرف المُحرّض على اقتراف عمليات القتل. سأحاول. لكنْ، يجب عليكَ، في أيّ حالٍ من الأحوال، أن تُفسّر لدائرة الضرائب، التي ستحوّل إليها هذه الوثائق في الحال، عن مصادرها.

أتى دون ماريانو بحركة تُدلّل على اللامبالاة.

- لدينا أيضاً نسخة من كشفكَ الضّريبي ووثيقة دائرة الضرائب بهذا الشأن. فقد أعلنت عن مورد.

- مورد معادل لما أتقاضاه أنا - تدخّل نائب العريف.

-. ودفع من الضرائب.

- أقلّ بقليل ممّا دفعتُهُ أنا - أضاف نائب العريف مُجدّداً.

- أترى؟ قال النقيب - هناك أمورٌ كثيرة تحتاج إلى توضيح، وعليكَ أن تقوم بتفسيرها.

جدّد دون ماريانو إيماءة اللامبالاة السابقة.

"هذه هي النقطة الحقيقيّة" فكّر النقيب في داخله - إنّها النقطة التي ينبغي تركيز الجهد عليها، لا نفع في حصار رجلٍ مثله في زاوية الجُرم الجنائي، لن تكون جميع الأدلّة الجرمية بحقّه كافية، لأنّه سيحتمي دائماً بظلال صمت الشرفاء والساقطين معاً. ثمّ لا نفع أبداً، أو ربّما

سيكون خطيراً التفكير بتعليق الحقوق الدستوريّة، فـ "كولونيل موري" جديد سيتحوّل في الحال إلى أداة سياسيّة - انتخابية، وبدلاً من أن يكون ذراعاً للنظام، سيكون ذراعاً لفصيل واحدٍ من ذلك النظام، فصيل مانكوزو - ليفيئي، أو فصيل شورتينو - كاروزو(84). هنا ينبغي مفاجأة البعض من أؤلئك الذين يختبئون في كهوف التّهرّب الضرائبي، بالضبط كما يحدث في أمريكا. لكنّ لا ينبغي أن يقتصر ذلك الحصار على ماريانو آرينا فحسب، وليس على صقليّة فحسب. ينبغي، الإغارة على البنوك بشكل فجائي؛ ووضع يدِ خبراء ضرائبيّين في الملفّات الحسابيّة، وهي، في الواقع، تُشبه حقيبةً بقاعَين مزدوجَين(85)، سواء للشركات الصغيرة أو الكبيرة، وإعادة النظر في وثائق الملكيّات وسجلّات الشهر العقاري. مراقبة الثعالب الهرمة والفتيّة، التي تسعى إلى استهلاك حاسّة الشمّ، للكشف عن الأفكار السياسيّة أو الاتّجاهات الحاكمة، وعن لقاءات العائلة الكبيرة، التي هي النظام بعينه ومِنْ خلفه أقارب العائلة وأعداء العائلة. سيكون من المفيد أن تُطلَقَ حاسّة الشمّ للتدقيق حول الفيلّات، وفي السيّارات الفارهة باهظة الأثمان، حول زوجات وعشيقات بعض كبار الموظّفين، ومقارنة كلّ مؤشّرات الثراء تلك مع ما يتقاضونه من رواتب ورسم صورة واضحة للوضع. بهذه الطريقة فحسب، تبدأ الأرض بالاهتزاز تحت أقدام أشخاص مثل ماريانو آرينا. ففي أيّ بلدٍ آخر في العالم، يُعاقب جُرمُ تهرّبٍ ضرائبي، كالذي بدأت باكتشافه هنا، في الحال وبحزمٍ وقسوة، أمّا هنا، فإنّ دون ماريانو يتضاحك بلامبالاة مُطلقة، ويعلم جيّداً بأنّ في مقدوره قلب

الأوراق وبعثرتها في رمشة عين".

- أرى بأنّ ما يمكن أن تتّخذه دوائر الضرائب بحقّكَ من إجراءات ليست من الأمور التي تُقلقكَ.

- لم يعد هناك ما يُقلقني.

- ولِمَ ذلك؟

- أنا إنسانٌ أمّيٌ؛ لكنّي أعرف أمرَين أو ثلاثة، وهي ما يكفيني، الأمر الأوّل من بين ما أعرف هو أنّ لنا ما تحت الأنف فماً، يفيدنا للأكل أكثر ممّا يفيدنا للكلام.

- لي فمٌ أنا أيضاً، ما تحت الأنف. - قال النقيب - لكنّي أضمن لكَ بأنّني آكل فقط ما تسمّونه، أنتم الصقلّيّون، خبز الحكومة.

- أعلم ذلك، لكنّكَ رجل.

- وماذا عن نائب العريف؟ سأل النقيب بنبرة ساخرة مؤشّراً بأصبعه إلى نائب العريف دانتونا.

- لا أعلم - قال دون ماريانو وهو يحدّق بنائب العريف بنظرة متفحّصة، أثارت استياءَ العسكري.

- لديّ - واصل دون ماريانو قوله - لديّ أنا، قَذرٌ من المعرفة بالعالم؛ وما اعتدنا على تسميته بالإنسانية، وهي كلمة جميلة، لكنها منفوخة بالريح فحسب(86)، أنا اعتدتُ على تقسيم الإنسانيّة إلى خمسة

أصناف البشر، الرجال الحقيقيون، أنصاف الرجال، الرجال الأقزام، ومع كلّ احترامي لكَ، ثمّة القوّادون، والـ Quaquaraqua(87). الرجال الحقيقيّون نادرون للغاية، وثمّة القليل من أنصاف الرجال، وسأكون سعيداً لو توقّفت الإنسانية عند أنصاف الرجال، لكنْ، لا، للأسف الشديد، ثمّة جمهرةٌ واسعة من الرجال الأقزام، وهم يُشبهون الأطفال الذين توهّموا أنفسهم رجالاً بالغين، في حين هم عبارة عن قرود تُقلّد حركات الكبار. وما دون أولئك ثمّة الكثير والكثير من القوّادين، ويبلغ عددهم أكثر من جحافل جيش كبير. وفي قاع هذا التسلسل ثمّة الـ البطباطون، وهؤلاء ينبغي أن يعيشوا في البِرَك كما البطّ. لأن حياتهم خالية من أيّ معنى أو تعبير، بالضبط كما هي حياة البطّ. وأنتَ، وحتّى لو دَقَّقْتَ المساميرَ في أطرافي، كما فعلوا مع يسوع المسيح، فستظلّ، بالنسبة إليّ، رجلاً حقيقيّاً.

- أنتَ أيضاً - قال النقيب، وشعر في الحال بقَدْرٍ من الانفعال، بسبب تحيّة السلاح تلك التي تبادلها مع عرّابٍ للمافيا. وللتخفيف من وَقْع ذلك على نفسه، استذكر مصافحته يَدَي الوزير مانكوزو والبرلماني ليفينّي خلال صخب الاحتفال بالعيد الوطني، حيث كانا محاطين بالأعلام والأبواق كرموزٍ ممثّلة للوطن، كان بيلّودي واثقاً من أنّ ماريانو آرينا يبزّ مانكوزو وليفينّي كرجل. وبعيداً عن الأخلاق وعن القانون وعن مشاعر الشفقة التي يشعر بها إزاءه في هذه اللحظة، فهذا الرجل عبارة عن كومة من الطاقة البشريّة التي لا مثيل لها، لكنّه أيضاً نموذج حَيّ لمَنْ يشعر بالوحدة القاسية وبطاقةٍ مأساويةٍ غامضةٍ

عمياء، وكما يسعى الأعمى إلى أنْ يبني داخل ذهنه عالماً غامضاً من الأشياء التي تُحيط به، فقد كان دون ماريانو يُعيد تشكيل عالم المشاعر والقانون والروابط الإنسانية. لكنْ، أيّة فكرة يمكن أن يمتلكها رجلٌ مثل دون ماريانو عن العالم، إذا ما كان صوت القانون حواليه قد خُنِقَ باستخدام القوّة، ولم تذهب رياح الأحداث أبعدَ من تلوين الكلمات المُعبّرة عن واقعٍ جامدٍ وعفن؟

- ولماذا تراني رجلاً حقيقيّاً، وليس نصف رجل أو حتّى شخصاً بَظباطاً -؟ سأل النقيب بحدّيّة مُستاءة وواضحة.

- لأن - قال دون ماريانو - بإمكان مَنْ يقف في مكانكَ الآن أن يدوس بقَدَمه على رأس رجل، في حين تتعامل أنتَ مع الآخرين باحترام. من أناس كانوا يقفون في مكانكَ وفي مكان نائب العريف، تعرّضتُ منهم قبل سنواتٍ عديدة إلى إهانةٍ أقسى من الموت نفسه، ضابطٌ مثلكَ صفعني على وجهي، وأرسلني إلى زنزانة التوقيف، ورئيس عرفاء كان يُطفِئ شعلة سيغاره على ظاهر قَدَمي، كان يتضاحك وهو يفعل ذلك. كنتُ أُسائل نفسي دائماً، أبالإمكان أن يخلُدَ إنسانٌ إلى النوم بعد أن تعرّض إلى هذه الإهانة؟

- وإذاً، فأنا لم أقدِمْ على إهانتكَ؟

- كلّا، أنتَ رجلٌ حقيقيّ - جدّد دون ماريانو تأكيده ثانيةً.

- وهل تعتقد أن من الخصال الحقّة لرجلٍ حقيقي أن يُقدِم على قَتْل إنسان أو أن يُحرّض إنساناً على قَتْل آخر؟

- أنا لم أفعل شيئاً من هذا القبيل أبداً. لكنْ، إذا رغبت أن تسألني، لمجرّد قضاء الوقت أو الحوار حول أمور الحياة، ما إذا كان عادلاً أنْ تُسلب حياة رجل، أجيبك، قبل كلّ شيء ينبغي أن نرى ما إذا كان ذلك الرجل، رجلاً حقيقياً بالفعل.

- هل كان ديبيلّا رجلاً؟

- كان بَطباطاً عاديّاً - قال دون ماريانو باحتقار - كان قد ترك حبله على الغارب، فالكلمات ليست كالكلاب التي يمكن أن تأمرها بالمجيء إليك بمجرّد إطلاق صفير.

- وهل كانت لديكَ أسبابٌ مُحدّدة لتصنيفه بهذا الشكل؟

- لا سبب لذلك أبداً، فأنا كنتُ أعرفه بشكل سطحي.

- ومع ذلك، فإن تقييمكَ له في غاية الدقّة، وينبغي أن تكون لديكَ مُعطيات جوهرية لهذا التقييم. ربّما لأنّكَ كنتَ تعرف بأنّه كان جاسوساً ومُخبِراً للدَّرَك.

- لم يكن ذلك يعنيني في شيء.

- لكنّكَ كنتَ على علم بذلك.

- كانت البلدة بأسرها على علمٍ بذلك.

- ما أحلى مصادرنا للمعلومات! - قال النقيب ساخراً وقد استدار صوب نائب العريف، ومن ثمّ إلى دون ماريانو:

- تُرى هل كان دييبيلًا يُقدّم خدمات لبعض أصدقائه من خلال انتقائيته في منح الشرطة بعضاً من معلوماته الإخبارية. ما رأيكَ؟

- لا رأي لي في ذلك.

- لكن، ربّما للمرّة الأولى في حياته، ترك دييبيلّا، قبل بضعة أيّام، لمعلومة حقيقيّة للخروج من فمه، بينما جاء إلى هذا المكتب، وجلس على الكرسي نفسه الذي تجلس عليه الآن. كيف تمكّنتَ من معرفة ذلك؟

- لم أعرفه، وعندمَا عرفتُ بذلك لم أشعر لا بِحَرٍّ ولا بِبَرْدٍ.

- ربّما شعر دييبيلا بخطيئته، فجاء إليكَ ليعترف بالخطأ الذي ارتكبه.

- كان شخصاً يشعر بالخوف، لا شخصاً يشعر بالندم، ولم يكن لديه أيّ سبب ليأتي إليّ.

- وهل أنتَ رجلٌ يشعر بالندم؟

- لا أشعر لا بالندم ولا بالخوف. أبداً.

- بعض أصدقائكَ يقولون بأنكَ رجلٌ مؤمنٌ للغاية.

- أرتاد الكنيسة، أتبرّع بالأموال لصالح ملاجئ الأيتام.

- وهل تعتقد بأنّ ذلك يكفي؟

- بالتأكيد يكفي، الكنيسة ضخمة، لأن الجميع يتواجدون داخلها، كلٌّ بطريقته.

- وهل قرأتَ الإنجيل أبداً؟

- أسمعه يُقرَأ في الكنيسة كلّ يوم أحد.

- وكيف يبدو لكَ؟

- كلمات جميلة، كلّ الكنيسة عبارة عن جمال حقيقي.

- وفق ما أرى، فإنّ الجمال لديكَ لا يتقاطع مع الحقيقة.

- الحقيقة تكمن في عمق البئر، فإذا ما نظرتَ إلى عمق البئر، فإنّكَ سترى الشمس والقمر؛ لكن، إذا ما رميتَ نفسكَ في البئر، فلن تجد لا القمر ولا الشمس. هناك ستجد الحقيقة(88).

بدأ نائب العريف يشعر بالضجر والإنهاك، فقد كان يشعر بنفسه كما الكلب الذي عليه اتّباع خطوات الصّياد في أرض قاحلة وهو يشمّ رائحة بعيدة لفرائس غائبة، مسار طويل مليءٍ بالمنعرجات، يبرز منه الموتى المقتولون فحسب، وبعد ذلك مباشرة كان المشهد يستطيل ليشمل الكنيسة والإنسانية والموت. بدا له ذلك الحوار مشهداً في نادٍ لقضاء الوقت، اللعنة، وهذا كلّه بمَعِيَّة مجرم.

- وهل ساعدتَ أناساً كثيرين في العثور على الحقيقة في عمق بئرٍ ما؟

وسّع دون ماريانو عينَيه الباردَتَين مثل قطعَتَي نقودٍ، سُكَّتا بمعدن النيكل. حدّق بالنقيب، ولم يفُهْ بأيّ شيء.

واصل النقيب: وكان دييبيلًا قد بلغ الحقيقة عندما كتب على تلك الورقة اسمكَ واسم پيتسوكو.

- عن أيّة حقيقة تتحدّث؟ لقد كان قد بلغ مرحلة الجنون.

- لم يكن مجنوناً. لقد طلبتُ حضوره مباشرةً بعد مقتل كولاسبيرنا، كنتُ قد حصلتُ على معلومات مجهولة المرسِل، أتاحت لي فرصة الربط ما بين الجريمة وبعض المصالح. علمتُ بأن البعض كانوا قد وجّهوا إلى كولاسبيرنا تهديدات، وبلغ بهم الأمر إلى إطلاق النار صوبه لتحذيره، سألتُ دييبيلًا ما إذا كان بإمكانه أن يوفّر لي معلوماتٍ عن هويّة هؤلاء الأشخاص الذين هدّدوا كولاسبيرنا. كان يشعر بالضياع، لكنْ، ليس إلى درجة العجز، فقد ذكر لي اسمَ شخصين، كان أحدهما، كما خمّنتُ، لغرض خَلْط الأوراق وجعلي أُضيّعُ الدرب. كنتُ أُريد حمايته، ولم يكن مسموحاً لي أن أخطِئ بتوقيف كلا الشخصَين اللذَين أسرّ إليّ باسمَيهما. كان عليّ أن أُوقِفَ واحداً منهما، وبما أنّهما كان ينتميان إلى عصابَتَين مختلفَتَين. كان عليّ التأكّد المطلق من هدفي، فإمّا لاروزا أو پيتسوكو؛ في الغضون، بَلَغَنا خبر اختفاء نيكولوزي، وذُهشتُ لتزامن عدد من المصادفات. وكان نيكولوزي قد ترك اسماً قبل اختفائه. ووقع في قبضتنا شخصٌ اسمه دييغو ماركيكا، وأنتَ تعرفه بالتأكيد، وقد اعترف بجريمته.

- دييغو؟ - انفجر دُونْ ماريانو غير مُصدِّقٍ بما يسمع.

- دييغو - أكّد النقيب النبأ، وطلب من نائب العريف أن يتلو على دون

ماريانو اعترافات ماركيكا.

استمع دون ماريانو إلى تلاوة الاعتراف وهو ينفث، ليس كالمصاب بالربو، بل كَمَنْ يغلي في داخله غضب جسيم.

- دييغو، كما ترى، أوصلَنا إلى پيتسوكو دون الحاجة إلى أن نتضرّع إليه، وأوصلَنا پيتسوكو إليكَ أنتَ.

- حتّى الربّ نفسه لا يستطيع أن يوصلكم إليَ - قال دون ماريانو بثقة.

- لديكَ اعتبار كبير لپيتسوكو - استنتج النقيب.

- ليس لديّ أيّ اعتبار لأيّ أحد، لكنّي أعرف الجميع.

- لا أرغب في إثارة خيبة أملكَ فيما يتعلّق الأمر بپيتسوكو، فقد خيّب آمالكَ أكثر بكثير ممّا فعله دييغو.

- ليس إلّا قوّاداً - قال دون ماريانو، وكان وجهه قد اضطرب بتعبير اشمئزاز فاضح، وكان ذلك مؤشّراً على انهيار غير مُنتظر.

- ألا ترى بأنّكَ تظلمه شيئاً ما؟ فدييغو لم يُشِ إليكَ.

- وما صلتي أنا بالموضوع؟

- وإذاً، لماذا تغضب، إنْ لم تكن لكَ صلةٌ بالموضوع؟

- أنا لا أغضب، أشعر بالأسى لپيتسوكو، لأنّه رجلٌ صحيح. لكنّي أفقد طمأنينتي عندما أشاهد ما هو مُثيرٌ للخزي.

أيإمكانكَ أن تضمن بأنّ ما قال ماركيكا بحقّ پيتسوكو زائف وكاذب بالمطلق؟

- ليس بإمكاني ضمان أيّ شيء، ولا حتّى ورقة ضمان لقطعة "غرانو"(89).

- غير أنّكَ لستَ واثقاً بأنْ يكون پيتسوكو مُذنباً.

- لا أثق بذلك.

- وما رأيكَ إنْ كانَ پيتسوكو نفسه هو مَنْ يعترف بذلك الذنب، ويُشير إليكَ أنتَ كشريك له في الجريمة؟

- إذاً، أقول بأنّه فَقَدَ عقله بالكامل.

- ألمْ تُكلِّف أنتَ بيتسوكو بترتيب أوضاع كولاسبيرنا بالحسنة أو بالسّيّئة؟

- كلّا.

- أوليسَت لديكَ مشاركات أو مصالح في شركات إنشائية معمارية؟

- أنا؟ لن يحدث ذلك حتّى في الأحلام.

- أولَمْ تكن أنتَ مَنْ أوصى لصالح حصول شركة زميرولدو على مُناقصة كبيرة، وقد أُنيطت إليها بوسائل، يمكننا تسميتها بـ "غير المعتادة"؟، وقد حدث ذلك بفضل وساطتكَ أنتَ.

- كلّا. بل نعم، لكنّي أمنح آلاف التوصيات.

- وما نوع هذه الوساطات؟

- من الأنواع كلّها، المناقصة، الوظيفة في البنك، شهادة المدرسة الثّانويّة، الإعانة الماليّة.

- وإلى مَنْ تتوجّه لعرض وساطاتكَ؟

- إلى الأصدقاء القادرين على تحقيق الأمر.

- لكنْ، مَنْ هم مَنْ تتوجّه إليهم في الغالب؟

- إلى الذي أعدّه صديقاً لي؛ إلى مَنْ بمقدوره تحقيق الأفضل.

- ولا تُحقّق من هذه الوساطات أيّ نفع شخصي، بعض الوارد أو بعض علامات ردّ الجميل؟

- أحقّق من خلالها صداقات.

- ومع ذلك، في بعض الأحيان.

- في بعض الأحيان، في عيد الميلاد مثلاً، يحملون إليّ حلوى الـ "كاسّاتا" الصقلّيّة.

- أو يحملون إليك شيكاً مصرفياً، المحاسب القانوني مارتيني، من شركة زميرولدو، يتذكّر جيّداً الشيك الذي كان يحتوي على رَقْم عالٍ، عَنونَهُ المهندس زميرولدو باسمكَ؛ وقد مرّ ذلك الشيك عبر أناملكَ. أكان ذلك مقابل الجميل الذي أسديتَهُ للشركة بالحصول على المناقصة

الضخمة أم أنّ الشركة استعانت بكَ لخدمات أخرى؟

- لم أعد أتذكّر؛ ربّما كان ذلك الشيك إعادة لقرضٍ سابق.

- سنُوقِف المهندس زميرولدو، طالما أنّكَ لم تعد تتذكّر.

- هذا أفضل بكثير، وهكذا لن أجهِد ذهني بمحاولة التذكّر. أنا طاعنٌ في السّنّ، وذاكرتي تكبو في بعض المرّات.

- أبإمكاني أن أستعين بذاكرتكَ، على الأقلّ، بخصوص حادث وقع قبل وقتٍ قصير للغاية؟

- فلنرَ ذلك.

- المناقصة الخاصّة بتشييد طريق مونتيروسّو - فالكوني، إذا وضعنا جانباً مسألة أنّكَ حصلتَ على تمويل لطريق غير ذي فائدة على الإطلاق، وعلى مسار مستحيل، ولدينا الإثباتات بأنّكَ أنتَ مَنْ حصل على ذلك التمويل، كما يتّضح من المقال الذي نشره مراسلُ جريدةٍ من هناك، حيث كان يمتدح جهدكَ في هذا الإطار؛ إذا استثنينا هذا كلّه، ألم تحصل شركة فاتزيلّو على تلك المناقصة بفضل وساطتكَ؟ هذا ما أكّده لي السيّد فاتزيلّو، ولا أعتقد بأنّ لديه أيّ سبب للتلفيق في هذا الإطار.

- لا، ليس لديه أيّ سبب.

- وهل تمكّن من ردّ الجميل إليكَ، وبأيّ شكل؟

- وكيف لا؟ لقد حضر أمامكَ ليَشيَ بي عبر هذه القصّة، لقد دفع لي حقوقي جميعَها، بل زاد عليها فوائدها.

كانا قد استلما بطاقتَي الدخول من المدخل الكائن في شارع "ديلا ميسيوني"،(90) قبل ساعة كاملة من بدء الجلسة البرلمانيّة. جالا داخل الـ غاليريا(91)، ودخلا مقهى بيراردو، ثمّ توقّفا عند الأكشاك، ليقرءا إعلانات الصحف المعلّقة على جدرانها. كانت روما تتلفّع بسِخر ضياءٍ متعدّد الألوان، وكان الهدوءُ سائداً في المكان، ولا يقطعه إلّا المرور المتقطّع للسيّارات وصرير عجلات الترام على السكك الحديدية. وبدت لهما صيحات باعة الصحف، واسم بلدتهما الوارد في تلك الصيحات مُرفقاً بالجرائم المقترفة، في غاية الغرابة والبُعد. كانا قد غادرا البلدة منذ يومَين فحسب، وقد تحدّثا مع محامِيَي دفاع مشهورَين ومختصَّين في الدفاعات الجنائية، كما تحدّثا مع وزيرٍ وأربعة أو خمسة نوّاب في البرلمان، إضافة إلى ثلاثة أو أربعة هاربين من وجه العدالة، تتحرّى الشرطة عنهم، لكنهم ينعمون بالصفاء الذهبيّ في مقاصف وبارات حَيّ "تيستاتشو"(92)، كان الرجلان يشعران بقَدْرٍ من الطمأنينة، وكانت دعوة صديقهم البرلماني لهما لحضور الجلسة المُخصّصة لردّ الحكومة على الاستجوابات بشأن الأمن العامّ في صقليّة، بمثابة الخاتمة السعيدة لزيارتهما إلى روما بعد نهارٍ مُضنٍ وشاقّ. كانت صحف المساء تُشير إلى أن توقيف ماركيكا وپيتسوكو وآرينا تحوّل إلى حبس، ووُجّهت إليهم بعض التُهم، فقد أصدر النائب العامّ مذكّرات الحبس بشأنهم. ووضحَ من التسريبات التي اطّلع عليها الصحفيّون بأنّ ماركيكا أدلى باعترافاته عن عملية اغتيال واحدة مُحمّلاً پيتسوكو وِزرَ الاغتيال الثاني، وبأنّ پيتسوكو اعترف بتورّطِ

غير متعمّد في الاغتيالَين اللّذين نفّذهما ماركيكا، وليس في واحد منهما، كما جاء في اعترافات ماركيكا؛ وتسرّب أيضاً خبرٌ يُفيد بإحجام آرينا عن الاعتراف بشأن أيٍّ من هذه الأحداث، كما لم يُشر ماركيكا أو بيتسوكو إلى أيّة مسؤولية له فيما حدث. إلّا أن النائب العامّ الذي أصدر أوامر الحبس في حقّ ماركيكا وپيتسوكو بتهمة القتل العمد، أصدر بحقّ آرينا أمر الحبس، بتهمة التكليف والتحريض على القتل.

كان الوضع سيّئاً للغاية، لكنّ مَرأى روما بضيائها الصافي في تلك الساعة، وعلى خلفية جمال النساء العابرات في شوارع المدينة الناعسة بسعادة، والفيترينات العامرة التي بدت وكأنّها تُزيّن بجمال ألوانها فقاعة صابون؛ ذلك كلّه جعل من أوامر الحبس الصادرة في صقليّة، تبدو وكأنّها تُحلّق في الفضاء رشيقة كطائرات ورقية ملوّنة شبيهة بموكب من العربات الملوّنة المحلّقة فوق سماء مسلّة مارك آوريليو(93).

وحلّت الساعة. فدلف الاثنان في الممرّ السّفليّ العابر صوب الجانب الآخر من الميدان الغارق في فيض الضياء متعدّد الألوان والصادر من الواجهات الزّجاجيّة المُضاءة بالنيون. كانا يُثيران انتباه المارّة، كما لو أنّهما نُصبان متحرّكان، يرتديان معطفَين بلون غامق ثُبّتت على صدرَيهما شارات للحِداد، سحنتاهما داكنتان كدُكنة وجه قدّيس بلدة "S"، تبادلا فيما بينهما ضربات المرفقَين الصامتة ونظرات مندهشة وهما يؤشّران لمرور نساء جميلات، خطواتهما كانت سريعة ومتعجّلة، فتوقّعهما كثيرٌ من المارّة بأنّهما عنصران من الشرطة السرّيّة يلاحقان

سارقاً. إلّا أنّهما، في الحقيقة، كانا يشكّلان، معاً، جزءاً من فصول "قضيّة الجنوب"(94).

حدّق حرّاس بوّابة مجلس النوّاب فيهما بريبة، فحصوا بطاقتَيهما، ودقّقوا في هويّتَيهما الشّخصيّتَين؛ وطلبوا منهما خلع المعطفَين، ورافقهما أحد الحرّاس إلى المقصورة العليا في المجلس والشبيهة بمقصورات المسارح الكلاسيكيّة. المقصورة مخصّصة للعامّة، وتُطلّ على الصالة التي تُجرى فيها المواجهات البرلمانيّة. إلّا أنّ الصالة نفسها لم تكن تُشبه مسرحاً، فقد أطلّا من مكان أشبه بحافّة قِمْعٍ ضخم، وما تحته يُشبه كُثيّباً من النّمالِ المتحرّكة، كما لو كانت رملاً سائلاً. كانت أضواء المكان شبيهةً بضياء بلدتهم حين تكون العاصفة آيلةً إلى هبوب، إذ تتكدّس في سماء البلدة غمامات، تحملها وتدفعها رياح الصحراء، ثمّ تغلي ببطء، وتبدأ بعكس مزيج من ضياء ماء المطر والرمل معاً. كان الضوء النابع من ذلك المجلس يبعث لوناً مثيراً، يمنح الناظر إليه الإحساس، بكون سطوح الأشياء قد غُطّيت بحرير ملتمع.

وقد استغرقهما وقت طويل قبل أن تتشكّل في ذهنَيهما معاني المفاهيم المجرّدة لليسار والوسط واليمين، وأن تتوضّح لهما تضاريس المجلس عبر الوجوه الأكثر شهرة. فعندما ظهر وجه تولياتي(95)من وراء صفحات جريدة مفتوحة، عرفا بأن تلك هي البقعة المخصّصة لليسار. ثمّ حرّكا رأسَيهما صوب الوسط بهدوء دائري كالفرجار، توقّفا طويلاً على وجه پييترو نيني(96)ووجه آمينتوري فانفاني(97)؛ ومن ثمّ البرلماني الذي وفّر لهما فرصة مشاهدة هذا العرض. بدا

وكأنه ينظر صوبهما، فلوّحا له بإشارة من يَدَيهما، لكن البرلماني لم ينتبه إلى تلك الإشارات، فَمَنْ يدري إلامَ كان ينظر، أو فيمَ كان يفكّر في تلك اللحظة. ما أثار انتباه وفضول الرجلَين أكثر من غيره، هي الحركة الدؤوبة لخَدَم المجلس وتنقلهم المتواصل من مقعد إلى آخر، كانت تلك الحركة تبدو وكأنّها هي ما يمنح الصالة ميكانيكيّةً شبيهةً بنول الغزل. وكانت تصل إليهما في الأعلى أصداء همهمة متواصلة ومتجانسة، بدت وكأنها تنتمي إلى فراغ الصالة أكثر من انتمائها إلى حضور مجاميع الناس المنهمكين والمنتشرين ما بين صفوف المقاعد في أرجاء ذلك المسرح الدّائريّ.

وما بين الفينة والأخرى كانت تُسمَع رنّات جرس. ثمّ ابتدأ صوتٌ بالطوفان في بحر الضياء الرّمليّ ذاك، وبدا وكأنه صار يعلو مثل بُقعة الزيت فوق السطح بالتزامن مع ارتفاع الهمهمة العامّة داخل الصالة الكبيرة. لم يتمكّنا من تحديد مصدر ذلك الصوت، حتى اللحظة التي أطلق فيها الرئيس رنّات ناقوسه الصغير، هبطت عيناهما إلى المكان الذي يبدو أنّه مُخصّص لجلوس أعضاء الحكومة، وتساءلا ما إذا كان مَنْ يجلس إلى جوار المتحدّث هو الوزير پيلا(98).

- نُطالب بحضور الوزير - كان نوّاب اليسار يهتفون.

- اتركوه، بحقّ المسيح، أن يُكمل مداخلته - قال أحد الرجلَين، لكنّه فعل ذلك همساً في أذن صاحبه.

تركوه يُواصل مداخلته.

قال نائب الوزير(99) بأن الحكومة لا ترى بأن وضع الأمن العامّ في صقليّة يُشكّل مصدر قلقٍ مُحدّد بعينه.

ضوضاءٌ واحتجاجاتٌ انطلقت من مقاعِد اليسار، وكانت الضوضاء آيلة إلى الاستكانة وإلى الهدوء عندما انطلقت صرخة من مقاعد اليمين - كان الناس في صقليّة قبل عشرين سنة ينامون وأبواب منازلهم مفتوحة.

فما كان من نوّاب اليسار وجزءٍ من الوسط إلا ونهضوا متدافعين وصارخين. وتدلّى الرجلان بجذعَيهما إلى خارج حافّة الشرفة لمشاهدة الفاشيّ الذي يصرخ بصوت يُشبه ثُغاء الثور ويقول - نعم، قبل عشرين عاماً كان الأمن والنظام مستقرّين ومستكينّين في صقليّة، وأنتم دمّرتُم كلّ شيء - وحرّك أصابع الاتّهام بشكل دائري صوب تولياتّي وفانفاني.

كان الرجلان يريان من موقعَيهما في الأعلى صلعة النائب الغاضب، ويده المُتّهِمة. وتوافق كلاهما في تعليق موحّد، همسا به فيما بينهما - نعم، نظام القرنَين اللّذَين تحملهما على رأسكَ(100).

كانت رنّات ناقوس رئيس الجلسة طويلة ومهتاجة. استعاد نائب الوزير فرصته لإكمال مداخلته. وبشأن الأحداث التي وقعت في بلدة "S"، والتي طالب النوّاب في استجواباتهم بتوضيحات عنها من الحكومة، قال نائب الوزير بأنه ليس لدى الحكومة ما تقوله بهذا الشأن طالما أنّ التحقيقات الجنائية والقضائية ما تزال جاريةً،

وأضاف بأنّ الحكومة ترى بأنّ تلك الأحداث ناتجة عن الإجرام العادي، رافضاً التأويلات التي كان البرلمانيون المستَجوِبون يفترضونها في مطالباتهم، وبأنّ الحكومة ترفض التلميحات التي خرج بها اليسار، عبر تصريحات إلى الصحافة عن علاقات مُفترَضة لبرلمانيّين أو حتى لأعضاءٍ في الحكومة مع أفرادٍ في ما يسمّونه بـ "المافيا"، والتي، برأي الحكومة، لا وجود لها إلّا في مخيّلة الاشتراكيّين والشيوعيّين.

وارتفعت من موقع اليسار، الذي صار الآن مُكتظّاً بالنوّاب، أصوات الاحتجاج. وهبط برلماني طويل القامة بشَعر قصير وفضّيّ من مقعده، وتوجّه صوب مقاعد الحكومة، إلّا أنّ خَدَم وحرّاس القاعة تصدّوا له، وحالوا دون تقدّمه إلى حيث كان يسعى، فهتف في وجه نائب الوزير بشتائم وإهانات، ما دفع الرجلَين الجالسَين في المقصورة العليا إلى التفكير فيما بينهما بأن "سينتهي الوضع هنا إلى اشتباكٍ بالخناجر". واصلت رنّات ناقوس رئيس الجلسة هياجها، وما هي إلّا لحظات حتى شاهدا البرلمانيّ حليق الرأس قفز من مكانه على اليمين مثل الجندب، ليكون في منتصف الصالة، فهُرع حرّاسٌ وخَدَمٌ آخرون لإيقافه والتصدّي له. هتف صوب اليسار بشتائمه. وقد تطايرت كلمة "أحمق" كما لو كانت قطرات مطرٍ منهمر، وطالت رأسه الضخم مثلما كانت سهام الهنود الحمر تطال "بافالو بيل"(101).

"ما يحتاجون إليه هنا الآن هو كتيبة من الدّرَك" فكّر الرجلان معاً، وكانت تلك هي المرّة الأولى في حياتَيهما يعترفان فيها بدورٍ ما للدّرَك.

وعندما استدارا بنظراتهما صوب الطرف الذي يجلس فيه صديقهما

البرلماني، شاهدا بأن الموقف كان هادئاً، وانتبها بأنّه رآهما، فقد كان يُحدِّق صوبهما، ويومئ إليهما بتحيّة.

كان مساءُ پارما متكاسلاً، مَسّهُ ضياءٌ، راح يذوب في الأفق البعيد، ذكرياتٌ وَرِقَةٌ عَصيةٌ على الوصف. كان النقيب بيلّودي يسير في شوارع مدينته، كما لو كان غارقاً في فضاءٍ تتراءى منه الذكريات فحسب، فيما كانت صقليّة حاضرةً وحَيّةً في داخله، كانت بثِقَلِ الموت والظلم.

كان قد استُدعِيَ إلى مدينة بولونيا لتقديم شهادته، ككاتب لوثيقة التحقيقات الخاصّة بقضيّة مُقامة في إحدى محاكم المدينة؛ لم يشعر برغبة شديدة إلى العودة المباشرة إلى صقليّة فور انتهاء مهمّته في بولونيا، وأراد أن يُريح أعصابه قليلاً في هدوء پارما بعد فترة حافلة بالتوتّر. استكان للمدينة والعائلة، وطلب إجازة مَرَضيّة، وقد مُنِح شهراً كاملاً للراحة.

والآن، وبعد انقضاء نصف فترة الإجازة، علِمَ، عبر مجموعة من الصحف، التي أحسن نائب العريف دانتونا التفكير بإرسالها إليه، بأنّ جميع الاتّهامات التي شيّدها عبر تحقيقاته قد انهارت كما لو كانت قلعةً شُيّدت بالرمل، بعد أن قدّم المتّهمون إثباتات براءةٍ غير قابلة للدحض. أو بالأحرى، فقد كان إثباتٌ واحد فحسب كافياً لدحض كلّ شيء، وهو الإثبات الذي قدّمه ماركيكا. إذْ تقدّم أشخاص لا شكوك حولهم، سواء في سمعتهم أو في موقعهم المجتمعي، بشهادات إلى وكيل النيابة تُفيد باستحالة أن يكون دييغو ماركيكا هو مَنْ أطلق النار على سلفاتوري

كولاسبيرنا، وبأنّ يكون نيكولوزي قد تعرّف عليه هو بالذات. فقد كان ماركيكا في الساعة التي اغتيل فيها كولاسبيرنا، حسب هذه الشهادة، موجوداً في مكان يبعدُ ستّة وسبعين كيلومتراً عن مكان الحادث، وهي المسافة الفاصلة ما بين بلدَتَي "S" و"P"، وحيث كان ماركيكا يعمل في حديقة الدكتور باكّاريلّا، المعروف عنه كونه ممّن يفيقون في ساعة مُبكّرة من النهار، ليُشرفوا على مَن يعملون لديه. وحسب هذه الشهادة، فقد كان ماركيكا يعمل بهدوء وسكينة في إنزال أنبوب لتوزيع مياه المطر على أطراف حديقة الدكتور باكّاريلّا. ولم يكن الدكتور هو المستعدّ الوحيد للإدلاء بهذه الشهادة المُبرِّئة، بل أيضاً الفلاحون الآخرون الذين عملوا إلى جوار ماركيكا والناس المارّين من أمام المنزل، والذين أكّدوا معرفتهم بهوية المتّهم، وتذكّروا بوضوح تواجده في ذلك المكان.

أمّا الاعتراف الذي كان ماركيكا قد أدلى به إلى النقيب بيلّودي، فقد كانت للنكاية فحسب، فحين جعله النقيب يُصدّق بأنّ پيتسوكو لفّق تُهمة مُخزية بحقّه، أُصيبَ بغضب أعمى، لذا حاول ردّ الضربة إليه؛ ولغرض الإيقاع بپيتسوكو، فقد بادر إلى اتّهام نفسه بنفسه. من جانبه، أكّد پيتسوكو، أنّه حينما وجد نفسه أمام التهمة المُلفّقة من قبَل دييغو، بادر إلى اختراع تهمته الملفّقة ضدّه، واضعاً على عاتقه مسؤوليات صغيرة، شريطة أن تُثقل تلك المسؤوليات بشكلٍ كافٍ رقبة دييغو بالأوزار. والبندقيّة؟ نعم، بشأن البندقيّة، كان على پيتسوكو مواجهة مخالفة الحيازة غير القانونية لسلاح ناري، وما كان تكليفه لنسيبه

بتصفية تلك البندقية وإلقائها في مكانٍ عَصيّ على الاستدلال إليه من قِبَلِ الشرطة، إلّا نتاجاً للقلق من تبعات حيازة سلاح غيرُ مُرخَص.

وبقَدر ما يتعلّق الأمر بـ دون ماريانو آرينا، والذي نُشرت صوره، وأجرت الصحف معه حوارات، فمن نافل القول بأن النسيج الصبور والمتأنّي الذي حاكه النقيب ووكيل النيابة للتُهم ضدّه، قد تبخّر في الهواء، وارتسمت هالة براءة، لتؤطّر رأسه الثقيل، وبدا حتى في الصور وكأنه نموذجٌ للحكمة والحزم. وردّاً على سؤالٍ لصحفي حول رأيه بالنقيب بيلّودي، فقد وصفه دون ماريانو بأنّه - رَجُل - وإثرَ إلحاح الصحفيّ حول نعت النقيب بصفة "رجل"، وما إذا كان يعني بذلك أنّه "إنسانٌ"، ويمكن أن يقع في أخطاء، أم أن تلك التسمية استُخدمت لتوصيف النقيب، ردّ دون ماريانو قوله "إنّه توصيفي له، فليس الرجل بحاجة إلى التوصيف؛ وعندما أقول بأنّ النقيبَ رَجُلٌ، فهو رجلٌ حقيقيّ، وكفى". وقد عدّ الصحفيّ هذا الجواب من دون ماريانو آرينا مكتنفاً بالغموض الناتج عن الغضب، أو ربّما عن مشاعر الانزعاج. إلّا أنّ دون ماريانو أراد أن يُعبّر بتلك الكلمات، عن مشاعر الاحترام التي يُظهِرها جنرالٌ منتصرٌ إزاء قائد الجيش المنهزم ، وبامتداحه هذا كان دون ماريانو يُضيف إلى مشاعر النقيب لمسة من الغموض ومن الزهو الذي امتزج في تلك اللحظة بالاستياء.

أخبار أخرى أشّر عليها نائب العريف دانتونا بالأحمر، كانت تُشير إلى أنّ التحقيقات حول الجرائم الثلاثة قد استُعيدت، بالضبط كما كان مُتوقَّعاً، وبأنّ رجال الشرطة باتوا على مقربة من حَلّ عُقدة جريمة قَتل

نيكولوزي، وبأنّهم أوقفوا أرملته وعشيقها المَدعوّ پاسّيريلّو، والذي تكاثفت حوله إثباتات قويّة، كان النقيب بيلّودي قد تجاهلها. وقرأ النقيب أيضاً خبراً آخر، ضمن الأخبار المحلّيّة في المحافظة، تقول بأن مسؤول محطّة الدَّرَك في بلدة "S"، الرقيب أوّل الأقدم آرتورو فيرليزي قد نُقِلَ إلى مدينة آنكونا بناءً على طلبه، وكان مراسل الجريدة، الذي اعترف للرقيب أوّل باتّزانه وقدراته، يتمنّى له النجاح، ويبعث إليه التهاني.

وفيما كان يُطالع هذه الأخبار ويغلي في داخله غضبٌ عاجز، كان النقيب يجول في شوارع پارما على غير هدى، وكان يبدو كأنه على موعدٍ مع شخصٍ ما، ويخشى أن يتأخّر في الوصول، ولذا لم يستمع إلى نداء صديقه بريشّانيلّي، الذي ناداه باسمه من الرصيف الآخر؛ واندهش، مستاءً من نفسه، عندما شاهد صديقه يَمثُلُ أمامه بعد أن عبر الشارع إليه، وقف الصديق قُبالته مبتسماً وفرِحاً مُطالباً إيّاه، باسم الصداقة السعيدة، والقديمة للأسف من أيّام الدراسة الثانويّة، بتحيّة خاصّة. اعتذر بيلّودي لصديقه عن عدم استماعه إلى مناداته، وأخبره بأنّ وضعه الصحي ليس على ما يُرام، ناسياً بأنّ بريشّانيلّي طبيبٌ، ولم يكن ليغضّ الطرف بسهولة عن تردّي صحّة صديق قديم.

وبالفعل تراجع الطبيب إلى الوراء خطوةً واحدة، ليتمكّن من مُعاينة بيلّودي بشكل أفضل، واستنتج بأنّه نَحفَ كثيراً، فقد كان المعطف الذي يلفّ جسده أوسع بكثير من قياساته؛ ثمّ اقترب منه، وحدّق في عينيْه اللّتين كان بياضاهما قد تلوّنا بصُفرة مائلة إلى الاحمرار، وهو ما فسّرة

الطبيب باضطراب الكبد في أداء مهمّاته، وسأله عن الأعراض التي يشعر بها، ووصف له بعض الأدوية. كان بيلّودي يستمع إليه بابتسامٍ، لكنْ، دونما تركيز.

أتسمعني؟ - قال له بريشّانيلّي - أم ربّما أزعجكَ فحسب؟

- لا، لا - احتجّ بيلّودي - أنا سعيدٌ للغاية لرؤيتكَ. أو بالأحرى، إلى أين أنتَ ذاهبٌ الآن؟. - ودون انتظارٍ للجواب، لفّ ذراعه بذراع صديقه، وقال - أرافقكَ.

وشعر، وهو يستند إلى ذراع صديقه، وهي حركةٌ كان قد نسيها تماماً، شعر بالفعل بالحاجة إلى الرفقة، وبالإبحار في أمور بعيدة كلّ البُعد عن أسباب غضبه.

إلّا أنّ بريشّانيلّو بادره بالسؤال عن صقليّة، كيف كانت؟ وكيف هو العيش هناك؟ ثمّ سأله عن الجرائم.

أجابه بيلّودي بأنّ صقليّة "شيءٌ خارج عن التصوّر".

- إيه، نعم، صحيحٌ ما تقول بالفعل، خارج التّصوّر. لقد تعرّفتُ أنا أيضاً على صقلّيّين، إنّهم أناسٌ استثنائيون. ولديهم الآن استقلالهم الذّاتيّ، وحكومتهم(102). أمّا أنا، فأقول بأنّها حكومة بنادق الصيد، ذلك رأيي. وخارجةٌ عن التصوّر، هي التسمية الأدقّ.

- إيطاليا أيضاً خارج التصوّر، وينبغي الذهاب إلى صقليّة لتُدرك مدى كون إيطاليا خارجة عن التصوّر.

- ربّما صارت إيطاليا بأسرها شبيهة بصقليّة. لقد تخيّلتُ ذلك وأنا أقرأ في الصحف عن الفضائح التي تقترفها حكومة الإقليم هناك، يقول العلماء بأن خطّ النخيل، أي البيئة المناسبة لنموّ النخيل، بدأ يصعد إلى الأعلى، شمالاً، ويحدث ذلك بخمس سينتميترات في كلّ عام. خطّ النخيل. أمّا أنا، فأُضيف، بأنّ خطّ القهوة المركّزة، القهوة قويّة المذاق بدوره. ويصعد خطّ النخيل والقهوة المركّزة والفضائح كما يرتفع الزئبق في المحرار، يصعد إلى الشمال الإيطالي، وقد تجاوز روما، وتركها وراءه الآن. - وتوقّف عن الكلام بشكلٍ مفاجئ، وقال لفتاة شابّة كانت متّجهة صوبهما باسمة - أنتِ أيضاً خارجةٌ عن التصوّر، جميلة للغاية أنتِ.

- كيف! أنا أيضاً؟ ومَنْ هي الأخرى؟

- صقليّة. فهي أنثى كذلك، غامضة، صارمة ومُنتقمة؛ إنّها في غاية الجمال. مثلُكِ أنتِ. أقدّم لكِ النقيب بيلّودي، كان يوصيني بزيارة صقليّة. وهذه هي ليفيا - قال وهو يستدير إلى بيلّودي - ليڤيا جانّيلّي، التي قد تتذكّرها طفلةً صغيرة، وهي الآن امرأة مكتملة، ولا نِيّة لديها على الإطلاق بالانتباه إليّ.

- هل أنتَ قادمٌ من صقليّة؟ - سألت ليڤيا.

- نعم - قال بريشّانيلّي - إنّه قادمٌ من صقليّة، إنّه هناك، كما يقول الصقلّيّون، ليلعب دور الشرطيّ العفن - ونطق ذلك التعبير جاعلاً صوته يخرج من الحلق، كما لو أنّه يخرج من كهفٍ مُقلّداً لهجة كاتانيا على

طريقة آنجيلو مانكوزو(103).

- أعشق صقليّة - قالت ليڤيا، واندسّت بينهما، ودّست ذراعَيها تحت ذراعَيهما.

"هذه هي پارما - فكّر بيلّودي وقد غمرتْهُ سعادة غيرُ منتظَرة - هذه هي فتاةٌ من پارما، ها أنتَ في دارِكَ، ولتذهب صقليّة إلى الجحيم"؛ لكنّ ليڤيا كانت تتوق إلى الاستماع إلى أشياء خارجة عن التصوّر عن صقليّة الخارجة عن التصوّر - لقد زُرتُ تاورمينا مرّة واحدة، وفي مرّة أخرى، زُرتُ سيراكوزا، لمشاهدة عروض مسرحية كلاسيكية(104)، لكنّ البعض أخبرني أنّكَ إذا رغبتَ في التعرّف على صقليّة، فإنّ عليكَ زيارة مناطقها الداخليّة. في أيّة مدينة تُقيم؟

ذكر بيلّودي اسم المدينة ، لم تكن ليڤيا أو بريشّانيلّي قد سمعا بذلك الاسم من قبل.

- وكيف هي تلك المدينة؟ سألت الفتاة.

- إنّها بلدة قديمة، ببيوت لُطّخت جدرانها بالجبس، وشوارع شديدة الانحدار، وفي الأعلى مِن كلّ شارعٍ أو مُدرّج ثمّة كنيسة قبيحة العمارة.

وماذا عن الرجال؟، هل الرجال الصقلّيون غيورون على النساء للغاية؟

نعم، بشكلٍ من الأشكال - قال بيلّودي.

والمافيا؟ ما هي هذه المافيا التي يجري الحديث عنها في الصحف جميعاً.

آه، نعم، ما هي المافيا بالفعل؟ شدّد بريشّانيلّي.

إنّها أمر مُعقّدٌ للغاية، ويطول الشرح في توضيح كُنهها - قال بيلّودي - هي الأخرى "خارجةٌ عن التصوّر"، نعم، هي كذلك.

بدأت أولى رقائق الثلج بالتساقط بإلحاح، وكانت السماء البيضاء تَعِدُ بسقوط طويل للثلج. عرضت ليڤيا عليهما أن يرافقاها إلى البيت، صديقات أخريات سيصلنَ إلى هناك، وأكّدت لهما بأن الجميع سيستمعون إلى مقاطع رائعة من موسيقى الجاز القديمة، أسطوانات نادرة تمّ العثور عليها مؤخراً، وقالت بأنّ هناك ما يكفي من الويسكي القادم من سكوتلندا وكونياك كارلوس پريميرو - وماذا عن الطعام؟ - سأل بريشّانيلّي، فوعدت ليڤيا بأن الطعام أيضاً سيكون متوفّراً.

التقيا في المنزل بشقيقة ليڤيا وفتاتَين أخريَين كانتا مستلقيَتَين على السجّادة أمام الموقد المشتعل، كانت الأقداح موضوعة على طرفٍ من الغرفة، فيما كانت أسطوانة الجاز تدور على صحن الغرامافون بلحن من موسيقى جاز نيو أورليانز(105). البنات الأخريات أيضاً أكّدنَ بأنّهنّ يعشقنَ صقليّة، وبعذوبة أنثوية، لوّحنَ بسكاكين كانت، برأيهنّ، تلتمع بفعل الغَيرة على النساء. أبدينَ الأسى صوب النساء الصقليّات، لكنْ، دون إخفاء قَدْر من الحسد تجاههنّ، ودار الحديث عن ريناتو غوتّوزو(106)، وعن پابلو پيكاسّو وعن

اللونَين الأحمر والأصفر اللذَين يظهران على غلاف كتاب "أنتونيو الجميل"(107) لڤيتاليانو برانكاتي، وغدَت الفتيات ذلك الكتاب رمزاً رائعاً لصقليّة. وغُذنَ إلى التلويح بالسكاكين الملتمعة من جديد وهنّ يتحدّثنَ عن المافيا؛ طرحنَ العديد من الأسئلة، وطالبنَ النقيب بشروحٍ عنها، وبأن يروي لهنّ عن الحكايات الرهيبة التي شاهدها هناك.

روى لهنّ بيلّودي عن طبيبٍ كان يعمل في مستوصف سجنٍ صقلّيّ، وكان على حقّ في ما صمّم عليه بشأن إعادة عرّابي المافيا المسجونين إلى زنازينهم بعد أن كانوا قد احتلّوا أسِرّة المستوصف الأكثر راحة من أسِرّة الزنزانة. كان يرغب بذلك، لأنّ الزنازين كانت تكتظّ بالسجناء المرضى المحتاجين إلى علاج، وإلى العَزل في بعض الأحيان لإصابتهم بالتدرّن الرئويّ، فيما كان العرّابون يحظون بأوضاع مريحة، لا يستحقّونها. فأمر الطبيب بعودة هؤلاء إلى الزنازين الاعتيادية، وطالب بحَمل المرضى إلى ردهات المستوصف. إلّا أنّ مدير السجن والحرّاس رفضوا الانصياع إلى أوامر الطبيب، فعمد هذا إلى الكتابة إلى الوزير بهذا الشأن. وحدث أن نُودي إلى السجن بشكلٍ عاجل، وأُبلغ بأنّ أحد السجناء في حالة عاجلة، وينبغي التعامل معه. فسارع الطبيب بالذهاب إلى مكان عمله في السجن، ووجد نفسه، على حين غِرّة، وحيداً بين السجناء، انهال عليه العرّابون وأذنابهم، بالضّرب المُبرّح، دون إثارة الصخب. لم ينتبه الحرّاس إلى شيء. رفع الطبيب شكوى إلى النيابة العامّة، وإلى الوزير. وقد تمّ نَقل عدد من العرّابين إلى سجونٍ أخرى. أمّا الطبيب، فقد أمر الوزير بفَصله من الوظيفة، مبرّراً

ذلك بأنّ حماسته الفائضة عن حدّها قد تسبّبت بالمشكلة. وبما أنّ الطبيب كان منضوياً تحت لواء حزبٍ يساري، حاول الاستعانة برفاقه للحصول على الدّغم، أوضح له الرفاق بأنّ من الأفضل له أن يتغاضى عن الموضوع، ويترك الأمور تسير كما هي الآن. ولأنّه لم يتمكّن من الحصول على ما يُشفي غليله إزاء الحيف والاعتداء اللذَين تعرّض إليهما، استجار بعرّاب من المافيا، وقد منحه هذا مقداراً من الرضا، إذ جعل أعوانه في السجون التي نُقِل إليه مَن اعتدى على الطبيب، يُشبعون بالضرب المبرّح واحداً من المعتدين. وقد حصل الطبيب على ضمانات كافية بأن المعتدي نال عقابه المناسب حقّاً.

أعدّت الفتيات سندويتشات سريعة، تناولها الحاضرون، واحتسوا كمّياتٍ من الويسكي والكونياك، استمعوا إلى موسيقى الجاز، وعاد الجميع إلى الحديث عن صقليّة، وعن الحبّ، وعن الجنس. كان بيلّودي يشعر بنفسه وكأنّه في فترة النقاهة بعد مرضٍ طويل، كان في غاية الرهافة، رقيقاً وجائعاً. "إلى الجحيم صقليّة، إلى الجحيم كلّ شيء".

عاد إلى منزله قُرابة منتصف الليل. عَبَرَ المدينة بأسرها مشياً على القَدَمَين. كانت پارما قد اعتمرت ببياض الثلج، كانت شوارع المدينة مقفرة، ودونما أيّ ضجيج. "لا يسقط الثلج في صقليّة إلّا نادراً" فكّر مع نفسه، وربّما كانت طبيعة الحضارات هي التي أتاحت للثلج أو للشمس أن يتسيّدا على الأماكن. كان يشعر بشيءٍ من الفوضى داخل رأسه. لكنّه أدرك قُبيلَ وصوله إلى المنزل مقدار غرامه بصقليّة، واقتنع بأنّه سيعود إليها لا محالة.

- قد يتحطّم رأسي هناك - قالها بصوتٍ عالٍ.

ملاحظة(108)

كتب فرنسي رائع (وربما فرنسيّة) من القرن الثامن عشر الرائع "عذراً لطول هذه الرسالة، لأنّني لم أعثر على الوقت اللازم لاختزالها".

والآن، أنا، فليس في إمكاني أن أقول، في ما يتعلّق بالالتزام بالقاعدة الذهبيّة التي تفترض جَعْل القصّة القصيرة أقصر ما بالإمكان، بأنّني لم أمتلك الوقت الكافي للاختزال. لقد أنفقتُ ما يربو على عامٍ كامل، من صيف إلى آخر، لجَعْلها مختزلَة كما ينبغي. وحتّى أكون أكثر دقّةً، لكنّني لم أقضِ العام بأسره في ذلك، بل فعلتُهُ على هامش العمل في كتابات وفي انشغالاتٍ أخرى بعيدةٍ كلّ البُعد عن الكتابة. لو كانت النتيجة النهائيّة التي سعيتُ إليها بعمليات "الحفر" التي مارستُها هنا، محاولةً لمَنْح هذا العمل المعيار والجوهريّة والإيقاع، وأن أحميّةُ من احتمالات أو إمكانيات انزعاج البعض ممّنْ سيشعرون أنهم مَعنيّون، بشكلٍ أو بآخر، ممّا أروي هنا. فكما هو معروف، فإنّ من المحظور في إيطاليا المزاحَ مع القدّيسين أو مع الفُرسان، فما بالكَ عندما يأتي المرء، في بعض الأحيان، بفعلٍ جادّ، بدلاً من المزاح؟! إنّ بالإمكان أن تحتوي روايات وأفلام الولايات المتحدة على جنرالات حمقى، وقُضاة فاسدين ومرتشين، ورجال شرطة أوغاد، ويمكن أن يحدث ذلك أيضاً في إنجلترا وفرنسا (على الأقلّ حتّى الآن) وفي السويد وغيرها. لكنْ، ليس بالإمكان إطلاقاً حدوث شيءٍ من هذا القبيل في إيطاليا، لم يكن ذلك موجوداً في ماضيها، ولن يكون لديها شيءٌ منه

حتى في المستقبل. هذا هو الوضع. لا أشعر بنفسي بطلاً إلى درجة تحدّي شكاوى أو أحكام قضائية بتُهم الإساءة أو الازدراء بمعصومين؛ ولا أشعر بأيّة رغبة للإقدام على ذلك؛ لذا، فعندما أدركتُ بأنّ مخيّلتي لم تُولِ الحدودَ التي تفرضها قوانين الدولة الاعتبار المناسب، بدأتُ بالحفر وأمعنتُ فيه غير آبهٍ في أن آخُذَ في اعتباري حساسيّة أولئك الذين يسوقون الآخرين إلى تبجيلهم، ويفرضون الاحترام على الغير.

وفي الجوهر، بقي مسار القصّة على حاله ما بين المسوّدة الأولى والثانية، غابت بعض الشخصيّات، وانسحبت شخصيات أخرى من المشهد لحال سبيلها، وأسقطت بعض المشاهد. ربّما انتفعت القصّة من عمليات التشذيب هذه. لكنّ ما هو مؤكّد، على أيّة حال، فإنّني لم أكتبها بالحريّة ذاتها التي ينبغي أن ينعم الكاتب دائماً (أعدّ نفسي كاتباً، لأنّني أمارس الكتابة الآن).

وربّما كان فائضاً عن الحاجة بالطبع أن أؤكّد بأنّه ليس في القصّة شخصياتٍ أو أحداث ذات علاقة بشخصيات مُحدّدة أو أحداث وقعت بالفعل، إنْ لم يكن ذلك بشكلٍ عابرٍ بالكامل.

مَنْ هو ليوناردو شاشّا؟

وُلد ليوناردو شاشّا (Leonardo Sciascia) في بلدة راكالمُوتو بمحافظة آغريجينتو الصقليّة في الثامن من كانون الثاني/ يناير 1921، وعاش حتّى وفاته في العشرين من تشرين الثاني/ نوفمبر عام 1989 في عاصمة الجزيرة پاليرمو.

واشتُهر مسقط رأسه كموقع غني بمناجم الكبريت. كان والده محاسباً في أحد هذه المناجم، وليوناردو هو الأكبر بين ثلاثة أبناء؛ وقضّى جُلّ وقته في كنف عمّاته اللاتي أشرفنَ على تربيته، وزرعنَ فيه بذور الثقافة العلمانية.

في ثلاثينيات القرن الماضي، بدأ شاشّا الشابّ يَضيقُ ذرعاً بالنظام الفاشي، وقرأ عدداً من الكُتب التي ستظلّ منارة هامّة بالنسبة إليه، من بينها أعمال لآليسّاندرو مانزوني(109)، فيكتور هوغو، جاكومو كازانوفا(110)، ودينيس ديدرو. وارتاد بشكلٍ مكثّف صالة السينما في مدينة كالتانيسيتا(111). درس المرحلة الثانويّة في المدينة ذاتها، وتأسّست حينها صِلاته مع الأوساط المناهضة للفاشية، واتّسع طيف قراءاته صوب الكتّاب الأمريكان، كدوس پاسوس، إرنست همنغواي، ووليم فوكنر، وانتقل إلى الشّعر ابتداءً من الشاعر الكبير جوزيپّه أونغاريتّي(112)، وصولاً إلى الشعراء الفرنسيّين الرمزيّين، وإلى فلاسفة كبار مثل سپينوزا.

في عام 1936، اندلعت الحرب الإسبانية، وشكّلت تجربة مُضافةً في تكوين الشابّ ليوناردو، خصّص لها إحدى أجمل قصصه، والتي حملت عنوان "ساعات إسبانيا"، وتتناول حالة العاطلين عن العمل من الصقلّيّين الذين أرسلهم الديكتاتور بينيتو موسوليني ليموتوا في الحرب إلى جوار صنوه الديكتاتور فرانسيسكو فرانكو.

في عام 1941 اشتغل ليوناردو شاشا في كونسورسيوم زراعي كمختصّ في تِقْنِيّات تخزين القمح، ومنحه هذا العمل الفرصة ليتعرّف عن كثب على مقدار البؤس الذي يقاسيه عمّال المناجم والفلاحون والعاملون في أحواض الملح، وستظهر ملامح تلك الصلة جليّةً في كتابه "أبرشيات ريغاليپيترا"، الذي أصدره بعد بضع سنين.

في عام 1944، وبعد أن هجر الدراسة في كُلّية التربية بمدينة ميسّينا، تزوّج من زميلته، المعلّمة ماريّا آندرونيكو، وأنجب منها ابنتَيه لاورا وآنّا ماريّا. وابتدأ بعد ذلك بنشر أولى قصائده ويومياته ومقالاته السياسيّة - الأدبية في عدد من الصحف الصادرة في المحافظة.

وشهد عام 1948 انتحار شقيقه الأصغر جوزيپّه وهو ما يزال في الخامسة والعشرين من عمره، وكان يعمل مديراً لأحد مناجم مدينة آسّورو، فتسبّب هذا الحادث لليوناردو بألم متواصل طيلة حياته، وسيرفض الحديث عنه وعن ملابسات الانتحار، إذْ لم يتمكّن أبداً من إيجاد تفسير مُقنِع لذلك الفعل.

بدأ في عام 1949 بالعمل معلّماً في المدرسة الابتدائية في مسقط

رأسه، وواصل ذلك حتى عام 1957 دون أن يُشغف أبداً بمهنة التعليم، لكن غياب الشغف تجاه التعليم لم يُفقِده البوصلة لمراقبة حالة مجتمع التلاميذ المنزعجين من سياسة محو الأمية الإجبارية والقصيّة عن احتياجاتهم الأساسيّة. وشارك ليوناردو شاشا في العام ذاته في محافظة ميسّينا بتأسيس مجلّة حملت عنوان "غاليّريّا"(113) والتي سيرأس تحريرها منذ عام 1950 حتى وفاته ضامناً لها إسهامات عدد كبير من الأقلام الهامّة في عالم النقد والإبداع الشّعريّ والروائيّ، إذ ابتدأت المجلّة نشرتها الأولى بافتتاحية، سطّرها پيير پاولو پازوليني(114).

بدأ الكتابة في عام 1956 عندما نشر عمله الأوّل، وكان بعنوان "أبرشيات ريغالپيترا"، وهي قصص من الحياة اليومية في جزيرة صقليّة.

في عام 1958 أصدرت له دار نشر "لاتيرتسا" كتابه الذي حمل عنوان "أعمام صقليّة"، وحين أعادت دار "إيناودي" نشر الكتاب بعد عامَين أضافَ إليه قصّة رابعة. يعرض شاشا في هذا الكتاب واقع صقليّة منذ ثورة 1848 وحتى خمسينيات القرن الماضي، وهي قصص تتراوح ما بين الغروتيسك والمأساة والآمال المُخيّبة على الدوام.

في عام 1961 أصدر كتاباً نقدياً بعنوان "پيرانديلّو وصقليّة"، وصدرت له في السنة ذاتها قصّة "نهار البومة"، وحظي الكتاب بترحاب كبير من النقّاد والقرّاء معاً.

ذات الترحاب والقبول ناله كتابه اللاحق "كتاب مصر"، والذي صدر في عام 1963. وهو عبارة عن رواية تاريخية، تدور أحداثها في پاليرمو في القرن السابع عشر.

ومن بين مؤلّفات ليوناردو شاشّا، تجدر الإشارة إلى كتاب البحث التاريخيّ الذي حمل عنوان "موت محقّق التفتيش"، وصدر في عام 1964 عن دار نشر لاتيرتسا، ومسرحية "البرلماني" التي صدرت عن دار نشر "إيناودي" في عام 1965، إضافة إلى المقدّمة الذي وضعها للكتاب المصوّر "الاحتفالات الدّينيّة في صقليّة"، وصدر عن دار نشر "دانًا" في عام 1965.

وصدرت له في عام 1966رواية "لِكلٍّ ما لَهُ"، وهو كتاب ثري آخر عن المافيا. وتبع ذلك في عام 1969 بعمل مسرحي عن فكرة التكفير المسيحيّة بعنوان "تمثيل التناقضات اللييباريتانيّة مهداة إلى أيٰ دِي".

وأصدر في عام 1971 كتاباً بعنوان "فصول حول موت رايموند راسيل"، وصدرت له في السنة ذاتها رواية "Il Contesto" وفي عام 1973 أصدر مجموعة قصصيّة بعنوان "للبحر لون النبيذ" وفي عام 1974 رواية "تودو مودو".

في عام 1975، وعلى الرغم من سجالاته مع النقّاد المقرّبين إلى الحزب الشيوعيّ الإيطالي، وافق شاشّا على الترشّح للانتخابات البرلمانية كمستقلٍّ ضمن قائمة هذا الحزب، وبعد انتخابه بفترة، استقال من البرلمان لرفضه القاطع لفكرة "التسوية التاريخيّة(115)"

التي قاربت ما بين الحزب الشيوعيّ الإيطالي بزعامة إنريكو بيرلنغوير(116) والحزب الديموقراطيّ المسيحي بزعامة آلدو مورو(117)، وهو التقارب الذي أفضى إلى ميلاد حكومة جوليو آندريوتّي(118) المدعومة من الحزب الشيوعيّ دون أن يكون ضمنها، وأسقطَ تشكيل تلك الحكومة الحظر الغربي على إسهام الشيوعيّين في الحكومات الإيطالية، وهو الحظر الذي كانت قد سنّتهُ مآلات الحرب الباردة، وسياسة التّضادّ ما بين القطبَين، الغربي والسوفياتيّ.

وفي العام ذاته صدر لهُ كتاب بعنوان "اختفاء مايورانا"(119)، وهو كتاب تحقيقي حول الظروف الغامضة لاختفاء العالِم الفيزيائي الإيطالي إيثوري مايورانا، وسيكون ذلك الكتاب بالنسبة إلى شاشّا فرصة للتأمّل حول المسؤوليّة التاريخيّة للعلم والعلماء إزاء ما يحدث في الكون، وسيتحوّل الكتاب إلى مادّة لسجال حامي الوطيس مع العالم إدواردو آمالدي(120).

وأعاد في عام 1976 إصدار مسرحية "تمثيل التناقضات الليپاريتانيّة مهداة إلى أيْ دِي"، وقد استخدم في هذا النصّ زمن الماضي للحديث عن الحاضر عبر استعارة لفكرة صراع كان قائماً داخل السلطة السياسيّة في صقليّة في القرن السابع عشر.

وفي العام ذاته أصدر مسرحية "المافيويّون". كما صدرت له في عام 1979 رواية "أسود على أسود". ومسرحيّة "الطاعنون بالخناجر"،

وكان ذلك تحقيقاً آخر في الأرشيف التاريخيّ لمؤامرة وقعت في پاليرمو في عام 1862، تناولها شاشا بقراءة مُعاصرة آخذاً في الاعتبار الفترة التي ساد فيه ما سُمّيَ بـ "استراتيجية التوتّر" في إيطاليا في ستّينيات وسبعينيات القرن الماضي.

وابتداءً من عام 1977 بدأ شاشا بقضاء شهور من السنة في باريس، وهي المدينة التي تنتهي فيها الرحلة المفترَضة لبطل روايته "كانديد، أو بالأحرى حلمٌ في صقليّة"، والتي يعدّها بمثابة "عملية تحرّرٍ" من أساطير مُعيقة مثل المسيحية والشيوعيّة، وحتّى التنويريّة. إنها رواية وُلدت من إعادة كتابة لعمل كبير لفولتير، وتنتهي بِعَدِّها شهادة فعّالة عن حالة التوتّر السائدة في إيطاليا آنذاك.

وفي عام 1978، ومن رَحِمِ "سنوات الرصاص" وُلد كتاب "قضية مورو"، وهو كتاب تحقيقي، حلّل فيه شاشا الرسائل التي كان آلدو مورو، المختَطف من قبل إرهابيّي منظّمة الألوية الحمراء، يبعثها إلى عائلته وأصدقائه، والتي استَخلِصَ منها الموقف الحاسم الذي اتّخذتْهُ الحكومة برئاسة جوليو آندريوتّي إزاء هذه المأساة، بدعم هامّ من قبَل الحزب الشيوعيّ الإيطالي، أي رفض التفاوض مع "الألوية الحمراء" بشأن مقايضة تحرير الرهينة بإطلاق سراح عدد من زعامات اليسار المتطرّف المعتقلين في إيطاليا.

في عام 1979 أصدر ليوناردو شاشا ثلاثة كتُب أخرى، بَدَتْ متباينة فيما بينها، لكنّها كانت، في حقيقة الأمر، متشابهة في النَّفَس الانتقادي الذي احتوتْهُ، "أسود على أسود"، وكان بمثابة يوميات عامّة، وتفاصيل

حملت، في الغالب، نبرة ساخرة لاذعة؛ وصدر له أيضاً كتاب "صقليّة كميثافور"، وهو حوار طويل، أجرتْهُ وإيّاه الصحفيّة الفرنسيّة مارسيل پادوڤاني(121)؛ وحمل الكتاب الثالث عنوان "في صفّ الملحدين" وهو تحقيق تاريخي مختزل للملاحقة التي مارسَتها سلطة الكنيسة ضدّ الأسقف الصقليّ المونسنيور آنجيلو فيكارا(122) الذي رفض الانصياع إلى منهج الكنيسة الإيطالية في الاستخدام السياسيّ لمهمّة رجل الدِّين.

وتزامن عام 1979 مع موافقة ليوناردو شاشا بالترشّح البرلماني لمجلس النوّاب الإيطالي في دورة الانتخابات التي جرت في تلك السنة، ضمن قائمة الحزب الراديكاليّ الإيطالي المعروف بمواقفه الجَذرية في الدفاع عن الحقوق والمطالب المدنيّة. وتحوّلت هذه المهمّة البرلمانية بالنسبة إلى ليوناردو شاشا إلى فرصة للاطّلاع على خبايا قضيّة اختطاف آلدو مورو ومقتله، وذلك لكونه عضواً في اللجنة البرلمانية للتحقيق في الملفّ. وفي نهاية عام 1982 رفض شاشا الموافقة على النتائج الواردة في خُلاصة مُقرّر اللجنة، المُمثّل للأغلبية داخل اللجنة، وأعلن على الملأ عن معارضة الأقلّية، ونَشَرَ تلك الوثيقة في مُلحق للطبعة الجديدة من كتاب "قضيّة مورو".

لم يكتب شاشا أيّة رواية خلال الخمسيّة التي شغل فيها عضوية مجلس النوّاب (1986 - 1981)، إلّا أنّه أنجز - تحقيقات مثل "حوارات في غرفة مُغلقة" مع الكاتب دافيد لايولو؛ وجمع مختارات من المقالات المنشورة سابقاً في كتاب بعنوان "كلمات مُتقاطعة"،

ومجموعة من المذكّرات بعنوان "عين العنزة"، وهو عبارة عن ذكريات وتأمّلات نابعة من مسقط رأسه "راكالموتو"، ونال عنه جائزة "نونّينو" الشهيرة للآداب. بعد ذلك أصدر كتابه الجميل "ستاندال وصقليّة - محاولة لرَسمِ صورة شخصيّة للكاتب في شبابه"، وكان الكتاب تحيّة إلى الكاتب الأرجنتيني الراحل خورخي لويس بورخيس؛ وأتْبَعَ ذلك بكتابه "مسرح الذكرى" الذي تناول فيه ما كان كتبه لويجي پيرانديلّو عن مواطن كولّينيو، فاقد الذاكرة؛ وأصدر بعد ذلك كتاب "قرارات حكم غير قابلة للنسيان"، حول قضيّة الفرنسي مارتين غيرّي(123)، وفاز به بجائزة باغوتا(124)، ومن ثمّ أصدر كتاب "الساحرة والقبطان"، وتدور أحداثه حول جماعة تدّعي السِّحر في ميلانو بالقرن السابع عشر، واكتشف شاشا ذلك على هامش قراءاته لنصوص آليسّاندرو مانزوني، ويظهر جليّاً في هذا الكتاب شكٌ آيديولوجي واضح ومطلق في قدرة الرواية على تفسير وتأويل واقع إيطالي مُعقّد على تلك الشاكلة، ويؤكّد بأنّ امتلاك قدرة التفسير والتأويل يتطلّب انغماساً شاملاً في صُلب ذلك الواقع.

في عام 1982، وبعد اغتيال والي پاليرمو الجنرال كارلو آلبيرتو ديلّا كييزا(125) من قِبَل المافيا، رفض ليوناردو شاشا الامتداح غير المشروط لأداء الجنرال القتيل، ما دفع نجل الراحل، الكاتب السوسيولوجي،ناندو ديلّا كييزا، إلى اتّهام شاشا بكونه يرغب في "ممارسة لعبة المافيا نفسها"، وتكرّرت الحالة بعد ذلك بوقت قصير عندما عُيِّن وكيل نيابة مارسالا، القاضي باولو بورسيلّينو(126)

عضواً في قطب قضاة مكافحة المافيا بدلاً من قاضٍ آخر بأقدمية أكثر منه في السلك القضائي، وطالب شاشّا الدولة بالنأي بنفسها عن الاستخدام السياسيّ لمبدأ مكافحة المافيا، والإحجام عمّا حدث في زمن الفاشيّة، وتعرّض شاشّا حينها إلى هجوم إعلاميّ واسع، بلغ مستوى اتّهامه بالقرابة "الموضوعية" مع المافيا، في حين ذاد الكاتب عن نفسه مؤكّداً بأن اعتراضاته لم تكن موجّهة ضدّ القاضي بورسيلّينو وشكوكاً حول مقدِرته وإسهاماته، بقَدر ما كان اعتراضاً على المنهج الذي اتُّبع في هذا الصدد عبر تفضيل الجانب السياسيّ على الاستحقاقات المهنيّة، (وحسب مُطّلعين، فإنّ القاضي بورسلّينو أبدى تفهّمه للموقف الذي اتّخذه شاشّا).

وقام ليوناردو شاشّا في عام 1983 بجولة في إسبانيا مُحقّقاً خلالها عدداً من المقالات لجريدة "كورّييري ديلّا سيرا"، وجمع عدداً من بين الأفضل من تلك المقالات في عام 1988 في كتاب بعنوان "ساعات إسبانيا(127)"، وصدر الكتاب بالتعاون مع المصوِّر الصقلّيّ المعروف فيرديناندو شانّا، حيث ضمّ عدداً من صوره.

وفي العام ذاته اعتُقل مقدّم البرامج التلفزيونيّة الشهير إينزو تورتورا، واتُّهم بالقرابة مع المافيا، وذلك استناداً إلى اتّهامات واهية، أطلقها أحد عرّابي مافيا "لا كاموزّا" النابوليتانيّة، أظهر التحقيق القضائي بُطلانها فيما بعد. فما كان من ليوناردو شاشّا إلّا ووقف إلى جانب تورتورا، وترأس جمعية داعمة لترشيحه لعضوية البرلمان، وبالفعل انتُخب تورتورا عضواً في مجلس النوّاب في دورة الانتخابات

البرلمانية في عام 1984 ضمن قائمة الحزب الراديكاليّ.

وأصدر شاشا في عام 1983 روايته المعنونة "الأبواب المفتوحة"، والتي جاءت نتيجة لالتزامه ومتابعته لنشاط "منظّمة العفو الدولية" ضدّ الحكم بالإعدام، واحتلّت مسألة العدالة صُلب اهتماماته المركزيّة، واستوحى القصّة من حكاية قاضٍ من مسقط رأسه راكالموتو، اسمه سلفاتوري بيتروني.

وفي السنة ذاتها أصدرت دار نشر بومبياني ضمن كلاسيكيّاتها الجزء الأوّل من الأعمال الكاملة لشاشا، أشرف عليها بنفسه، وكتب مقدّمتها صديقه المقرّب الناقد الفرنسي كلود آمبروزي. في حين صدر الجزءان الآخران بعد وفاته.

تَرَدّتْ أوضاع شاشا الصحيّة بشكل كبير في عام 1988 واكتشف الأطبّاء لديه ورماً سرطانياً نادراً في نقي العظام، وهو ما كان يُجبره على علاجات طويلة ومؤلمة، وتثير روايته ما قبل الأخيرة "الفارس والموت"، والتي سجّل فيها شهادة عن المشاعر الرهيبة التي يتلمّسها مَنْ يرى الموت على مقربة منه، وجاءت النتيجة عملاً رائعاً مفعماً بالتأمّلات حول حاضر إيطاليا والبشريّة ومستقبلهما.

وفي العشرين من نوفمبر من عام 1989 انطفأ ليوناردو شاشا، لكنّه نشر قبل ذلك مجموعة من الأعمال، من بينها "حكاية بسيطة"، وهي قصّة ذات طابع بوليسي، بمغزى أخلاقي وسياسي، ونشر أيضاً كتاب "الألفباء البيرانديليّة"، وهو مهدى إلى الكاتب الصقلّيّ الشهير لويجي

بيرانديلّو، الذي عدّه شاشا الكاتب الأهمّ في حياته؛ إضافة إلى "قضايا مختلفة عن التاريخ الأدبي والمدني"؛ و"زادٌ لذاكرة المستقبل (فيما لو كان للذاكرة أيّ مستقبل)"، وهو الكتاب الذي ضمّ مداخلاته السياسيّة والمدنيّة الأساسيّة في أعوام الثمانينيات حول المافيا ومكافحتها.

وفي الثالث والعشرين من أكتوبر 2010 احتفت مؤسّسة البريد الإيطالي بذكرى ليوناردو شاشا، وأصدرت طابعاً بريدياً استذكارياً له.

ويحمل الطابع سعر 0.6 يورو، وقد صُمّم بصورة شخصية للكاتب الراحل في المقدّمة وإلى يمينه عدد من الكُتُب مفتوحة الصفحات، وفي الخلفية ثمّة صورة تُمثّل خارطة جزيرة صقليّة، فيمَا وُضع اسم الكاتب وتاريخَي ميلاده ووفاته في أعلى الطابع، ووُضع اسم إيطاليا إلى الأسفل يمين الطابع. وأنتج من هذا الطابع، الذي صممته الفنّانة ريتا مورينا، أربعة ملايين وحدة.

وأُرفق الطابع بمظروف مراسلات، حمل صورة الطابع مع الخَتم البريدي لدائرة "راكالموتو" بصقليّة - مسقط رأس الكاتب -، في تاريخ يوم الإصدار، أي 23 أكتوبر 2010.

---

(1) La Sicilia come Metafora " صقليّة كميثافور" - حوار طويل أجرتْهُ الصحفيّة الفرنسيّة مارسيل پادوڤاني مع ليوناردو شاشا في عام 1979 - الصفحة 88 من الطبعة الإيطاليّة الأولى - تحت الترجمة.

(2) مقدّمة بقلم الكاتب.

(3) Sidney Sonnino - سيدني سونّينو - تولّى رئاسة الحكومة الإيطاليّة بين عامَي 1906 و1910.

(4) بتشديد الفاء والياء وفق إحدى التسميات والتفسيرات الصقلّية لظاهرة المافيا تاريخياً.

(5) Cesare Primo Mori - تشيزيري پريمو موري - (1942 - 1871) والي صقليّة وسياسي انتُخب سيناتوراً في برلمان المملكة الإيطالية - أرسل إلى صقليّة، ومُنح مُطلق الصلاحيات لمواجهة ظاهرة المافيا.

(6) الدَّرَك: بالإيطالية (Carabinieri – كاربينيرِه) وهم من أقوى أجهزة الأمن الإيطالي وتمتدّ سلطتهم على المدنيّين والشرطة والجيش.

(7) خليّة محلّيّة للحزب الفاشي الذي أسّسه الديكتاتور بينيتو موسوليني، وتعني "الحُزْمة".

(8) الأنصار الإيطاليون وهم المقاتلون ضدّ الحكم الفاشي، وكانوا خليطاً من عدد من الأحزاب السياسيّة في إيطاليا، في مقدّمها الحزب الشيوعيّ الإيطالي والحزب الاشتراكي والجماعات الكاثوليكية، التي أسّست فيما بعد الحزب الديموقراطيّ المسيحي.

(9) الدوطة: المهر الذي تدفعه المرأة للرجل.

(10) نسبةً إلى القارّة الأوروبية، لتمييز صقليّة عن باقي الأرض الإيطالية، ويعدّ الكثير من الصقلّيّين جزيرتهم كياناً مستقلاً في حدّ ذاته.

(11) "الحبرُ الأعظم" هو اللقب الكنسي الذي يُطلق على بابا الفاتيكان.

(12) Commendatore - كومِنداتور - لقب شرفي تمنحه الدولة إلى بعض الشخصيّات ممّن حقّقوا إنجازات في أيّ مجال.

(13) الصفة التي يُنادَى بها عضو مجلس النوّاب الإيطالي، فيما يُنادَى عضو مجلس الشيوخ بصفة "سيناتور".

(14) Polenta - وهي أكلة شتوية شمالية تُطبخ من طحين الذرة الصفراء، وتُعدّ من الطبخات الجبليّة الشمالية، بالذات في الشتاء.

(15) النقيب بيلّودي هو الموضوع الذي يتناوله هذا الحوار الذي يجري في روما ما بين برلماني وأحد زعامات المافيا، من ذوي القدرة على تحريك اتّجاهات التصويت الانتخابي. وقد كانت عملية نقل الضبّاط من أماكن عملهم إلى مواقع أخرى إحدى الأسلحة التي تستخدمها المافيا، عبر تأثيراتها على أصحاب القرار في الحكومة، للتخلّص من الضبّاط الحازمين في تطبيق القوانين.

(16) شَفرة سرّيّة تستخدمها الأجهزة الأمنية في المدينة للتمويه على هويّة مخبريها، وسنعلم في الصفحات التالية بأن الاسم الحقيقي لـ "S" هو كالوجيرو ديبيلّا، أو مَنْ يسمّيه أهل البلدة باسم "پارّينييدّو" أو "الراهب الصغير"، لكلامه اللاذع، وقدرته في إقناع مستمعيه من الفلاحين البسطاء.

(17) L'Ucciardone ، السجن المركزي الشهير في مدينة پاليرمو، عاصمة صقلية، وهو السجن الذي يقبع فيه العديد من عرّابي المافيا.

(18) يقول شاشّا في متن النصّ بأنهم (أي الصقلّيون) شرحوا له معنى كلمة "كوسكا"، وشبّهوها له بالإغلاقة الضيّقة لأوراق الخرشوف، كدلالةٍ على السرّيّة

والانغلاق اللذَين تتميّز بهما المافيا.

(19) Appennino - سلسلة جبال الآپّنين الفاصلة ما بين شمال إيطاليا ووسطها. وتُسمّى أيضاً جبال الآپيئين التوسكانيّة الإيميليانية، نسبة إلى مقاطعتَي توسكاني وإيميليا - رومانيا. ويُشير الكاتب هنا إلى اشتراك النقيب في النضال ضدّ الفاشيّة ضمن قوّات الأنصار، وإلى اكتشاف هؤلاء المقاتلين لجواسيس جنّدتهم أجهزة النظام الفاشي الأمنية للكشف عن مخابئ الثوّار.

(20) شكلٌ من أشكال النطق لمَن يأتون من المدينة الكائنة في الإقليم الذي جاء منه النقيب، مدينة پارما بمقاطعة إيميليا.

(21) لقبٌ شرفيّ تُنادى به شخصيات من رجال القانون أو الحكومة أو الدبلوماسيّة.

(22) واضحٌ أنّ المتحدّث يُشير إلى شخص آخر في الغرفة، على قَدْرٍ من المسؤولية في إحدى مؤسّسات الدولة.

(23) الحديث هنا موجّه إلى الشخص الآخر في الغرفة.

(24) الشاعر الرّوماني كوينتوس هوراتسيوس فلاكّوس، المعروف في إيطاليا ببساطة باسم أوراتسيو، أو "هوراتسيو". وُلد في روما في عام 65 قبل الميلاد، وتوفّي فيها في عام 8 بعد الميلاد. عُدّ الأعلى شأناً من بين شعراء اللاتينية.

(25) ليست الإشارة هنا إلى الولايات المتّحدة، كموطن مُتقدّم للجريمة المنظّمة، مصادفةً، فقد تطوّر القسم الأعظم من عالم الجريمة هناك منذ ثلاثينيات القرن الماضي وما بعدها، من خلال إسهامات المافيا الصقليّة، وبفضل موجات المهاجرين الصقلّيين إلى هناك. ويبدو أنّ الأواصر ما بين منظومتَي المافيا، الصقلّية والأمريكية، لم تنقطع أبداً، وربّما هي ما تزال قائمة حتّى الآن. والإشارة

هنا للتأكيد على أنّ المافيا تختار مرتزقتها القَتَلَة من غير القاطنين في مكان تنفيذ الجريمة، وذلك لتعقيد مهمّة الشرطة في التحقّق من هويّة القَتَلَة.

(26) Cavalleria Rusticana "كاڤاليريا روستيكانا: أوبرا من فصلٍ واحد للموسيقار الصقلّي پيتترو ماسكاني. تجري أحداثها في صقليّة، وتدور حول العلاقة ما بين "سانتوزا" و"توريدو". فقد هجر توريدو سانتوزا لأجل حبيبته السابقة، "لولا" المتزوّجة من "آلفيو". تكتشف سانتوزا كلّ شيء، وتُفصح به إلى آلفيو الذي يُهتاج ويُقدِم على قتل توريدو في نزال يدور بينهما وراء الكواليس وخلف مبنى الكنيسة، لرفع مقدار التراجيديا والآهات. تدور الأحداث في يوم أحد عيد الفصح. الأوبرا مُقتبسة من قصّة للكاتب الصقلّي جوفانّي فيرغا، وعُرضت للمرّة الأولى على خشبة مسرح كوستانسي بروما في 17 مايو / أيار 1890.

(27) Europa di notte - فيلمٌ وثائقي عن مشاهد ليلية جذّابة في أنحاء أوروبا.

(28) Giovanni Meli - جوفانّي ميلي - شاعرٌ شعبيّ من عاصمة صقليّة، پاليرمو، كتب بلغة هذه المدينة، وتغنّى في قصائده بعاطفة تجاه عالم الفلاحين، كما تغنّى بنساء القرن السابع عشر الأرستقراطيّات.

(29) Francesco Lanza - فرانتشيسكو لانتزا - كاتب وناقد وُلد في عام 1897 مدينة ڤالغوارنيرا بمحافظة "إينّا" الواقعة في قلب صقلّية، وتوفّي في عام 1933. ألّف كتاباً بعنوان "الدُمى الصقلّيّة"، وأشرف على أنطولوجيا شِعر جوڤانّي ميلي.

(30) Ignazio Buttitta - إينياتسيو بوتّيتا وُلد في بلدة "باغيريّا"، وهو من أفضل مَنْ كتبوا الشّعر باللغة الصقلّيّة (وكان يحلو له، عندما التقيتُهُ في بلدة جيبيلّينا في منتصف الثمانينيات، بأن يُحيل أصول لقبه إلى الرحّالة ابن بطّوطة)

- ملاحظة من المترجم -.

(31) Salvatore Quasimodo - سلفاتوري كوازيمودو - شاعر، كاتب ومترجم وُلد في مدينة سيراكوسا الصقلّية في عام 1901 وتوفّي في ميلانو في عام 1968. نال جائزة نوبل للآداب في عام 1959.

(32) Giovanni Verga - جوفاني فيرغا - كاتب صقلّي وُلد في مدينة كاتانيا في عام 1840 وتوفّي في عام 1922. وهو، بلا شك، أحد أكبر الكتّاب الإيطاليّين على الإطلاق، وهو من بين الكتّاب، إلى جانب آليساندرو مانزوني، الذين تمكّنوا من رفع شأن الأدب الإيطالي إلى مصافّ الآداب الكبرى في العالم. ومن بين أهمّ أعماله "مالافوليا" و"المعلّم دون جيزوالدو".

(33) Il Gattopardo "الفهد" الرواية الشهيرة التي ألّفها الأمير توّمازي دي لامبيدوزا، وحوّلها المخرج الإيطالي الكبير لوكينو فيسكونتي إلى فيلم بالعنوان نفسه، أدّى بطولته عدد من النجوم العالميّين، من بينهم بيرت لانكاستر وآلان ديلون وكلاوديا كاردينالي.

(34) Umberto Terracini - أومبيرتو تيرّاتشيني - أحد قادة الحزب الشيوعيّ الإيطالي ومن بين مؤسّسيه. وُلد في مدينة جنوة الشماليّة الغربية في عام 1895 وتوفّي في روما في عام 1983. ترأس الهيئة التأسيسيّة للبرلمان الجمهوري الإيطالي، ما بعد انهيار الفاشيّة وإعلان الجمهورية الإيطالية.

(35) Ostia - هو رُقاقة الخبز المقدّس الذي يُقدّمه الرُهبان إلى المؤمنين في نهاية القُدّاس، كقربان قدّم به يسوعُ المسيح جسدَه لخلاص البشريّة.

(36) هناك اختلاف واضح في اللفظ ما بين المرأة ورجلَي الشرطة.

(37) Emilia Romagn - مقاطعة إيميليا رومانيا الشماليّة الإيطالية،

عاصمتها مدينة بولونيا، وتقع جغرافياً ما بين (لومبارديا) ميلانو) وتوسكاني) فلورنس.

(38) الشاعر الذي يقتبس منه الكاتب هو الشاعر الإيطالي الكبير آتيليو بيرتولوتشي، والد المخرجين بيرناردو وجوزيبي بيرتولوتشي.

(39) قرون الوعل، كدلالة على التعرّض إلى الخيانة الزوجيّة.

(40) سلطة قوّات الاجتياح الأمريكي لإيطاليا لإسقاط النظام الفاشي، بزعامة الديكتاتور الفاشي بينيتو موسوليني، والذي ابتدأ بالإنزال في جزيرة صقليّة.

(41) وفي هذا تلميح إلى استفادة القوّات الأمريكية من دعم المافيا ومن عدد من المجرمين لتحقيق بعض المآرب الضروريّة لجيش الاجتياح.

(42) أي من تعرّضوا إلى الخيانة الزوجيّة.

(43) أنواع المعجّنات من عائلة السباغيتي وغيرها.

(44) اختزالٌ لاسم ملك إيطاليا ڤيكتور عمّانوئيل الثالث - Vittorio Emanuele III - وكُنيته. كان حرفا الاختزال موضوعَين على جبهات قبّعات رجال الشرطة.

(45) تدور الأحداث في الخمسينيات. وبعد شهور قليلة من الاستفتاء الشامل الذي أنهى الملكيّة في إيطاليا، وأعلن الجمهورية الإيطالية في الثاني والثالث من يونيو / حزيران 1946 ، وهو الاستفتاء ذاته الذي أقرّ نفي مَنْ تبقّى من رجال العائلة المالكة إلى الخارج، وحظر عليهم العودة إلى البلاد، وعلى رأسهم الملك أومبيرتو دي سافويا، الذي دام مُلكه كرمشة عين لبضعة أسابيع. قَبِل بالمنفى بعد أن مالت كفّة المصوّتين إلى جانب الجمهورية، ورحل من روما إلى لشبونة في

الثامن عشر من يونيو 1946.

(46) Il Generale Cesare Mori - الجنرال تشيزيري موري.

(47) Bosco di Ficuzza - غابة فيكوتسا، محمية طبيعية عامرة بالشجر، وتقع بالقرب من مدينة كورليوني في محافظة پاليرمو، عاصمة صقلية.

(48) Briscola - بريسكولا - لعبةُ من أصول إسبانية، تعود إلى القرن الخامس عشر، وقد وصلت إلى إيطاليا عبر الفرنسيين، وأدخل عليها الإيطاليون تعديلات، جعلت منها لعبة إيطالية بالمعاني كلّها.

(49) Amaro Averna - آمارو آفيرنا - شراب كحولي هاضم، وُلد في منتصف القرن التاسع عشر في مدينة "كالتانيسيتا" الصقلّية. يُستخرج من تقطير عدد من الأعشاب البريّة، على أساس وصفات استخدمها الرهبان في الأديرة منذ قرون. يتميّز بقدرٍ من المرارة، لكنّ مذاقه مُحبّب. وتراوحت درجات الكحول فيه ما بين 29 درجة مئوية في الوصفة الرئيسة، وبلغت إلى 34 درجة منذ عام 2000.

(50) Evis - جيش المتطوّعين من أجل استقلال صقلية - مجموعة سرّيّة شبه عسكرية، أسّسها في عام 1945 آنتونيو كانيپا، وكان أولّ قائد لها، ونادت باستقلال جزيرة صقلية عن إيطاليا. نالت دعم مجموعات استقلالية أخرى، وانضمّ إليها عدد من رجال المافيا الساعين إلى الهيمنة على صقلية، ومن بين هؤلاء رجل العصابات المافيوي سلفاتوري جوليانو، الذي يُشار إليه بالبنان كونه اقترف وقاد الهجوم المسلّح على الفلاحين المحتفلين في سهل پورتيلا ديلا جينيسترا في الأوّل من أيّار / مايو 1947ولقي فيه 11متظاهراً مصرعهم.

(51) Salvatore Giuliano -سلفاتوري جوليانو - اقرأ الملاحظة السابقة - رجل عصابات مافيوي اقترف العديد من الجرائم، ومن بينها مجزرة بورتيلا جينيسترا.

(52) Vittorio Emanuele Orlando - سياسي وُلد في پاليرمو في عام 1860. تولّى عدّة حقائب وزارية، وتولّى رئاسة الحكومة خلال الحرب العالمية الثانية، ومثّل إيطاليا في مؤتمر فرساي. وبعد الحرب اختير رئيساً لمجلس النوّاب، وأسهم في كتابة الدستور الإيطالي الجديد. توفّي في عام 1952.

(53) الماسونيّة - أو بالأحرى الجمعية السرّيّة لمَنْ أطلِق عليهم بـ "البنّاؤون الأحرار". تأسّست في إنجلترا في القرن السابع عشر.

(54) قوّة الدَّرَك المعروفة، منذ ميلادها في تورينو في 13 تمّوز/ يوليو عام 1814، بارتباطها بالدفاع عن أمن المواطن والبلد وسلامتهما، ومَنْ ينتمي إليها إنّما ينتمي إلى تقاليد عسكرية عريقة، تحظى بالاحترام من قبَل المواطنين والمؤسّسات.

(55) Zvetonio - غايو زفيتونيو ترانكويلّو، والمعروف باسم زفيتونيو، مؤرّخ وكاتب سِيَر روماني عاش في العصر الإمبراطوري، وتوفّي في عام 126 ميلاديّة. ألّف العديد من الكتُب، لكنّ ما بقي منه هو مؤلّفه المعنون "حياة القياصرة".

(56) كان قانون المرور ينصّ على عدم وجوب صعود أكثر من راكبَين في المقعد الخلفي لذلك النوع من السيّارات.

(57) Francesco Crispi - فرانتشيسكو كريسپي (1901 - 1818) سياسي صقلّي كان من بين صُنّاع اليقظة الإيطالية، وأحد أقرب مساعدي صانع الوحدة الإيطالية جوزيپي غاريبالدي. وتولّى رئاسة الحكومة لأربع مرّات بعد توحيد إيطاليا، إلّا أنّه اضطرّ إلى الانسحاب من الحياة السياسيّة بعد الهزيمة الإيطالية في أفريقيا، وإخفاق الحملة على "آدوا" في إثيوبيا في عام 1896.

(58) التغريد، يعني في القاموس المافيوي الاعتراف بكلّ شيء.

(59) Ucciardone - السجن المركزي في عاصمة صقلية پاليرمو.

(60) يمكن تفسير استهجان دييغو ماركيكا ببساطة، بأنه لا يؤمن بالخرافات النابعة من جلسات تحضير الأرواح السائدة، بسبب الاعتقادات الغامضة، ولا بـ "الطاولات ذات السيقان الثلاثة" التي يستخدمها مَن يدعون تحضير الأرواح؛ أو يمكن تفسير ذلك الاستهجان باقتناعه بأنّ شهادات مُستقاة بفعل هذه الطقوس الغامضة لا تمتلك أيّة قيمة على صعيد المداولات القضائية داخل قاعة المحكمة.

(61) استعادة خاصّة للغاية لجملة شمشون الأثيرة: "فلينهدم المعبد عليّ وعلى أعدائي" ..

(62) Befana - في التقاليد الشعبيّة الإيطالية هي الساحرة العجوز الطائرة على مَتن مكنستها، والتي تزور الأطفال ليلة السادس من يناير، حاملة الحلوى للأطفال المؤدّبين وقِطَع الفحم لمَن آتى من بينهم بحماقات ... وهي، أي الـ "بيفانا"، برغم منظرها القبيح، مُنتظرة من قبل الأطفال بالضبط، كما ينتظرون وصول بابا نويل ليلة عيد الميلاد.

(63) La Catena di S. Antonio - سلسلة القدّيس آنتونيو - تعبيرٌ عن اعتقادات شعبية للذين، لا تتوانى عن الخلط ما بين حيوات القدّيسين والخرافة، ويعتمد هذا التقليد على أن يقوم الشخص الأوّل الذي استلم خبراً أو مهمّة لترويج أمرٍ ما، بإرسال ذلك إلى خمسة أشخاص يعرفهم ويثق بهم، ويقوم كلّ واحدٍ من هؤلاء بدوره بالإرسال إلى خمسة آخرين يعرفونهم ويثقون بهم، وهكذا دواليك، إذ تتّسع رقعة المعرفة بالأمر أو الشيء. ويمكن المقاربة ما بين هذا التقليد والاعتقاد الشعبيّ ووسائل التواصل الاجتماعي الحالية عبر الفيس بوك أو الوسائل الأخرى. إلّا أنّ هناك فارقاً أساسيّاً في الحالة الواردة في النصّ، وهو استحالة الترويج الواسع للأمر الذي أُبلِغ عنه صاحب السعادة، ويقوم هو بدوره بالإبلاغ عنه.

(64) يُشير إلى شخصية Farfarello أشدّ الأبالسة توتّراً وعراكاً في "جحيم" دانتي في الكوميديا الإلهيّة.

(65) لقد تمّ إيقاظ الوالي من نومه بمكالمة هاتفية من الوزير، وأيقظ بدوره مقدّمَ وكولونيل الدَّرَك في المحافظة.

(66) إشارة إلى الاستسلام الذي يُعلن به مدرّب الملاكم انسحاب لاعبه من الحلبة، بسبب عجزه عن مواجهة الخصم أو مواصلة النزال.

(67) Barruggieddu - سيشرح الكاتب في السطور التالية مصدر الاسم الذي أطلِق على الكلب.

(68) صيغة ترحابٍ وتحيّة ما تزال قائمة بين الطبقات الفقيرة في صقليّة؛ وهي تعبير عن تقاليد مجتمعية قديمة، تُعبّر عن صيغ الرضوخ للسلطة والأغنياء والتبجيل لهم.

(69) Bargello - ضابط كبير في جيوش القرون الوسطى، كان يترأس قوّة من الشرطة والجنود المختصّين في قمع التمرّدات والهيجانات. وفيما بعد، صارت التسمية دلالة عموميّة على مَنْ يترأس قوّة من الشرطة.

(70) يعني بذلك الأقباء الموجودة في العادة تحت أرضيّات الكنائس، وقد استخدمت تاريخياً كمدافن لرجال الكنيسة أو لحماية المقدّسات. وغالباً ما تلفّ العديد من هذه الأقباء أساطير غامضة.

(71) سالاپاروتا، بلدة تقع في غرب جزيزة صقليّة بالقرب من مدينة تراپاني، أمّا فيتوريا، فهي بلدة في الشرق الصقلّي، وتقع بالقرب من مدينة راغوزا. والبلدتان كلتاهما تشتهران بالنبيذ الجيّد الذي يُنتَج من كرومهما.

(72) دييغو ماركيكا، وتعني طبقات الشَّعر على بطنه، كونه كتوماً للغاية، ولن يُفصح للشرطة عن أيّ شيء.

(73) ويعني بهذا نهاية الحصانة والكتمان اللذَين حظي بهما دون ماريانو آرينا على الدوام من قبَل أتباعه وعصابته.

(74) "صموث كما القبر"، صيغة شعبية للإشارة إلى سرّيّة وكتمان شخص ما، وعلى قدرته على حفظ الأسرار، فكما هو معلوم، وهو ما يؤمن به الصقليّون أكثر من غيرهم، بأنّ "الموتى لا يتكلّمون".

(75) يُشير إلى موقف مُوحّد الدولة الإيطالية، أو مَن كُنّيَ بلقب "بطل العالمين"، جوزيبي غاريبالدي إزاء الكنسية وتعاليمها التقديسيّة، ومخافَةَ أنْ يَخضع في اللحظة الأكثر ضعفاً في حياته، أي في اللحظات الأخيرة من الاحتضار، إلى التلقين بتعاليم الكنيسة، والتي وصفها في وصيّته بأنّها "أكثر امتلاءً بالأشواك من الصبّار نفسه"، فقد ثبّت موقفه هذا في وصيّته المشهورة.

(76) عام 1927، أي عندما تولّى الجنرال موري قياد السلطة في صقليّة.

(77) لُعبة الورقات الثلاث، مقامرة خُواةٍ، تعتمد على سرعة القابلية في تحريك ثلاثةٍ من أوراق القمار المتشابهة، وتحويل مواقعها على الطاولة بحركة بارعة من الكفَّين، تُبعثر تركيز اللاعب، وتُخفِق محاولاته في الكشف عن الورقة الفائزة. احتيال حقيقي، لا يربح فيه إلّا مَنْ يُحرّكُ تلك الأوراق، وقد يُخدَعُ اللاعب بفوز أوّل أو ثانٍ لسحبه إلى اللعبة والتورّط بها، لكن الخسارات ستنهمر فيما بعد بتوالٍ غير منقطع كما المطر المنهمر.

(78) وجها العملة النقديّة، واللذان يُستخدمان في المراهنات، ففيما كانت المسكوكة تحمل على وجه الصليب، كان الوجه الآخر يحمل في العادة صورة

الملك أو الملكة.

(79) ويعني بهما النقيب بيلّودي ووكيل النيابة المكلّف بملفّ التحقيقات، وكلاهما من أصولٍ شماليّة.

(80) يعني شاشا هنا، كما يُفسّر الكاتب سيبستيان ڤاسالّي بأنّ الالتزام المطلق بعقيدة "الدقّة القضائية والقانونيّة" تقود إلى انفصال "أو تجريد كامل" عن الوقائع؛ إلى الدرجة التي يفقد فيها القانون كينونته الطبيعيّة باعتباره منظومة من التطبيقات العمليّة للتعايش المدني، ويُصبح (القانون) مجرّد لُعبة مُعقّدة غريبة عن الحياة نفسها.

(81) ويعني بأنّ الدولة "كيانٌ"، أي إنّها ليست شيئاً واضح الملامح بفعل طبيعتها، بل بفعل ما تمتلكه من سلطة ومن سطوة.

(82) بالليرة الإيطالية التي كانت العملة الوطنية الإيطالية قبل دخول اليورو في الأوّل من يناير 2002.

(83) Palermo - پاليرمو - عاصمة جزيرة صقليّة.

(84) زعامات الأحزاب الحاكمة في زمن الأحداث التي تدور في الرواية.

(85) يشير الكاتب في هذه الحالة ما اعتادت عليه أعدادٌ من دافعي الضرائب الإيطاليّين، في أن يكون لديهم مساران، أولّهما واضح ومُعلَن عنه لدائرة الضرائب، وهو القسم الأصغر من الموارد، والمسار الثاني مَخفي وغير مُعلَن، وهو المسار الذي يضمّ الوارد الأكبر، وبهذا يأتي ما يدفعونه من ضرائب إلى خزينة الدولة ضئيلاً للغاية.

(86) يعني بأنّها كلمات جميلة، لكنْ، دونما معنى.

(87) Quaquaraqua - البَطباط - من صوت البط - وهو، في التعريف الصقلّي لأناس اعتادوا الثرثرة، ويبدو كلامهم ضجيجاً دونما معنى، وليس لشخصياتهم أيٌ من سيماء الاحترام. هذا التعريف صار جزءاً من القاموس الإيطالي بعد استخدامه من قبَل ليوناردو شاشا.

(88) أي ستجد الموت.

(89) Grano - معناها اللغويّ هو "القمح"، والإشارة إلى حبّة القمح، لكنّ ما يردُ في النصّ هو إشارة إلى أصغر وحدة نقدية مسكوكة من النحاس، وكانت مُتداوَلة في مملكة الصقليّتَين، وكانت تساوي "فلساً" واحداً.

(90) أحد الشوارع المتاخمة لمجلس النوّاب الإيطالي في ساحة مونتيتشيتوريو، وفيه جزءٌ من مكاتب المجلس

(91) Galleria - غاليّريا - ثمّة في عدد من كبرى المُدُن الإيطالية، كروما وميلانو ونابولي بعض الممرات المُسقّفة، والتي تحتوي في العادة على فيترينات ومحلّات راقية، وهي مناطق للسابلة فحسب. ومن بين هذه "الغاليّرهات" "غاليّريا فيتّوريو إيمانويلي الثاني" في ميلانو قُرابة الكاتدرائية المركزية في المدينة ، وغاليّريا "أومبيرتو" في نابولي. أمّا الغاليّريا الواردة في النصّ، فهي تلك القائمة في ساحة "كولونّا" وسط روما، وأنشئت في مطالع القرن الماضي، وافتتحت في 20 أكتوبر 1922. وصارت تحمل اسم النجم الإيطالي الراحل آلبيرتو سوردي منذ عام 2003، بعد وقت قصير من رحيله في 24 فبراير من العام ذاته.

(92) Testaccio - حيّ تيستاتشو حيٌ تاريخي يقع على الجانب الشرقيّ من العاصمة الإيطالية روما، ويشتهرُ بمطاعمه ومقاهيه الكثيرة والمتميّزة.

(93) La Colonna Aureliana - مسلّة مارك آوريليو. نُصبُ يقوم في وسط

العاصمة الإيطالية قُبالة قصر "كيجي"، مقرّ رئاسة الحكومة الإيطالية. شُيّد ما بين عامَي 176 و192 للاحتفال بانتصارات الإمبراطور مارك آوريليو الذي حكم ما بين عامَي 161 و180 بعد الميلاد.

(94) La Questione Meridionale - قضيّة الجنوب - بدأ الحديث عن قضيّة الجنوب في إيطاليا منذ عام 1861، أي عام إعلان المملكة الإيطالية، وكان الجنوب آنذاك يُعرَض وكأنّه أرض عصابات النهب ومَكمن التّخلّف الاقتصادي ومراتع الأمراض السارية والمعدية والأمّيّة؛ وما تزال هذه القضيّة قائمة، على رغم اختلاف مفردات مسقياتها، بالذات فيما يتعلّق بتباين مستويات التنمية مع الشمال، وبمقدار نسب البطالة وازدياد وتائر الجريمة، وبالذات في التباين الاقتصادي والاجتماعيّ بين "شمال" البلاد و"جنوبها".

(95) Palmiro togliatti - پالميرو تولياتي - (1964 - 1893) أحد قادة الحزب الشيوعيّ الإيطالي، وكان من بين مؤسّسي الحزب الذي وُلد من رحم الحزب الاشتراكي في عام 1921. عاش في المنفى خلال الحكم الدّيكتاتوريّ الفاشي، وتولّى زعامة الحزب كأمينٍ عامّ، وهو المنصب الذي ظلّ محتفظاً به حتّى وفاته. عاد إلى إيطاليا في عام 1944، وتولّى منصب نائب رئيس الحكومة، وتقلّد وزارات عديدة ما بين عامَي 1944 و1947.

(96) Pietro Nenni - پييترو نينّي - (1980 -1891). عمل صحفياً في جريدة "آفانتي" الصادرة عن الحزب الاشتراكي الإيطالي، ومن ثمّ صار رئيساً لتحريرها. نُفي إلى فرنسا خلال حكم الدّيكتاتوريّة الفاشيّة، وانتُخب بعد التحرير أميناً عامّاً للحزب الاشتراكي. وتولّى منصب نائب رئيس الحكومة ووزارة الخارجية. واختير ليكون "سيناتوراً مدى الحياة"، وهو منصب شغله حتّى وفاته.

(97) Amentori Fanfani - آمينتوري فانفاني - (1990 - 1908) كان أحد قادة الحزب الديموقراطيّ المسيحي، وأطلق العنان في عام 1948 لخطّة إنمائية،

حملت اسمه "خطّة فانفاني" التي أسهمت في العديد من الإنشاءات، وأتاحت للعديد من فرص العمل بالبروز. تولّى رئاسة الحكومة لمرّات عديدة، كما تقلّد مناصب وزارية عديدة.

(98) Giuseppe Pela - جوزيبي بيلا - سياسي وزعيم من الحزب الديموقراطي المسيحي، وتولّى رئاسة الحكومة بين عامَي 1953 و1954، كما تقلّد مناصب وزارية عديدة، وكان خلال الفترة التي تدور فيها أحداث الرواية وزيراً للميزانية منذ أكثر من عام.

(99) نائب وزير الداخليّة.

(100) إشارة إلى اعتبار ذلك المتحدّث من بين القوّادين ومَنْ عانى من خيانة زوجيّة، وفق التصنيف الصقلّي.

(101) Bufalo Bill - William Fredrick Cody (1846 - 1917) فريدريك ويليام كودي، المُلقّب بـ "بافالو بيل" كان قائداً لفرسان الخيّالة الأمريكان، وشارك في عدد كبير من الحملات ضدّ السكّان الأصليّين في القارّة الأمريكية، والمعروفين باسم "الهمود الحمر"، وقد حوّلت أفلام رُعاة البقر شخصية "بافالو بيل" إلى بطلٍ شبه أسطوري، مُغطّية على الكثير من الفظاعات التي اقترفت ضدّ السكّان الأصليّين، وهم يتعرّضون إلى نهب واضح لأراضيهم وبقاعهم.

(102) الاستقلال الذّاتي لصقليّة.

(103) Angelo Mancuso - آنجيلو مانكوزو - ممثّل صقلّي شهير، عاصر الكاتب الصقلّي الحاصل على نوبل للآداب لويجي پيرانديلّو، وقد أدّى كوميديات پيرانديلّو ببراعة عالية سواء باللغة الإيطالية أو بلغة صقلّية. توفّي في عام 1937.

(104) تاورمينا وسيراكوسا ومسرحاهما الإغريقيان.

(105) New Orleans - Funerale al Vieux Colombier - نيو أورليانز، المدينة الأمريكية الواقعة في ديلتا نهر الميسيسيبّي، وفيها نسبة عالية من المواطنين السود ، وفي هذه المدينة وُلدت في بدايات القرن الماضي، وتطوّرت، موسيقى الجاز. والمقطوعة المشار إليها هنا هي من بين الأكثر شهرة.

(106) Renato Guttuso - ريناتو غوتّوزو - رسّام إيطالي وُلد في مدينة باغيريّا، بالقرب من پاليرمو، في عام 1912. اشتهر في سني ما بعد الحرب العالمية الثانية بكونه الممثل الرئيس لتيّار الواقعية الجديدة في الرسم، وقدّم، عبر لوحات بألوان ساخنةٍ وعنيفة، مأساة الطبقات الاجتماعية الفقيرة على سطح الكوكب. توفّي في روما في عام 1987.

(107) Il Bell'Antonio - أنطونيو الجميل للكاتب الصقلّي ڤيتاليانو برانكاتي - وُلد فيتاليانو برانكاتي في بلدة پاكينو بمحافظة سيراكوسا في عام 1907. وتعامل برانكاتي في غالبيّة أعماله، ومنها النصّ المشار إليه المنشور في عام 1949، مع شخصيات وأجواء من مسقط رأسه. توفّي في تورينو في عام 1954.

(108) وضعها ليوناردو شاشا في خاتمة الطبعة الحادية عشر التي أصدرتْها دار نشر إيناودي.

(109) Alessandro Manzoni أساندرو فرانشيسكو مانزوني - أبو اليقظة الإيطالية، وأحد أكبر روائيي إيطاليا عبر العصور، وتظلّ روايته الشهيرة "المخطوبان" علامة فارقة في الأدب الإيطالي. وُلد في ميلانو في السابع من مارس/ آذار 1785 وتوفّي فيها في الثاني والعشرين من مايو/ أيّار 1873.

(110) Giacomo Girolamo Casanova جاكومو جيرولامو كازانوفا

- مُغامِرٌ، كاتبٌ شاعرٌ، دبلوماسي، فيلسوف وعميل سرّيّ إيطالي، من مواطني جمهورية فينيسيا (البندقية)، التي وُلد فيها في 2 أبريل/ نيسان 1725 وتوفّي في دوتشكوف بجمهورية التشيك في 4 يونيو/ حزيران 1798. طفت شهرته كعاشق للنساء على إنجازه الإبداعي والفلسفي، واقتبس المسرح والسينما من ذلك الجانب في شخصيته العديد من الأدوار التي ستبقى حيّة، ومن بين تلك الأعمال شريط المعلّم الإيطالي الكبير فيديريكو فيلّيني "كازانوفا فيديريكو فيلّيني"، والذي أناط فيه شخصية كازانوفا إلى النجم الكندي الكبير دونالد ساذرلاند.

(111) Caltanisetta "قلعة النساء" بتسميتها العربية القديمة.

(112) Giuseppe Ungaretti جوزيبّه أونغاريتّي - شاعر، كاتب ومترجم إيطالي كبير. وُلد في حيّ محرّم بيك بالإسكندرية في مصر في 8 فبراير/ شباط 1888، إلّا أن ميلاده سُجّل رسمياً في العاشر من الشهر ذاته. كان والداه من أصول إيطالية من مدينة لوكّا التوسكانيّة. توفّي في ميلانو في الثاني من يونيو/ حزيران .1970

(113) Galleria - غاليّريا - مجلّة أدبية كانت تصدر كلّ شهرَين في صقليّة، وصفها الكاتب إيليو فيتوريني بأنّها "أفضل مجلّة أدبية صدرت في صقليّة على الإطلاق". من بين كتّابها، بالإضافة إلى شاشا وفيتوريني وبيير باولو بازوليني، كلّ من آلبيرتو مورافيا، ماريو پاز، إيميليو تشيكّي، والناقد التشكيلي الكبير جوليو كارلو آرغان، والمعماري فيديريكو زيري.

(114) PierPaolo Pasolini پيير پاولو پازوليني - الكاتب والشاعر والمخرج السينمائيّ والمسرحي الذي أحدث ثورة حقيقيّة في عالم الشُعر والسينما والرواية الإيطالية. قُتل في ظروفٍ غامضة، وعُدّ موته اغتيالاً سياسياً، ووُجّهت أصابع الاتّهام إلى أوساط سياسيّة وعصابات يمينيّة مُتغلغلة في مؤسّسات أمنية إيطالية، كونها دبّرت حادث قتله على ساحل بلدة أوستيا، إحدى

ضواحي روما البحرية في 2 نوفمبر 1974. وأشارت تحقيقات صحفية كثيرة بأن الجريمة نُفّذت لِوَأد صوت پازوليني للإقلال من تأثير مواقفه وآرائه الجريئة على أجيال الشباب والمثقّفين.

(115) Compromesso Storico "التسوية التاريخيّة" - هو الاتّفاق الذي توصّل إليه زعيما الحزب الديموقراطيّ المسيحي آلدو مورو وزعيم الحزب الشيوعيّ الإيطالي إنريكو بيرلنغوير، وضع نهاية للتضادّ حامي الوطيس بين قُطبَي المجتمع الإيطالي الرئيسَين، وفتح مرحلة جديدة في السياسة الإيطالية الأوروبية، أفضت إلى فتح آفاق التعاون في بناء الديموقراطيّات الغربية بعيداً عن المنظور الآيديولوجي الضيّق. وبرغم أفقها الإيجابي، فقد فتحت هذه "التسوية" الباب أمام تضادّات أخرى داخلياً وخارجياً، إذْ لم يَنَلْ ذلك الاتّفاق مباركاتٍ من قبَل الولايات المتّحدة وأوساط من الفاتيكان ومن اليسار المتطرّف، وأُطلق العنان لمرحلة توتّر عميقة، بلغت قمّتها باختطاف آلدو مورو من قبَل "الألوية الحمراء" في مارس/ آذار 1978واغتياله بعد 55 يوماً من الخطف.

(116) Enrico Berlinguer إنريكو بيرلنغوير - زعيم الحزب الشيوعيّ الإيطالي الأسبق، تولّى زعامة الحزب بعد وفاة قائده التاريخيّ پاليميرو تولياتّي، وقاده صوب استقلالية إيجابيّة من التبعيّة إلى الحزب الشيوعيّ في الاتّحاد السوفياتيّ، وشكّل، مع زعيمَي الحزبَين الشيوعيَّين الفرنسي والإسباني، جورج مارشيه وسانتياغو كاريّو، رأس الحربة فيما عُرف بالشيوعيّة الأوروبية، وأنجز "التسوية التاريخيّة" مع زعيم الحزب الديموقراطيّ المسيحي آلدو مور. تُوفّي في عام 1984 بعد إصابته بالجلطة الدماغيّة خلال تظاهرة حاشدة في مدينة پادوڤا القريبة من فينيسيا، وشهدت روما، لتوديعه، جنازة لم يسبق لها مثيل في تاريخها.

(117) Aldo Moro آلدو مورو - رئيس الحزب الديموقراطيّ المسيحي الإيطالي ورئيس الحكومة لعدّة مرّات، اختطفتْهُ منظّمة "الألوية الحمراء" في

شهر مارس/آذار 1978، واغتالتهُ بعد 55 يوماً من الخطف، وعُثر على جُثته في سيّارة رينو حمراء، أوقفها الخاطفون في شارع في روما، ينتصف المقرّين الرئيسيّين للحزبَين الشيوعي والديموقراطي المسيحي.

(118) Giulio Andereotti جوليو آندريوتّي - أحد أهمّ قادة الحزب الديموقراطي المسيحي ما بعد الحرب العالمية الثانية، وقد ترأس الحكومة الإيطالية سبع مرّات، واستوْزِر لمرّات عديدة، وشغل حقيبة الخارجية لعدّة مرّات. وفيما كان مُرشحاً قوياً لرئاسة الجمهورية، اتُّهِمَ بأواصر مع مافيا "كوزا نوسترا" الصقلّية وعرّابها الأكبر توتو ريينا. وعلى رغم عدم ثبوت الاتّهامات ضدّ آندريوتّي في هذا الصدد، إلّا أن ذلك الملفّ شكّل بداية النهاية لحياته السياسيّة التي بدأت منذ عام 1948، ونهاية تأثيره على المشهد السياسي الإيطالي بشكل عامّ. عُرف بسياساته الهادئة، وسعيه المتواصل بجعل المتوسّط بُحيرة وئام، وكان على علاقات جيّدة مع الزعامات العربية منذ خمسينيات القرن الماضي.

(119) Ettore Majorana إيتوري مايورانا - عالم فيزيائي إيطالي وُلد في 5 أغسطس/آب 1906، واختفى من إيطاليا في ظروف غامضة في 27 مارس/آذار1938وهو التاريخ الافتراضي لوفاته، فيما تُشير بعض المصادر إلى وفاته في مكان مجهول ما بعد عام 1956وقد عمِل كنظري ضمن الفريق الفيزيائي الإيطالي الشهير "شباب شارع پانيسپيرنا" بروما، والذي ضمّ من بين أفراده الفيزيائي الإيطالي الشهير إنريكو فيرمي. وبقيت ظروف اختفاء مايورانا غامضة حتّى اليوم، وحيكت حولها الكثير من التكهّنات والتأويلات.

(120) Edoardo Amaldi إدواردو آمالدي - عالم فيزيائي إيطالي وُلد في روما في 5 سبتمبر/ أيلول 1908تخرّج في جامعة روما في عام 1931 برفقة زميله إنريكو فيرمي، وشكّلا معاً، برفقة عدد آخر من زملائهما، جماعة "شباب شارع پانيسپيرنا". وانتقل إلى لايبزيغ بألمانيا لإكمال دراسته العلمية. أسهم بشكل فعّال بتأسيس المعهد القومي الإيطالي للفيزياء النووية، وتأسيس المجلس

الأوروبي للبحوث النووية. وترأس في عام 1966 المدرسة العالمية لنزع السلاح وبحوث الصراعات. توفي في روما في 5 ديسمبر/ كانون الأول 1989.

(121) Marcelle Padovani مارسيل پادوڤاني. صحفيّة فرنسية وُلدت في عام 1947. تعيش في إيطاليا منذ سنوات طويلة. وتناولت ظاهرة المافيا الإيطالية في أكثر من كتاب، ويُعدّ كتابها - حوار مع ليوناردو شاشا "La Sicila come Metafora صقليّة كميتافور" واحداً من أهمّ القراءات للمافيا الصقلّيّة "كوزا نوسترا". (تحت الترجمة).

(122) Monsignor Angelo Ficara المونسينيور آنجيلو فيكارا - أسقف إيطالي شهير، تولّى رئاسة الكنيسة في مدينة كانيكاتّي الصقلّيّة، وقاد أبرشيّة مدينة پاتّي في صقليّة من عام 1937 حتّى عام 1957، حيث أُبعد بسبب مواقفه من استخدام الكنيسة كأداة في الصراع السياسيّ الإيطالي لصالح هيمنة الحزب الديموقراطيّ المسيحي، ولعرقلة تصاعد تأثيرات الحزب الشيوعيّ الإيطالي في صقليّة. تناول شاشا عشرينيّة صراع الأسقف مع زعامة الكنيسة والحزب الديموقراطيّ المسيحي في روما في كُتيّب ثري بالمراسلات، بعنوان "في صفّ المُلحدين". (تحت الترجمة).

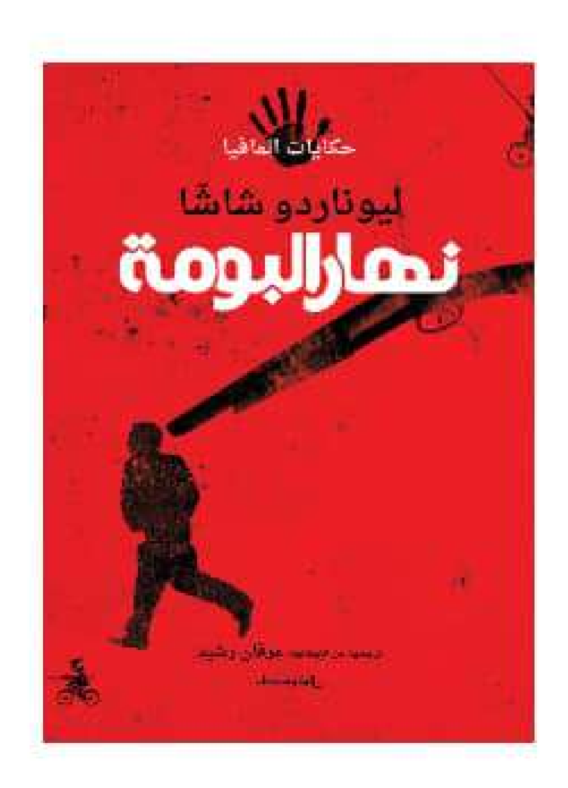
(123) Martin Guerre مارتين غيرّ - كان مارتين غيرّ مُزارعاً فرنسياً عاش في القرن السادس عشر، وصار "ضحيّة لقضيّة انتحال هوية إنسانٍ آخر". فبعد فترةٍ من اختفائه وابتعاده من زوجته وابنه، ظهر رجلٌ ادّعى بكونه مارتين غيرّ، وعاش لثلاث سنين مع الزوجة. وبعد فترة من هذا التعايش برزت شكوك حول الهوية الحقيقية لهذا الشخص، وخضع إلى المحاكمة، واكتشف القضاة بأنّ اسمه الحقيقي هو آرنو دي تيله، وأنّه انتحل شخصية غيرّ. وتزامنت المحاكمة مع عودة مارتين غيرّ الحقيقي إلى بلدته، واختتمت المحاكمة بإصدار قرار الإعدام بحقّ المُنتحل. وما تزال هذه القضية تُضرب مَثَلاً في القضاء كنموذج لانتحال الشخصيّة.

(124) Premio Baguta جائزة باغوتا. تأسست جائزة باغوتا الأدبية في الحادي عشر من نوفمبر/ تشرين الثاني 1926، واستنبطتها مجموعة مكوّنة من11كاتباً إيطالياً شاباً، كانوا اعتادوا على اللقاء الدوريّ في مطعم "باغوتا" بمدينة ميلانو. وقرّر المجتمعون أنفسهم أعضاء في لجنة التحكيم التي اختارت الكتاب الفائز. وبتتالي الأعوام مُنحت الجائزة إلى عدد كبير من الكتّاب، من بينهم فيتاليانو برانكاتي وإيتالو كالفينو وليونيدا ريپاتشي وكارلو إيميلو غادا وبريمو ليفي وبييرو تشيتاتي، وغيرهم الكثير.

(125) Generale Carlo Alberto Chiesa الجنرال كارلو آلبيرتو ديلا كييزا - أحد كبار قيادات الشرطة العسكرية الإيطالية (كارابينييري)، اشتهر بمواجهته مع الإرهاب اليساري، وعُيّن والياً لپاليرمو إثر اغتيالات مافيوية لسياسيّين كبار في جزيرة صقليّة، وتمكّنت منه المافيا، واغتالتهُ برفقة زوجته الشابّة في كمين مرعب.

(126) Paolo Borsellino پاولو بورسيلّينو - قاضٍ ورئيس نيابة صقلّي، أسهم برفقة زميله ورفيق عمره جوفانّي فالكوني في إماطة اللثام عن الكثير من أسرار ومخطّطات ومؤمرات مافيا "كوزا نوسترا" الصقلّية. اغتالتهُ المافيا برفقة خمسة من حمايته بتفجير مُخيف يوم 19 يوليو/ تموز 1992 في پاليرمو، بعد أقلّ من شهرَين من اغتيال فالكوني بتفجير مرعب في الطريق السريع ما بين مطار پاليرمو ومركز المدينة.

(127) Ore di Spagna ساعات في إسبانيا.


حكايات المافيا
ليوناردو شاشا
نهار البومة